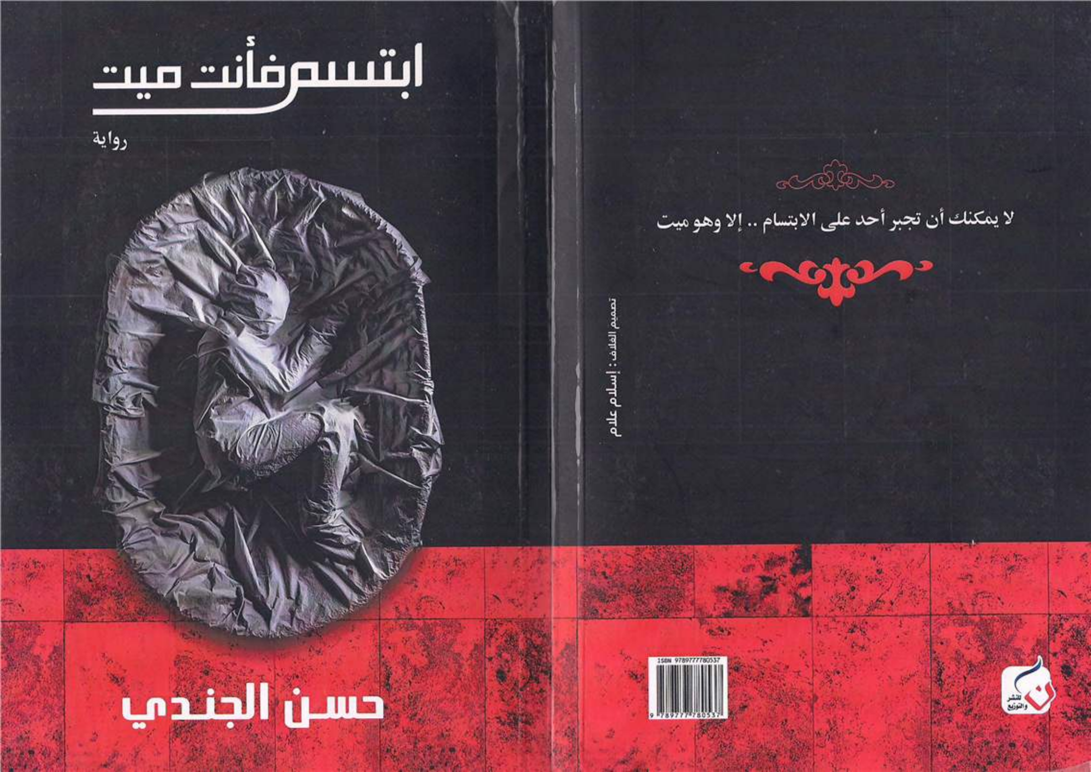

ابتسم فأنت ميت
رواية
حسن الجندي
لا يمكنك أن تجبر أحد على الابتسام .. إلا وهو ميت
تصميم الغلاف : إسلام علام
ISBN 9789777780537
9 789777 780537

إهداء ...

أهدي هذا الكتاب إليكِ أنتِ يا من وقفتِ بجانبي وتحملتِ قسوتي وطفولتي .. لو كان بمقدوري أن أكتب اسمك هنا بحروفٍ من ذهب لفعلت .. لكن لن أقدر .. -مش بخل والله بس انتي عارفة جرام الدهب بقى بكام دلوقت؟- علشان كده هاكتفي بالحبر وانتي سيد مِنْ يِقَدَّر يا ست البنات.

الحكاية الثانية

عماد الدين 2002

وقف (سيد) و(صادق) و(أمجد) يحملون حقائبهم يتأملون العمارة القديمة بالشارع المتفرع من شارع (عماد الدين) بوسط البلد، كانت ملامح الفخر على وجه (صادق)؛ لأنه هو الذي أحضر لهم تلك الشقة المفروشة بوسط البلد، بحثَ كثيرًا عن شقة مفروشة بجانب جامعة القاهرة تقبل بثلاثة من العُزَّاب فرفض الجميع.

اللهم إلا بعض الشقق المفروشة ذات السمعة السيئة، والتي كان سيقبل بها، لكن أصحابها يطلبون ما لا يقل عن 1500 جنيه في الشهر، وبالطبع هذا رقم لن يرضى به (أمجد) لأنه سيشاركه في الإيجار، بعكس (سيد) الذي لن يدفع جنيهًا واحدًا على سبيل الشفقة حتى.

أخرج (أمجد) من جيبه علبة سجائره، وأشعل واحدة وأعاد العلبة لجيبه وهو يقول:

- وقعت على شقة مفروشة هنا ازاي ؟

أدخل (صادق) يده في جيب (أمجد) وأخرج علبه سجائره وأخرج واحدة لنفسه ثم أعطى سيجارة لسيد وهو يقول:

- أهو سمسار ودّاني لسمسار لحد ما واحد فيهم قالي إن فيه شقة مفروشة في شارع عماد الدين مقفولة من زمان وعفشها قديم، وممكن نقدر نأجرها بسعر حلو.

قال (سيد) بلهجته الريفية:

- والله راجل ابن حلال .

- مش ابن حلال أوي يعني. هو أخد مني 100 جنيه علشان يخليني اتكلم مع البواب.

- هو البواب صاحب الشقة؟

- ما هو انا لما رحت للبواب عرفت الحوار كله.

- إيه الحوار؟

نظر (صادق) حوله ثم قال:

- لما نطلع الشقة هافهمكم كل حاجة.

تقدمهم (صادق) وهو يدخل من باب العمارة.

***

انفتح باب الشقة ودخل منه (صادق) وهو يدعو البقية للدخول. كانت الشقة قديمة جدًا، وكأن صادق بدلًا من أن يفتح باب الشقة قد فتح بابًا للماضي، في العقود التي كانت أبواب الشقق من الضخامة بحيث تعبر منها قافلة جِمال بكل سهولة.

لا مشكلة بالنسبة لصادق؛ فقد رآها من قبل، ولكن المشكلة كانت بالنسبة لأمجد و(سيد) اللذين لم يستوعبا تلك الشقة.

شقة ذات نمط قديم في البناء: صالة واسعة جدًا، ربما تكفي الصالة لتكون شقة صغيرة، ثلاث غرف يمكنك دخولها من الصالة، وممر جانبي طويل وعريض يقود إلى الحمَّام وهو على اليمين، والمطبخ وهو على اليسار.

سفرة طعام ضخمة مزخرفة في الصالة وبجانبها أريكة قديمة ومقاعد جلوس ومنضدة صغيرة تحتوي على أدراج بأسفلها تشبه الكومود، وُضِعَ عليها "جرامافون" قديم ومنضدة أصغر بجانب الكومود وُضِعَ عليها هاتف كبير أسود اللون مزخرف بقرصٍ دوَّار.

أعلى الجرامافون على الحائط عُلِّقَت صورة قديمة بالأبيض والأسود، ولكن اللون يميل للأصفر. يجلس رجل في الأربعينات على مقعدٍ مرتديًا جلبابًا داكن اللون وتظهر على وجهه المُزَيَّن بشارب ضخم، الجدية، وبجانبه تقف امرأة في العشرينات يظهر عليها الجمال تضع يدها على كتفه، وأمام الرجل يقف طفلان متبايني الطول يرتديان "شورتان" طويلين ويضع أصغرهما يده في جيبه مبتسمًا.

أما أغرب ما في الشقة والذي يُعتبَر غريبًا على هذا الجو القديم: طيور محنطة معلَّقة على أحد الحوائط، طائر يشبه العقاب يفرد جناحيه وتبرق عيناه برغم الأتربة التي تغطِّيه، وصقور مختلفة الأحجام وجميع الطيور تفرد أجنحتها، عددها 6 طيور من قام بتحنيطهم كان خبيرًا لدرجة أنهم حافظوا على رونقهم كأنهم أحياء؛ لدرجة أن (أمجد) متمتمًا استعاذ بالله وهو يتأملهم بجانب صاحبيه.

- إيه متحف الشمع ده يا (صادق)، مين ابن المجنونة اللي نحت الحاجات دي؟

- دي متحنطة يا أهبل.. تلاقي اصحاب الشقة القُدام اشتروهم، ما الحاجات دي أكيد بتتباع .

- سيبك انت.. أنا حاسس اني هاسمع صوت سي السيد وهو بيتنحنح ووراه (أمينة) بتقوله (ومن شر النفاثات في العقد).

- نكتة حلوة بس بلاش تقولها تاني والنبي

لم يرد (أمجد) وهو يضع حقيبته ويسير إلى إحدى الغرف ويفتحها، وجد داخلها فراشًا كبيرًا قديمًا ودولابًا ضخمًا ومرآة وتسريحة ذات مرآة مزخرفة، وبجانب الفراش على الكومود ثعبان محنط لا يزيد طوله عن المتر، التف حول نفسه ووقف جزء صغير من رأسه كأنه يتأمل (أمجد).

- إيه الذوق المقرف ده، الناس دي كانوا مجانين.

- كل واحد فينا ياخد أوضة .

قالها (سيد) وهو يتجه إلى الغرفة الثانية ويفتحها، فوجد فراشين مجاورين لبعضهما ودولابًا قديمًا ومكتبين صغيرين بمقعدين.

- لا يا خفيف منك له، الأوضة التالتة فيها كراكيب الشقة، صاحب الشقة ممكن يعوزها في أي وقت.

قالها (صادق)، فخرج (أمجد) و(سيد) من الغرف فوجدا (صادق) يجلس على الأريكة مسترخيًا وهو يسحب من سيجارته أنفاسًا طويلة. جلس (أمجد) بجانبه و(سيد) على مقعد مجاور والأخير يقول:

- طب ما ترسينا على الحوار من الأول.

- أنا لما وصلت للبواب وسألت على الشقة قالي انها مقفولة من سنين طويلة، يجي من الخمسينات كدة، واللي ورثها كان راجل غني

عايش برا في انجلترا، سابها لابنه اللي كان بيبعت كل سنة مبلغ للبواب علشان يطلع ينضفها كل سنة مرة ويتأكد من الكهربة والمية. بس الراجل مكنش في دماغه يأجَرها أو يركّز معاها. أنا فضلت ازن على البواب علشان يقنعه انه يأجرها مفروش. ونفحته 200 جنية.

- إيه يا عم انت فلوسك حرام والا إيه؟

قالها (سيد).

- وانت مال أهلك. هو انت هتدفع حاجة من جيبك ما انت هاتعيش على قفانا.

- قفا مين ياد. اومال مين اللي هايذاكرلكم السنة دي. مش ده اتفاقنا !!

- خلاص يا (سيد) صَلّ على النبي. بس على فكرة يا (صادق) انت إيدك سايبة في الفلوس.

اعتدل (صادق) في الأريكة ورفع قدمه ليطفيء السيجارة في كعب حذائه ثم يضع العقب على منضدة صغيرة أمامه:

- هاقولكم يا كاوركات أنا بدفع ليه كده. صاحب الشقة أو الوريث الحالي ليها عمره ما نزل مصر إلا مرة أو مرتين. دا حتى البواب بيقولي إن العربي بتاعه مكسَّر في التليفون أما بيكلمه كل سنة والا حاجة. أنا خليت البواب يتصل بيه ويقنعه ان أحسن ليه يأجرها لحد لأن شركة الكهربا هاتوقف عدادها علشان بقالها أكتر من 40 سنة من غير ساكن. والقانون بيقول كده ؟

- قانون إيه ده؟

قالها (سيد) مندهشًا فردَّ عليه (صادق):

- قانون امك.. طبعًا مفيش قانون كدة. دي افتكاسة مني. المهم ان البواب أقنعه يأجرها بـ250 جنية في الشهر. وقاله إنها كده غالية أوي كمان. الراجل طلع عبيط ومش فارق معاه الفلوس أصلًا. راح عمل توكيل في السفارة للبواب علشان يقدر يأجرلنا الشقة. طبعًا البواب هياخد مننا 50 جنيه فوق الإيجار كل شهر في الخبيني. دا غير حلاوته كل شهر اللي بياخدها من كل شقة في العمارة. واديته 100 جنيه كمان علشان يجيب كهربائي يغير لمض الشقة وشوية اكباس كهربا على الخفيف كده علشان يقضونا في استخدامنا.

- الله !! ما انت بتفهم أهو يا عم. امال بتشيل مواد كل سنة ليه؟؟

قالها (سيد)

- همتك انت السنة دي معانا يا (سيد) علشان نطلع بامتياز.

نهض (سيد) من مقعده وهو يقول:

- إبقوا قابلوني.

أخرج (صادق) من جيبه شيئًا صغيرًا جدًا ملفوف بورق حراري فضي، بحجم الإصبع وقال:

- لو كمّلت تريقة علينا مش هاتدوق حاجة من دي.

عاد (سيد) ليجلس على مقعده وقال بلهفة:

- إنت معاك (حشيش)؟

- قولتلي بقى نبقى نقابلك فين لو جبنا امتياز؟

- خلاص يا عم حقك علي، أنا محقوقلك.

قالها (سيد) فأخذ (أمجد) قطعة الحشيش وفض عنها الورقة لتظهر قطعة بنية صلبة.. نظر لها بشوق وهو يقول:

- كده ناقصلنا موزة.

نهض (سيد) منفعلًا وهو يقول:

- لا كله إلا الحرام.

أخذ (صادق) قطعة الحشيش وهو يقول ساخرًا:

- وهو الحشيش اللي حلال، إوعى تعترض وإلا والله مش هاتشرب حاجة وهاضيع مستقبلك.

- هاتضيعه ازاي؟

- هاحرمك من الميراث وهاتبقى لا ابني ولا اعرفك.

هنا قال (أمجد) بجدية:

- "نكتك رخمة أوي يا (صادق). وانت يا (سيد) روح قوم بقى روق الشقة وشوف هاتطبخلنا إيه؟"

- طب حد فيكم يساعدني.

- لا يا حلو، إحنا اتفقنا إن الحاجات بينا بالنص، إنت تطبخ وتمسح الشقة وتذاكرلنا، واحنا علينا مصاريف الشقة والأكل.

انتفض (صادق) قائلًا:

- والحشيش.

سار (سيد) بعيدًا عنهما فقال (صادق):

- على فكرة المطبخ مفهوش بوتجاز. هاتلاقي باجور قديم عندك. أنا خليت البواب ينضفه ويسلّكه ويجبلك جاز.

- طب حد فيكم ينزل يجبلي أكل علشان اتنيل اعمله بعد ما انضّف.

- إكتبلي كل اللي انت عايزه في ورقة وانا هانزل دلوقتي.

***

مرتديًا ملابس بسيطة وممسكًا بخرقة من القماش، راح (سيد) ينظف الشقة التي ملأ الغبار كُلَّ رُكنٍ منها.

كان (صادق) قد خرج ليشتري ما طلبه منه (سيد)، بينما راح (أمجد) يعبث بمحتويات الشقة بفضول، مُرَكِّزًا اهتمامه على الغرفة الغريبة المليئة بالكراكيب.

كان (سيد) يدندن بأغنية وهو ينظف الشقة:

- أنا هويته وانتهيت.. وليه بقى لوم العزول.. يحب..

قطع عليه (أمجد) اندماجه وهو يخرج من تلك الغرفة وفي يده كتاب قائلًا فجأة:

- ولا يا (سيد)، كتابك ده؟

أجفل (سيد) وهو يلتفت إلى (أمجد) قائلًا:

- الله يخرب بيتك، مش تخبَط الأول، خضتني يا أخي، كتاب ايه يا عم؟

مدَّ له (أمجد) يده له ليريه الكتاب؛ كان كتابًا قديمًا من تلك الكتب التي انتشرت طباعتها في تسعينات القرن الماضي، له غلاف خشن بسيط كان أزرق فيما مضى لكنه الآن صار باهتًا مائلًا للخَضَار.

لم يحمل غلاف الكتاب رسمة أو شكلًا مميَّزًا، فقط عنوانه بخطٍ عريضٍ واسم مؤلفه بخط أصغر (سحر الكُهَّان في حضور الجان) لعبد الفتاح السيد الطوخي.

تناول (سيد) الكتاب من يد (أمجد) ونظر أولًا إلى غلافه ثم فتحه ليقلّب بين صفحاته قارئًا عناوين الفصول بعينيه بسرعة في البداية، ثم ما لبث أن اتسعت عيناه وارتفع صوته وهو يقرأ قائلًا:

- جلب القرين.. لطائف الجن السفلي.. الأنوار العلوية، علوية مين يا عم؟؟

ضحك (أمجد) وهو يقول:

- مش امك اسمها (علوية) برضة؟

بخوف وعصبية قال (سيد):

- ده كتاب سحر ده ولا إيه يخربيتك؟

أطلق (أمجد) ضحكة عابثة وهو يقول:

- يا عم انا مالي هو بتاعي؟ أنا فاكره بتاعك.

باستنكار شديد قال (سيد) وهو يلقي الكتاب إلى (أمجد) كأنه ينفي تهمة عن نفسه:

- ويبقى بتاعي ليه ان شاء الله، سلامٌ قولًا من رب رحيم، إنت لقيته فين ده؟

أشار (أمجد) إلى غرفة الكراكيب بعدم اكتراث وهو يقول:

- في أوضة الفيران دي.

أشاح (سيد) بيده كأنه يحاول إبعاد الكتاب عنه بقدر الإمكان وهو يقول:

- طب ارميه الله لا يسيئك إحنا ناقصين بلاوي.

- طب ما تستنى نسأل (صادق) اما يرجع يمكن يكون بتاعه.

بعصبية أكبر رد (سيد):

- ويبقى بتاع (صادق) ليه؟ إنت مش بتقول إنك لاقيته في الأوضة الزفت دي، يا عم ارمي البتاع ده لا نتلبس.

في تلك اللحظة سمع الاثنان صوت المفتاح وهو يدور في الباب تلاه (صادق) الذي دخل حاملًا عددًا من الأكياس البلاستيكية وهو يقول:

- بتزعقوا وتجيبوا ف سيرتي ليه؟ صوتكم جايب لغاية برة.

ضحك (أمجد) وهو يقول:

- صاحبك عبيط وخايف من حتة كتاب.

اقترب منهما (صادق) ووضع الأكياس على أقرب كرسي له، وتناول الكتاب من يد (أمجد)، قرأ الاسم باستهزاء:

- سحر الكُهّان في حضور الجان، إيه يا عم الهبل ده، ده أنا ألف ورق الكتاب ده بفرة.

باستمتاع عابثٍ قال (أمجد):

- عشان تبقى سيجارة بنت جنية.

رد (صادق):

-أنا رأيي إن أنا وانت نبطل خفة دم علشان شكلنا بقى وحش أوي

بصوتٍ مرتجف قليلًا قال (سيد):

- ارموا الكتاب إحنا مش أد الكلام ده.

نظر له (صادق) ضاحكًا قبل أن يقول مداعبًا:

- الله، إيه يا وحش، أومال عاملّي فيها سبع رجالة ف بعض، وشفت الندّاهة في بلدنا، والغولة شاورتلي وانا ماشي على الترعة، وانا اللي كنت فاكرك أستاذ أحمد عبد العزيز في ذئاب الجبل

حاول (سيد) تمالك نفسه وهو يقول:

- من خاف سلم، إرموا بقى الزفت ده ومتسيبوش أعصابنا أكتر من كده.

ابتسم (صادق) وهو يقول بهدوء:

- خلاص يا عم قلبك ابيض، أنا هخليه معايا أبص فيه شوية وبعدين ألِفّ فيه سجاير. المهم، هتأكّلنا إيه بقى عشان انا جعان"

- مكرونة.

- مكرونة سادة كده؟

- لأ بالصلصة.

- ولا، أنا مش شايل كل الطلبات دي على قلبي عشان في الآخر آكل المكرونة المعجنة بتاعتك، إعمل لنا حاجة عدلة تتاكل.

- طب بس ترموا الكتاب الأول.

قالها (سيد) ثم أخذ الأكياس بعصبية واتجه إلى المطبخ وهو يبرطم بلهجته الريفية:

- أبوكوا على أبو الكتاب المعفرت على الباجور المنيل ده في يوم واحد، باجور، حد اليومين دول بيطبخ على باجور، دي ستي كان عندها بوتاجاز أربعة شعلة.

نظر (صادق) و(أمجد) إلى بعضهما البعض وهما يضحكان من طريقة (سيد) في الحديث، والذي اختفى داخل المطبخ وهو لا يزال يبرطم.

***

صوت قلي يأتي من المطبخ مختلطًا بروائح الطعام التي يتشمَّمها (صادق) باستمتاع وهو يدخِّن سيجارة حشيش في الصالة حيث جلس على الأريكة فاردًا قدميه باسترخاء على المنضدة الصغيرة أمامه، بينما وقف (أمجد) بجواره يقول:

- إنت مش هتقوم ترُصّ هدومك ولا إيه؟ عايزين نفضّي الصالة من الشنط دي.

أسبل (صادق) جفنيه ونفث سحابة من الدخان وهو يقول:

- يعني هي شنط أمي أنا بس اللي مضايقاك. ما ترص ياخويا حاجتك. إنت مالك ومالي.

- أحسن. أنا اللي استاهل. واهي مصلحة عشان أحجز الأوضة الكبيرة.

لوح (صادق) بيده بعدم اكتراث، فالتقط (أمجد) حقائبه ليفاجأ بسيد وقد خرج من المطبخ فجأة ممسكًا (كبشة) في يده كأنه يمسك سلاحًا وهو يقول بتحدٍّ بدا مضحكًا بلهجته الريفية:

- أنا سمعت حد قال الأوضة الكبيرة. ده بجد ده ولا دي تهيؤات؟

- إيه ياد مالك كل شوية تطلعلنا كده فجأة زي الخازوق. ثم تهيؤات إيه. دول لغوا الكلمة دي من أيام ستك أم أربعة شعلة.

قالها (صادق) لـ(سيد) الذي لم يُعِرْهُ اهتمامًا وهو يواجه (أمجد) الذي قال:

- أبوة، أنا قلت الأوضة الكبيرة، أنا عايزها.

ثم نظر لصادق وقال:

- احنا مش اتفقنا نبطل خفة دم احنا الاتنين

- إنت تعوز زي ما انت عايز، الأوضة الكبيرة دي بتاعتي.

- وده ليه ده ان شاء الله؟

- عشان انا اللي طلعت عيني في تنضيفها وتنضيف البيت كله .

- لا ده استكراض بقى، مانت كده كده عليك الطبخ والتنضيف، دخَّلت دي في دي ليه؟ دي حاجة ودي حاجة، اختيار الأوض ما يبقاش كده"

- أومال يبقى ازاي يا خفيف؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة ماكرة على شفتيْ (أمجد) وهو يقول:

- با اللي يحجز الأول.

قالها (أمجد) ثم جرى بسرعة وقفز ليدخل الغرفة ويلقي حقائبه بداخلها وهو يطلق ضحكة انتصار بينما (سيد) لا يزال يقف في مكانه في الصالة واضعًا يديه في وسطه وهو يقول بتحدٍ:

- برضك الأوضة بتاعتي.

- لا يا حلو أنا سبقتك، (صادق) في التراوة ومش فارق معاه أصلًا وانا حجزت الأوضة خلاص بشنطي.

- أنا حجزتها بهدوم.

- إيه؟

- إفتح الدولاب وانت تعرف.

فتح (أمجد) ضلفة من الدولاب الضخم ليجد ملابس (سيد) مُعَلَّقة ومهندمة بداخل الدولاب فزفر بضيقٍ وهو يقول:

- إنت هتاخد الأوضة دي كلها لوحدك يا (سيد)؟

- مانت كنت من ثواني عايز تاخدها انت لوحدك، ثم انت مش قلت انه بالحجز.

- طب احط هدوم الخروج عندك على الأقل، دولاب الأوضة التانية صغير أوي يا (سيد)، ثم انت هتعمل إيه بالدولاب ده كله يعني؟ ده هما بنطلونين وقميص اللي حيلتك، إنت هتعيش!

- حط ياخويا، عندك الضلف اللي على الشمال مفتحتهاش أصلًا.

- شكرًا يا (سيد) يا أمير.

- بس متبوظش أي حاجة عندك.

- حاضر يا (سيد).

- وملكش دعوة بالضلف بتاعتي خالص، متلمسهاش.

- حاضر يا (سيد).

- وتحط حاجتك وتخرج من الأوضة بسرعة عشان بقرف.

- روح يا (سيد) شوف اللي وراك لتحرقلنا الأكل.

قالها (أمجد) بنفاد صبر فعاد (سيد) ليتجه إلى المطبخ ويمر على (صادق) الذي يجلس في الصالة.

- إنت قلت حاجة يا (سيد)؟

قالها (صادق) وهو يحدق في وجهه بنظرة شِبه ذاهلة ولسانٍ ثقيل نوعًا ما.

- كنت بكلم النطع اللي جوة ده.

- لأ أنا سمعتك بتقول يا (صادق)"

- أنا ما كلمتكش أصلًا.

- أومال مين اللي ندهني؟

قالها (صادق) بدهشة أكبر في حين قال (سيد) بنفاد صبر:

- بقوللك إيه أنا مش فايق لك، إنت شكلك عليت. كفاية كده واطفي السيجارة اللي ف إيدك دي وقوم رُصّ هدومك في الدولاب. ونزّل رجليك من على الترابيزة وحياة أبوك أنا لسة منضفها.

غاب (سيد) داخل المطبخ في حين ظَلّ (صادق) في مكانه وهو ينظر حوله بشكٍّ فتوقفت عينه على الصورة القديمة المُعَلَّقة. نظر لها قليلًا. ركز على عيون الموجودين بها، على الطفلين الصغيرين بالذات. لم يعرف سبب أو مصدر الخوف الذي دَبَّ في قلبه فجأة.

هو متأكد أنه سمع شخصًا ينادي باسمه لكنه غير متأكد أن أحدًا ناداه بالفعل، ربما هي السيجارة، ربما كان "الديلر" صادقًا حين قال له إنه توصى به فعلًا، وأن الحشيش هذه المرة فوق العادة.

وضع (صادق) سيجارته على طرف المطفأة أمامه وهو يقول:

- كفاية كده فعلًا.

نفض (صادق) إحساس الخوف عنه، أو تظاهر أنه فعل، وهو ينهض حاملًا إحدى حقائبه متجهًا بها إلى غرفة النوم بخطى ثقيلة، لم يكن من طبيعته أن يعمق أي إحساس يأتيه، كان دائمًا ما يأخذ كل شيء بخفة، لذلك ضحك وهو يدخل الغرفة ويقول لنفسه:

- سيجارة بنت حرام بصحيح.

***

في الغرفة الكبيرة، أخرج (أمجد) مجموعة من قمصانه من حقيبته الموضوعة فوق الفراش ليضعها على أحد أرفف الدولاب وهمّ بسحب يده لكنها اصطدمت في طريقها بشيءٍ ما.

- إيه ده؟

قالها (أمجد) بدهشة وفضول وهو يسحب مجموعة من الأوراق المصفرة والصور القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود، تمكّن منه الفضول فأخرج قمصانه من الدولاب ووضعها على الفراش ليتفحص الرَفَّ جيدًا؛ فوجد صورًا أخرى وأقصوصات من جرائد مختلفة، جميعها قديمة.

جلس على طرف الفراش مُمْسِكًا بكل ما وجده في الدولاب متأملًا إياه، رفع أول صورة أمام عينيه، صورة بالأبيض والأسود لطفلين، أحدهما عابس والآخر مبتسم، ويبدو أن العابس يكبر الآخر بقليل، نظر للصورة بتمعُّن.

ربما لأنه شعر أنه رأى هذين الطفلين من قبل، أو ربما لأن الصورة نفسها تحمل إحساسًا غريبًا، ربما كان الوصف الأدق كلمة "طاقة"، لكن عقلية (أمجد) لم تكن بهذا العمق، لم يكن قاموسه يحمل تعبيرات مثل "طاقة نفسية".

لم يجد تعريفًا لما يشعر به ويراه سوى أنه "غريب"، لقد مرَّ مرورًا عابرًا أمام الصورة المُعَلَّقَة في الصالة، لذلك لم تحتفظ ذاكرته بملامح الطفلين الموجودين فيها، ولذلك أيضًا لم يدرك أنهما نفس الطفلين في الصورة التي يمسكها الآن، لكنه أيضًا لم يدرك أمرًا آخر غاية في الأهمية، لم يدرك (أمجد) أن هذين الطفلين، وفي هذه اللحظة، يقفان على عتبة الغرفة التي يجلس بداخلها.

***

وقف (سيد) أمام الباجور منهمكًا في إعداد الطعام، كان ما يزال ساخطًا على صديقيه بسبب استخفافهما برأيه في الكتاب، لا تزال ضحكاتهما ترن في أذنه؛ سخرية منه ومن خوفه، لم يكن يرى نفسه جبانًا بل يرى أنهما هما المستهتران.

لا يزال الضحك يرن في أذنه رغم صوت القلي الذي يملأ المطبخ، قطب (سيد) جبينه فجأة عندما سمع ضحكة فعلية هذه المرة، ثم استدار نحو باب المطبخ ليرى من منهما الذي يضحك منه الآن، لكنه لم يجد أحدًا !!.

لا بد أنه فرَّ إلى الصالة إذَن، قفز (سيد) من المطبخ إلى الطرقة إلى الصالة، المكان خالٍ تمامًا، وقف (سيد) مدهوشًا ينظر حوله، نسي

السخط ليحل التوجس محله، لكنه سرعان ما أقنع نفسه بأنه ما يزال قلقًا بسبب الكتاب.

لا داعي لإرعاب أو إهانة نفسه أكثر من ذلك، خاصة بعد الموقف السابق، ألقى (سيد) نظرة أخيرة على الصالة الخالية ثم عاد في خطوات بطيئة نحو المطبخ.

لقد تخيَّل حتمًا أنه سمع تلك الضحكة.

***

تزايد ذلك الإحساس الغريب عند (أمجد)، لم يكن يشعر أنه ليس بمفرده في الغرفة بل هو متأكد من ذلك، رفع عينيه بسرعة نحو الباب لكنه لم يجد أحدًا، غريبة، لقد ظن أنه رأى خيالًا لشخص ما يقف هناك، وظنه في البداية (سيد) وقد جاء ليسخّف عليه ويتأكد أنه لم يعبث بأشيائه، أعاد عينيه مرة أخرى للصور والأوراق وخاطر غريب يدور في رأسه.

إن عقله يصر على أن خيال (سيد) كان أقصر من طوله المعهود، ويبدو كما لو كانا خيالين ليس خيالًا واحدًا، نفض الخاطر الذي بدا له مضحكًا وقتها وهو يعود بتركيزه إلى الصور.

وجدَ مجموعة صور لفتيات يرتدين ملابس قديمة، ملابس من أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، ولكنه لم يستطع تحديد الحقبة الزمنية لتلك الفساتين والتصفيفات، فقد بدت له قديمة وحسب.

مَلَّ (أمجد) من صور الفتيات اللاتي بَدَوْنَ جميعًا متشابهات في نظره، فوضع الصور كلها بجانبه على الفراش وبدأ في تأمل الأوراق المصفرة القديمة، كانت مكتوبة بحبر أزرق بهت لونه قليلًا، أمسك (أمجد) ورقة منها وبدأ في القراءة:

"لماذا أشعر بشعورٍ مختلف تجاه (أميمة) ؟ لم أشعر بمثل هذا مع كل من سبقوها، لماذا أشعر للمرة الأولى أن (أميمة) تتقرب مني حبًا فيَّ، لماذا ليست رخيصة كمن سبقنها، منذ أن عادت وجلبت معها ذكرياتي القديمة وأنا عاجز على الاستمرار فيما كنت فيه".

***

- أنا مش..مش عارف أصورِك"

قالها (منصور) بخجلٍ وعلى وجهه ابتسامة مرتبكة لأميمة التي تجلس أمامه على كرسي التصوير بوجهها الملائكي وعلى وجهها ابتسامة حالمة وهي تنظر له قائلة:

- ليه؟ هو انا وحشة أوي كده؟

تزيد عبارتها من ارتباك (منصور) الذي يقول:

- ياخبر.. لأ طبعًا بالعكس. ده انتي.. يعني..

تتسع ابتسامة (أميمة) وهي تنظر له في مودة كأنها تريده أن يكمل، وبالرغم من ابتسامتها المشجعة وعينيها الحنونتين إلا أن (منصور) لم يكمل الجملة كما كانت ترغب. تمالك نفسه وتنحنح وهو يقول:

- أقصد يعني إن مش ده السبب اللي مخليني مش عارف أصورك.

- أومال إيه السبب؟

- إنَك..إنَك مش بتبصي للكاميرا.

قالها (منصور) وهو يبعد عينيه عنها كأنه يتحاشى النظر إليها. لم تكن (أميمة) تنظر للكاميرا بل كانت تنظر إليه هو. إلى ملامحه العادية ووجهه المقطب أغلب الوقت.

***

..لقد اقتربت بما يكفي لِأُلَمِّحَ لها بمشكلتي. بأنني لا أقدر على المعاشرة الجنسية. كان يجب أن تبتعد عني لكنها أصَرَّت أكثر على الاقتراب. أصَرَّت على احتضاني. أصَرَّت على مداواتي. لقد حاولت أن تثبت لي بطريقة غير مقصودة أنها ليست كأمي...

***

تأملها قليلًا من وراء الكاميرا وهو يفكر. كانت ومازالت (أميمة) جميلة. أجمل امرأة رآها (منصور) في حياته. ربما ليست أجمل امرأة في نظر الكاميرا لكنها أجمل امرأة في نظره هو؛ جمالها ليس ظاهريًا فحسب بل هو يأتي من الداخل. لهذا كانت الأجمل في نظره على الإطلاق. جميلة لكنها ليست ساقطة.

حنونة لكنها ليست متساهلة. كان يظن أن كل نساء الأرض لسن سوى صور مختلفة في المظهر لكنها مكرَّرة من جوهر أمه. الغريب أنها مازالت تحبه. رغم أنه ليس وسيمًا ولا ثريًا. رغم أنه عاجز جنسيًا! كيف تحب المرأة رجلًا يعجز عن إشباع رغباتها؟ هكذا. بدون أسباب أو مقابل. كيف؟

***

- إنت كنت بتنده عليًا من شوية؟

رفع (أمجد) عينيه فجأة كأنه يصحو من غفوة أو يفيق من حلم إلى (سيد) الذي ألقى ذلك السؤال وهو يقف على باب الغرفة. هَزَّ (أمجد) رأسه نفيًا وهو لا يزال شاردًا بعض الشيء.

أما (سيد) فقد نظر إلى (أمجد) بشكٍّ لم ينتبه له هذا الأخير. كان موضوع الضحكة لا يزال يضايقه رغم تظاهُره لنفسه أنه لا يهتم. وكان سؤاله الذي ألقاه بطريقة عابرة يحمل في باطنه استجوابًا. يريد أن يعرف مَن فعلها. ولمَّا كان الصدق واضحًا بشدة في وجه (أمجد) فلا بد أنه (صادق) إذن.

- إيه ده؟؟ بتقرا ف إيه؟"

- ده ورق قديم على شوية صور لقيتهم في الدولاب جوه. شكلهم بتوع الناس اللي كانوا عايشين هنا قبلينا.

- طب حطهم في أي حتة لغاية ما ناكل وبعدين ابقى اديهم للبواب يرجّعهم لصاحب الشقة لما ييجي مصر.

نهض (أمجد) يلملم الأوراق والصور وهو لا يزال يفكر بالكلام الغريب المكتوب في الورق. وفي الخيالين اللذين خُيِّل إليه أنه رآهما. (سيد) أيضًا كان يفكر فيما إذا كان (صادق) هو الذي ضحك أو.. أو من. أو ماذا؟ كان يفكر وهو مايزال يراقب (أمجد) في شك كأنه يتوقع أن ينفجر ضاحكًا فور أن يوليه ظهره.

خرج الاثنان من الغرفة التي يفترض أنها خالية الآن، لكنها ليست كذلك، وإلا فَلِمَن هذا الانعكاس الذي يظهر في المرآة، إنه انعكاسٌ لرجلٍ غير واضح المعالم يتجه نحو الدولاب ليفتحه، نرى ضلفة الدولاب تنفتح بالفعل لكنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها، فلا أحد يفتحها، ولا أحد يقف فعليًا في الغرفة.

***

عندما خرج (أمجد) و(سيد) إلى الصالة وجدا (صادق) جالسًا هناك على الأريكة يقرأ في الكتاب إياه بجدية، نظر له (سيد) بسخط وهو يتجه إلى المائدة ليعدَها في حين قال (أمجد) مبتسمًا:

- إنت قاعد تقرا ف كتاب العفاريت ده؟"

راح (سيد) يَرُصّ الأطباق على المائدة وهو يقول:

- قول لصاحبك يرمي البتاع ده، أنا حذرته من شوية، والله ليتلبس ويتجنن.

رفع (صادق) عينيه إليهما وهو يقول لأمجد باستمتاع:

- سيبك من (سيد) ده جبان، الكتاب ده كيِّفني أكتر من الحشيش.

نظر له (سيد) بغِلّ وسخط وقد صار شِبه متأكد أن (صادق) هو الذي كان يضحك منه لكنه كتم إحساسه بداخله كي لا يؤكد تهمة الجبن على نفسه أكثر. أما (أمجد) فقد جلس بجوار (صادق) على الأريكة وهو ينظر معه إلى الكتاب ويقول:

- اشمعنى؟

ازداد استمتاع (صادق) وهو يقول:

- مليان كلام كوميدي عن تحضير الجان والقرين، بس كل ما اجي أقرأ حاجة يقولي هات بخور مش عارف إيه وطبّق واكتب عليه كلام غريب، لكن لقيت بقى كلام بتقوله وخلاص علشان تجيب واحد من خدام الأيام السبعة.

بدهشة وفضول تساءل (أمجد):

- خدام الأيام السبعة؟؟

لم يستطع (سيد) السيطرة على مشاعره أكثر من ذلك وهو يهتف بغضب حاول إخفاء رنة الخوف فيه:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بطلوا كلام في الحاجات دي.

لم يعره (صادق) اهتمامًا وأكمل كلامه مع (أمجد) وهو يقرأ من الكتاب في نفس الوقت:

- يعني يوم السبت الملك الأرضي بتاعه(ميمون أبانوخ)، والملك العلوي (كسفائيل)، ويوم الحد الملك الأرضي (المذهب) والملك العلوي (روقيائيل)، ويوم الاتنين الملك الأرضي (الأبيض بن الحارث)، والملك العلوي (جبرائيل).

اشتعل الغضب والخوف بداخل (سيد)، لا هو ليس جبانًا، هو فقط يريد أن يوقف هذه المهزلة قبل أن يحدث ما لا تُحمَد عُقباه، ترك الأطباق من يده واندفع نحو (صادق) وهو يصيح مذعورًا:

- كفاية بقى.. بطل قراية يا (صادق).

- إنت لسه مصدق يا (سيد).

قالها (أمجد) وهو ينهض من جانب (صادق) فاندفع (سيد) ليجلس مكانه وانقَضَّ على (صادق) في محاولة لأخذ الكتاب منه لكن (صادق) راوغه وجذب الكتاب إليه وهو يقول:

- هات بقى الكتاب وما تبقاش غلس.

فتحه وهو يجلس على الأريكة ويقرأ بصوتٍ عالٍ بينما وضع (سيد) يديه مُغَطِّيًا بها أذنيه كي لا يسمع ومع ذلك فقد وصله الصوت:

- مخين مخين مهرباء مهرباء لقين لقين قلنهود قلنهود بدوح بدوح بدوح بدوح يا لطيف يا لطيف، أجب يا مذهب وأنت يا أحمر وأنت يا برقان وأنت يا شمهوروش وأنت يا زوبعة وأنت يا ميمون ذو القدرة والعظمة والمجد والسرور والبخور وعهدنا عليكم يكون السرور أقسمت عليكم بالعهد المأخوذ عند باب الهيكل الكبير ببابل، وهو بالعشاقش مهراقش أقش مقش شقمونهش شقمونهيش أن تأتوني مسرعين ولعزيمتي سامعين وأفعلوا ما تؤمرون، الأرض بكم ترجف والسماء من فوقكم تقذف شمخاهير برداخ أحضروا إليَّ في كل ساعة و..."

انقطعت الأضواء عن الشقة وصرخ (صادق) فجأة.

***

عادت الأضواء إلى الشقة بعد فترة قصيرة من انقطاعها، لكن المشهد الذي رآه (سيد) كان غريبًا، (صادق) ملقى على الأرض على وجهه بالقرب من باب الشقة، اتسعت عينا (سيد) وهو يهرع نحوه صارخًا في رعبٍ:

- يا نهار اسود، (صادق).. (صادق) ماله؟

وصل (سيد) إلى موضع (صادق) وهو في حالة صدمة، نزل على ركبتيه بجواره وقلبه على ظهره،كانت عينا (صادق) بيضاوين، مقلوبتين إلى الأعلى تمامًا، راح (سيد) يهزه في لوعة وهو يهتف:

- (صادق)، مالك يا (صادق)؟ (صادق) رد عليا.

مرت ثوانٍ ظلّ فيها (صادق) صامتًا متخشب الجسد، وعيناه البيضاوتان تظهران من خلف جفنيه المرتجفين، وفجأة، فتح فمه ليطلق صرخة عالية في وجه (سيد) الذي شهق فزعًا وهو يترك جسده ليسقط هو على ظهره.

أحس (سيد) أنه أوشك على فقدان الوعي من كثرة الصدمات المتتالية، شعر بالفعل بتنميل في أطرافه وبانفصال مؤقَّتٍ عن العالم لم يفق منه إلا على صوت الضحك.. ضحك؟؟

لم تكن الضحكة الأولى عند باب المطبخ قد فارقت أذنيه بعد لتأتي هذه الضحكات وتكمل على ما تبقى من أعصابه، كان كلاهما يضحك هذه المرة، (أمجد) و(صادق) الذي نهض من رقدته وقد دمعت عيناه من شدة الضحك وهو يقول:

- يخربيت شكلك ده انت مسخرة.

- إنتوا.. إنتوا بتضحكوا ؟؟

قالها (سيد) في شِبه ذهول فأجابه (أمجد) وهو لا يزال يضحك:

- وربنا انت لو شفت وشك ف المراية لتضحك معانا.

راح (سيد) ينقل بصره بين وجهيهما بتساؤل وذهول، في حين قال (صادق) مجيبًا على كل ما دار بخلده من أسئلة:

- (أمجد) اشترى الكتاب من على الرصيف باتنين جنيه واتفق معايا علشان نعمل فيك المقلب ده وهو اللي شال فيوز الكهربا بعد ما خلصت قراية ورجَّعه تاني.

نهض (سيد) من سقطته وقد حلَّ الغضب والعصبية محل الخوف والذهول بداخله وهو يدفع عنه (صادق) الذي ما زال يضحك، في حين اندفع (أمجد) نحوه محاولًا دغدغته لكن (سيد) دفعه بقوة هو الآخر.

- واخدينها هزار مش كده، طب والمصحف لتقلب جد عليكوا.

قالها (سيد) وعيناه تلتمعان ثم اندفع إلى غرفة النوم وصفق بابها خلفه، لم يستطع (صادق) و(أمجد) تحديد ما إذا كانت هذه اللمعة بسبب دموع الخوف أم الغضب، ولا حتى (سيد) نفسه استطاع ذلك.

ورغم ذلك لم يتوقف أيًا منهما عن الضحك، فقد كانا دائمًا ما يريان أن غضبة (سيد) ليست سوى مشهد من فيلم كوميدي، خصوصًا مع لكنته الريفية، لكن الموقف اليوم يختلف.

لم يَدْرِ (أمجد) إن كان السبب هو التماع عين (سيد) أو الجملة التي نطقها، لكنه شعر في داخله بشيءٍ مُقبِض، وبالرغم من ذلك فقد ظلَّ يضحك بقوة كأنه يحاول كبت شعوره هذا عن (صادق) وحتى عن نفسه.

الغريب أن (صادق)، الذي كان مستغرقًا في الضحك مثله، كان يشعر بذات الشيء، لكنه أخفاه في داخله هو الآخر.

***

- "يبقوا يقابلوني إن فلحوا"

قالها (سيد) لنفسه متهكِّمًا على صديقيه وهو يجلس على مائدة السفرة وحيدًا في الشقة وأمامه مجموعة ضخمة من الكتب والملازم وبجانبهم سيجارة حشيش لم يشعلها بعدما تركها له (صادق).

القلم في يده اليمنى وكوب الشاي الذي يفضله ثقيلًا دومًا في اليسرى، أما (صادق) و(أمجد) فقد كانا بالخارج مع بقية الشلة إحياءً لطقوس يوم الخميس المقدَّسة لدى أغلب الشباب المصريين. لوى ركن فمه بسخرية مرة أخرى وهو يسترجع الحوار الذي دار بينهم قبل خروجهما.

***

- مش عايز حاجة من تحت يا (سيد)؟

كان عطر (صادق) قد سبقه إلى الصالة وهو يقول تلك العبارة لـ (سيد) الذي كان في نفس مجلسه على المائدة بين الكتب. رفع (سيد) عينيه متأملًا ملابس (صادق) الأنيقة ووجهه المحلوق بعناية بدهشة وهو يقول:

- إنت نازل؟

ضحك (صادق) وأشار إلى نفسه قائلًا:

- أومال عامل كل ده ف نفسي عشان امدد في البلكونة مثلًا.

- لأ العفو، أكيد فيه بنات ف الموضوع طبعًا.

- مانت حلو وفاهم كل حاجة أهو.

- أكيد عرفت طالما مغرق نفسك ريحة

- ريحة !! اسمها كلونيا يا جاهل

- طب والمذاكرة يابني.

خرج (أمجد) من الغرفة هو الآخر في تلك اللحظة، فأجاب قائلًا:

- مذاكرة إيه يا(سيد) ما تصلي على النبي، النهاردة الخميس.

كان (أمجد) هو الآخر لا يقلّ أناقة عن (صادق)، صحيح أنَّ أيًا منهما لم يكن يتمتع بوسامة أو جاذبية بالغة لكنهما كانا يعرفان كيف يتأنقان ويتعطران، يعرفان كل الطرق والحيل التي تجذب الفتيات، على عكس (سيد) الذي يرتبك لو حيَّته فتاة في الجامعة.

كان يشعر أنه بجسده النحيل وبشرته المائلة للاسمرار أقل منهما بكثير، وربما كان جزءٌ من رفضه لدخول الفتيات في حياته مجرد حيلة دفاعية منه ضد الفتيات لرفضهن له، ورغم تفوقه الدراسي إلا أنه كثيرًا ما نقم على تأخُره الاجتماعي والعاطفي، لذلك نظر لـ (أمجد) و(صادق) بنوعٍ من الغيظ وهو يقول:

- هو انتوا مش كنتوا عايزيني أتنيل اذاكرلكوا؟

بابتسامة ساخرة قال (صادق):

- عادي يا (سيد) لما نرجع.

- مانتوا هترجعوا تعبانين ومهدودين، بالكتير هتتعشوا وبعدين تتقلبوا تناموا.

ضحك (أمجد) وهو يقول:

- طب وانت إيه اللي مزعلك أوي كده؟

لم يكن من الممكن أن يفصح (سيد) عن السبب الحقيقي وراء غيظه منهما، ارتشف رشفة من كوب الشاي الموضوع أمامه وخفف من حدة صوته وهو يقول متظاهرًا بعدم الاهتمام:

- أنا على مستقبلكوا يعني.

- لا متخافش أنا مأمن مستقبلي كويس.

قال (صادق) تلك العبارة ضاحكًا واتجه مع (أمجد) نحو باب الشقة استعدادًا للخروج.

- طب ومفيش مرة تفكروا تاخدوني معاكوا.

توقف كلٌ من (صادق) و(سيد) عن السير واستدارا ببطء نحو (سيد) الذي قال تلك العبارة فجأة بطريقة أدهشته هو نفسه، شعر بالارتباك والخجل ونظرات صديقيه المندهشة تحاصره.

- مانت.. مانت ملكش في الخروجات دي يا (سيد).

- ده على أساس ان انتوا بتاخدوني معاكوا ف أي حتة أصلًا.

ازداد إحراج (سيد) من لسانه الذي بدا وكأنه ينطق الجمل من تلقاء نفسه. أما (صادق) و(أمجد) فقد تبادلا النظر بارتباك وكأن كل واحد منهما يبحث عن الإجابة في وجه الآخر. أخيرًا أنقذهما (سيد) من حيرتهما وهو يقول ضاحكًا:

- أنا بهزر معاك ياض انت وهو. ولا انتوا بس اللي بتعرفوا تهزروا. هو انا أصلًا يشرفني اخرج مع عالم هايفة زيكوا. يلا يا خويا منك له اجري الحق المزة بتاعتك لا حد يعلقها منك.

انخفضت درجة الإحراج والارتباك داخلهم جميعًا بعد عبارة (سيد) الضاحكة. إلا أنها ظلت ظاهرة في ابتساماتهم المتوترة التي تبادلوها قبل أن يسرع (صادق) و(أمجد) بالخروج كأنهما يخشيان أن يلقي (سيد) جملة أخرى على شاكلة الجمل السابقة.

أما (سيد) فقد ظلَّ ينظر نحو باب الشقة المُغلَق بشيءٍ من الحزن. لقد كان ثلاثتهم يعرفون أنهم لم يصطحبوا (سيد) معهم خجلًا من بعض تصرفاته التي قد تسبب لهم الإحراج.

لأنه كان كما يقول التعبير الدارج "لخمة". كان الثلاثة يعرفون ذلك جيدًا لكن أحدًا لم يفتح ذلك الموضوع من قبل. فلماذا فتحه هو الآن بغبائه وكأنه يقصد إحراج نفسه بنفسه. لماذا؟؟

***

حاول (سيد) إعادة تركيزه إلى الأوراق أمامه وهو يرشف رشفة أخرى من الشاي، استغرق الأمر بضع دقائق قبل أن يتمكن من نسيان كل ما يتعلق بـ (صادق) و(أمجد) والبنات ليصب تركيزه كله على ورق المادة التي يذاكرها.

مرت خمس دقائق لم يُسمَع خلالها في الشقة سوى صوت تقليب الأوراق ورشفات الشاي، شعر بحاجته لدخول الحمَّام فنهض مسرعًا وهو يمر عبر الطرقة، ضغط على زر الإضاءة، غرق الحمَّام في الضوء الأصفر المنبعث من المصباح الصغير المُعلَّق في السقف منذ يوم.

الحمَّام واسع يحتوي على صنبور مزخرف قديم كبير ومرآة تقشرت أطرافها تعلوه، حوض استحمام من السيراميك تغيَّر لونه الأبيض وأصبح باهتًا مُصفَرًّا، و"تواليت" تعلوه سلسلة رفيعة أخبره (صادق) أن يجذبها بعدما ينتهي لأنها تعمل عمل "السيفون".

انتهى (سيد) وجذب السلسلة ثم توقف أمام الحوض وهو يرى حوض الاستحمام في المرآة، فتح صنبور المياة ليغسل يديه، شعر بحركة في المرآة، رفع عينيه إليها فشاهد شاب يجلس على مقعد يولي له ظهره ويفعل شيئًا ما بحوض الاستحمام وقطرات كثيرة من الدماء تناثرت على أطراف الحوض الأبيض.

تراجع (سيد) للوراء شاهقًا، ثم نظر إلى الحوض برعب فلم يجد شيئًا، نظر للمرآة فوجد نفس المشهد ولكنه ميَّز وجود أدوات معدنية على أرض الحمَّام داخل انعكاس المرآة، فجأة نظر الشاب الذي في المرآة وراءه

فرأى وجهه الذي تغطيه كمامة بيضاء، تراجع (سيد) للوراء بحركة عنيفة وهو يستعيذ بالله ويكبِّر.

عند رجوعه تعثَّر فسقط بجانب الحوض فنهض وهو ينظر له فوجده خاليًا، بلع ريقه وهو يشعر بصعوبة في التنفس وصعوبة في خروج الكلمات من حنجرته، نظر للمرآة فوجد انعكاسه بها طبيعيًا.

وزَّع نظراته بين المرآة والحوض وقد شُلَّ عقله عن التفكير أو محاولة تفسير ما رآه، خرج من الحمَّام مسرعًا وهو يحاول أن يتمهل في السير كي لا يتضاعف ذعره، وصل إلى الصالة.

صَكَّ أذني (سيد) صوت الرنين.. أجفل وهو ينظر حوله بدهشة باحثًا عن مصدر الصوت، لم يكن جرس الشقة ولا تليفونه المحمول الذي أعطاه له (أمجد) من فترة. هذا الرنين يبدو وكأنه ينبعث من أحد الهواتف القديمة، ولكن هل هناك خط هاتف أصلًا في هذه الشقة؟

لا زال الرنين مستمرًا، تحرك (سيد) من موضعه واتجه إلى المنضدة الصغيرة في الركن حيث يقع التليفون، اقترب منه وهو يتساءل بداخله عن شخصية المتصل وكيفية معرفته لذلك الرقم، ربما أعطاه (صادق) أو (أمجد) لأحد أصدقائهم.

وربما كان ذلك المتصل هو (صادق) نفسه، أو (أمجد)، نظر إلى الحمَّام بارتباك وهو يبتلع ريقه وشعر بأن رده على الهاتف سيشعره بالأمان. أمسك بالسماعة بلهفة وفضولٍ اختلطا بالقليل من القلق، شعر بقشعريرة غريبة تسري في جسده عند ملامسة معدن السماعة البارد لأذنه قبل أن يأتيه ذلك الصوت العميق قائلًا:

- مش ناقص غير إنهم يحدّفوك بالطوب ويجروا وراك وهما بيقولوا العبيط اهو، وانت عامل نفسك مش واخد بالك. عايشين بالطول والعرض وفي الآخر أهاليهم هيقفوا جنبهم حتى لو فشلوا في التعليم، أما انت بقى مش هتنفعك رهبنتك ولا تمقيق عينيك، هتفضل فاكر نفسك صاحبهم وانت مسخرتهم. وفي الآخر انت بس اللي هتقع .

تتسع عينا (سيد) وهو يهتف بفزع وغضب:

- إنت بتقول إيه؟ إنت مين أصلًا؟؟

- مش مهم أنا مين.. المهم انت ناوي تعمل إيه معاهم.

***

ظلّ (سيد) ممسكًا بسماعة الهاتف بعد أن صدر عنه صوت يشبه تكة انقطاع الخط. راح يصرخ في جنون قائلًا:

- ألو.. ألوووو.

لم يجد جوابًا ولم يسمع صوتًا، رفع سماعة الهاتف عن أذنه وهو ينظر لها بذهول، من هذا وكيف عرفه وما هذا الذي قاله؟ وضع (سيد) السماعة وعاد إلى مكانه في صمتٍ يشعر بترنُّح في عقله، كأن الكلمات التي سمعها في الهاتف قد أسكرته.

***

لم يدرِ (سيد) كم مرَّ عليه من الوقت وهو جالس أمام أوراقه وكتبه التي لم يقرأ منها حرفًا بعد تلك المحادثة الهاتفية الغريبة. نسي ما رآه في

الحمَّام بلا سبب وترك عقله يسرح وعينيه تشرد، أما يده الممسكة بالقلم فقد تحركت بعشوائية على الورق ترسم خطوطًا عابثة. أجفل عندما سمع صوتًا يصدر من جهة باب الشقة ليتبين بعدها أنه صوت المفتاح يدور في الباب، وأن (صادق) و(أمجد) قد عادا أخيرًا.

- سلام عليكم.

قالها (صادق) الذي دخل أولًا واتجه من فوره إلى الأريكة ليجلس عليها ويرفع قدميه على المنضدة أمامه، ثم تبعه (أمجد) الذي جلس على مقعد يجاوره وبدأ بحل رباط حذائه وهو يقول:

- ازيك يا (سيد)؟

ظلّ (سيد) ينظر لهما بتجهم وصمت، لم يفهما ما باله ولم يهتما كثيرًا. تمطَّى (أمجد) وهو ينهض ممسكًا بحذائه واتجه نحو غرفة النوم الثانية، في حين ظل (صادق) في مكانه وأسبل جفنيه وهو يتثاءب.

- مين فيكوا اللي اتصل؟

فتح (صادق) عينيه ببطء وكسل في حين توقف (أمجد) قبل أن يبلغ باب الغرفة وأدار رأسه نحو (سيد) وهو يقول:

- اتصل بمين؟

أعاد (سيد) سؤاله بإصرار كأنه لم يسمعه قائلًا:

- مين فيكوا اللي اتصل؟

أدار (أمجد) جسده كله ليواجه (سيد) بوجه متسائل في حين قال (صادق):

- اتصل بمين يابني؟؟

حاول (سيد) السيطرة على أعصابه وهو يقول:

- بيا..

- أنا ما اتصلتش، انت كلمته يا (صادق)؟

- أنا معييش رصيد أساسًا.

- بقولكوا إيه أنا مش ناقص استعباط، إخلصوا وقولوا مين فيكوا اللي اتصل.

- ما قلنالك محدش كلمك يا ابني انت فيه إيه، إنت جالك اتصال من رقم غريب يعني؟ وريهوني طيب يمكن اعرفه.

قالها (أمجد) وهو يمسك هاتف (سيد) المحمول الموضوع على المائدة لكنه فوجيءَ بـ (سيد) ينهض فجأة لينقَضَّ عليه وينتزع الهاتف من يده وهو يقول بحدة:

- سيب المحمول، أنا ما بتكلمش عليه، أنا بتكلم على تليفون البيت.

هنا تكلم (صادق) ليقول بصوت خامل ونبرة ساخرة:

- تليفون بيت إيه يا ابني، إنت السيجارة اللي اديتهالك شعشعت معاك ولا إيه؟

صرخ (سيد) فيهما فجأة قائلًا:

- إنتوا ما بتزهقوش! كفاية مقالب بقى.

اعتدل (صادق) وهو يقول بجدية:

- مقالب إيه يا (سيد) هو حد جه جنبك دلوقتي، إنت اللي عمَّال تقول مين اللي اتصل وتليفون البيت، تليفون إيه، الشقة ما فيهاش تليفون أصلًا.

- أومال إيه ده؟ مش تليفون ده؟؟

قالها (سيد) مشيرًا إلى الهاتف الموضوع على المنضدة في الركن، نظر (صادق) إلى حيث يشير (سيد) قبل أن يعيد بصره إليه قائلًا:

- أيوه بس مفيهوش حرارة.

***

ارتسمت نظرة غريبة على وجه (سيد)، بدا وكأنه لم يفهم ما قاله (صادق) لوهلة ثم ما لبث أن عاد وجهه ليتجهم وترتسم عليه نظرة حادة وهو يقول:

- إنت كداب.

باستنكار قال (صادق):

- وانا هكدب عليك ليه؟.

- عشان المقالب اللي انتوا بتموتوا فيها.

- مقالب إيه يا (سيد). بص

كانت تلك من (أمجد) الذي أدارا عينيهما إليه ليجداه يسحب سلك التليفون الطويل حتى وصل إلى نهايته. فقد كان القابس غير متصل بأي شيء.

اتسعت عينا (سيد) بذهول وهو يقول:

- ازاي؟

أجابه (صادق) بهدوء:

- مانا قلتلك مفيش حرارة. البواب كان قايلّي أصلًا من الأول. واهي فيشة التليفون نفسها كمان مش محطوطة. إنت شكلك كنت بتحلم ولا كان بيتهيأ لك.

بعصبية قال (سيد):

- بيتهيألي إيه؟ التليفون ده رن. أنا سمعته بوداني.

- يمكن كان تليفون حد من الجيران.

- لأ. أنا رفعت السماعة وفيه راجل رد عليًا.

- تلاقيك سمعت شوية خروشة ولا حاجة"

- لأه بقولك. الراجل كلمني.

- كلمك قالك إيه؟"

***

صمت (سيد) وهو يتذكر الكلمات فعاد (صادق) يكرر سؤاله:

- قالك إيه يابني.

- أنا دلوقتي بس فهمت كل حاجة.

قالها (سيد) بحزمٍ فضحك (صادق) وهو يقول:

- فهمت إنك كنت محشش، صح؟ يابني انت دماغك خفيفة، دا انت كنت بتتسطل حتى من الحشيش الفستك.

ضحك (أمجد) لما قاله (صادق) لكن ضحكته بُتِرَت عندما قال له (سيد) فجأة:

- شديت الفيشة يا (أمجد)، مش كده؟"

- فيشة إيه؟"

- زي ما رحت بردو تشيل فيوز الكهربا من غير ما اخد بالي.

- أنا ساحب السلك قدامك يا (سيد)، هشدها امتى؟

- كفاية بقى يا (أمجد)، كفاية اللي بتعملوه ده بجد.

- يابني انا ماعملتـ..

قاطعه (سيد) صارخًا:

-كفاية بقى

اندفع من فوره إلى غرفة النوم الرئيسية صافقًا الباب خلفه بعد عبارته تلك، تاركًا (صادق) و(أمجد) في حالة من الدهشة والحيرة.

- وصلة نكد ملهاش أي داعي.

قالها (صادق) لـ (أمجد) بعد غياب (سيد) داخل الغرفة فردَّ (أمجد) قائلًا:

- بس تفتكر فيه حد كلمه في التليفون بجد يا (صادق)؟

- كلم مين انت راخر، ده مسطول، وبعدين انا هخلص منه تطلعلي انت، قوم يا (أمجد) شوف وراك إيه بلا قلبة دماغ، قوم.

نهض (أمجد) متجهًا إلى الحمَّام في حين اتجه (صادق) إلى غرفة النوم الثانية وتناول بنطاله الملقى على الفراش بإهمال ليتفقّد جيوبه ليخرج قطعة (الحشيش) الملفوفة بالورق الفضي، فتح (صادق) أحد أدراج المكتب ليتناول منه كيسًا صغيرًا قبل أن يعود إلى الصالة مرة أخرى.

جلس على الأريكة وبدأ بتفريغ محتويات الكيس أمامه ليبدأ في إعداد قطعة (الحشيش) ولف السجائر، حانت منه التفاتة سريعة إلى الهاتف الأسود.

نظر حوله ليتأكد من كونه وحيدًا قبل أن يمد يده بتردد ليرفع السماعة ويضعها على أذنه لثوانٍ، أطلق (صادق) ضحكة تهكمية قصيرة وهو يسخر من نفسه فهو لم يسمع أيَّ شيء، لكنه حين أبعد السماعة بضعة ملليمترات عن أذنه سمع، أو ربما خُيِّلَ إليه أنه سمع: " خلي بالك من (سيد)".

***

تعدت الساعة الثانية صباحًا عندما سمعوا جميعًا صوت الطرقات، طرقات على باب الشقة؟ وفي مثل هذا الوقت؟؟

لم يكن (صادق) قد نام حتى تلك اللحظة، كان في حالة من الخِدر التي تسبق النوم حين سمعها، نهض من فراشه ونظر إلى ساعة هاتفه المحمول وهو يحاول أن يفيق ثم اتجه إلى فراش (أمجد) ليهزه قائلًا:

- (أمجد).. (أمجد)، قوم فيه حد بيخبط ع الباب.

بتململ ودون أن يفتح عينيه، قال (أمجد):

- طب ما تروح تفتح انا مالي.

- أفتح إيه الساعة اتنين بالليل.

فتح (أمجد) عينيه بتثاقل وهو ينهض من الفراش ببطء ثم يخرج هو و(صادق) من الغرفة ليقابلا (سيد) الذي نهض بدوره قائلًا:

- مين بيخبط يا جماعة؟؟

- يكونشي البواب.

قالها (أمجد) وهو ما يزال نصف نائم فردَّ عليه (سيد) بغيظ:

- بواب إيه اللي جاي دلوقت؟ إنت عبيط؟؟

- ونا إيش عرَّفني! شايفني انا اللي بخبّط!!

- خلاص يا جماعة، روح يا (أمجد) افتح شوف مين.

- خدامتك فوزية يا سي (صادق)، حاضر هافتحه.

اتجه في خطوات آلية نحو الباب ليفتحه، و(صادق) و(سيد) يتبعانه مقتربين قليلًا منه.

أما (أمجد) فقد تبخرت كل ذرة إحساس بالنوم داخل عقله وهو يفتح الباب ليرى تلك الفتاة تقف خلفه وتتساءل بابتسامة:

- مش هنا ستوديو (منصور) بردو؟؟

لم يدر (أمجد) من أين يبدأ تعجبه؛ من جمال الفتاة، أم من ملابسها وتصفيفة شعرها الغريبة، من وجودها أمام الباب في الثانية بعد منتصف الليل، أم من سؤالها عن ستوديو (منصور) هذا؟؟؟

هز (أمجد) رأسه نفيًا وهو يحملق في ملامح الفتاة بتمعن كأنه يحاول أن يتذكر شيئًا ما وهو يقول:

- لا يا آنسة، هو انا شفت حضرتك فين قبل كده؟؟

- ما اظنش، أنا ما شوفتكش قبل كدة، يبقى أكيد انت كمان ما شوفتنيش.

قالت الفتاة عبارتها وابتسمت لأمجد ثم عادت للسلم ونزلت درجاته لتختفي من أمامه، أغلق (أمجد) الباب وهو ما يزال متعجبًا وينظر خلفه لصادق و(سيد) اللذين بَدَوَا أكثر تعجُبًا وذهولًا منه ويقول:

- البنت دي أنا حاسس اني شفتها قبل كده.

- بنت مين؟

قالها (صادق) متسائلًا وهو ينظر لأمجد كأنه مجنون فيجيب (أمجد) بتلقائية وهو يشير نحو باب الشقة:

- اللي كانت واقفة هنا بتسأل على الاستوديو دي.

- واقفة فين يا (أمجد)، مفيش حد كان واقف على الباب.

***

بخطوات بطيئة سار (أمجد) نحو الأريكة وهو ينظر إلى الأرض في ذهولٍ و(صادق) يتبعه قائلًا:

- إنت كنت بتكلم مين؟

لم يعطه (أمجد) جوابًا كأنه لم يسمعه أصلًا وهو يجلس على الأريكة في شرودٍ ذاهل، فجلس (صادق) بجواره وهو يهزه قائلًا:

- (أمجد).. (أمجد) إنت شفت إيه؟

ظلّ (أمجد) صامتًا في حين وقف (سيد) أمامهم صائحًا:

- إنتوا عايزين تخوفوني تاني. مش كده. بس انا عارف إنك بتهزر يا (أمجد).

رفع (أمجد) وجهه المقطب إليه وهو يقول بجدية:

- لو بهزر معاك يبقى ازاي باب الشقة خبَّط لوحده؟؟

نظر (سيد) إلى وجه (أمجد) الجاد بشكٍّ في البداية لكن وجده لا يبتسم ولا يجفل، إنه صادق بلا شك، ثم إن باب الشقة طُرق من تلقاء

نفسه فعلًا. نظر (سيد) نحو الباب بخوفٍ ورأسه تمتلئُ بتخيُّلاتٍ مُرعِبَة لا حصر لها.

- إنت شفت إيه؟ ومين اللي انت كنت بتتخيل انك بتكلمها دي؟

ألقى (صادق) سؤاله بنبرة هادئة على (أمجد)، كان يشعر أن الموقف متوتر بما فيه الكفاية فلا داعي للمزيد من العصبية كي لا يزيده احتقانًا، ثم إنه..

ثم إنه غير مقتنع أن في الأمر شيئًا مُخِيفًا. هناك تفسير منطقي حتمًا لما حدث، وهذا التفسير مع (أمجد).

- بنت في العشرينات لابسة فستان وبتسأل على ستوديو (منصور). حاسس إني شوفت وشها قبل كده، بس مش عارف شوفته فين.

نظر (صادق) إلى (أمجد) بجمود خارجي لكن اقتناعه الداخلي بدأ بالتزحزح، (أمجد) يبدو صادقًا وواثقًا جدًا مما يقول، فإما أن ما يقوله صحيح وإما أنه يحاول أن يخدعهم بمقلب، ولكن..

ولكنهم جميعًا سمعوا الطرقات. أما (سيد) فقد ازداد خوفه بجنون وهو يتابع الحوار الدائر أمامه، كان يعلم جيدًا أنه لا خدعة ولا مقلب في الموضوع، خاصة بعدما تذكَّر موضوع الحمَّام. لكنه يجب أن يقنع نفسه بذلك، من الأفضل له أن يكون صديقاه شقيين من أن يكون الـ.

- أنا متأكد إنكم بتكدبوا عليَّا، انتوا لسة عايزين تهزروا، أنا داخل انام وسايبكم، عايزيني اخاف من العفاريت، طب انا مش هخاف منها"

قالها (سيد) بصوتٍ عالٍ كأنما يحاول أن يكبح جماح أفكاره هو شخصيًا، قالها ثم اتجه نحو غرفة النوم في عصبية، لكنه لم يكد يخطو خطوته الأولى حتى جاء صوت طرقات عالية من غرفة النوم الرئيسية تبعها صوت طرقات من الطُرقة المؤدية للحمَّام.

***

انتفض الجميع في أماكنهم مع صوت الطرقات خاصة (سيد) الذي صرخ:

- إيه ده!!!!!

لم يكد صدى الطرقات يتلاشى حتى جاء من الممر المؤدي للحمَّام صوت رجل يصرخ، هنا هَبَّ (صادق) و(أمجد) واقفين متسعي الأعين، أما (سيد) فكاد يتعثر ويسقط وهو يتراجع بفزعٍ مرددًا بعض الآيات القرآنية بصوت مسموع.

- أنا مش فاهم حاجة؟؟

قالها (صادق) بتوتر فهتف (سيد) قائلًا بغضب:

- هتسفادوا إيه لما تخوفوني؟؟؟

فلتت أعصاب (أمجد) فجأة ليصرخ في (سيد) قائلًا:

- يابني اهمد بقى قلنالك ده مش احنا، إنت ما بتفهمش، ماحنا واقفين قدامك اهو زينا زيك، استنى بقى اما نشوف آخرة المصيبة دي إيه؟

انهار (سيد) تمامًا ويبدو كما لو كان على وَشَك البكاء وهو يقول:

- آخرتها اني هاسيب الشقة بنت الكلب دي واسيبكم معاها.

خرس الكل فجأة حينما أتاهم صوت طرقات عالية من الممر وكأنه يأتي من حوائط الممر بشكل طرقات، تبعه صوت صرير باب غرفة النوم الرئيسية، تجمدت عيونهم في فزع وهم يراقبونه ينفتح ببطء، فجأة خرج شخص ما من الغرفة، شخص لا يظهر منه سوى سيلويت أسود وتفاصيل لا تظهر ملامح وجهه.

ولكنه بالرغم من ذلك نظر إلى (سيد) الذي انشلّ لسانه خوفًا، وصل الرجل إلى الغرفة الثالثة واختفى فجأة، هنا استعاد (سيد) قدرته على الكلام جزئيًا وأشار بإصبع مرتجف إلى باب الغرفة الثالثة قائلًا بلسان شِبه معوج من شدة الخوف:

- شفتوا؟

- آه.. باب أوضة النوم اتفتح لوحده..

قالها (أمجد) مجيبًا فعاد (سيد) ليقول:

- لأ، أنا باتكلم عن الراجل اللي خرج منه وراح عند أوضة الكراكيب.

رد (صادق) بخوفٍ:

- أنا ما شوفتش حد خارج من أوضة النوم.

وأكّدَ (أمجد) كلامه قائلًا:

- ولا انا.

***

اتسعت عينا (سيد) وهو ينظر إلى كُلٍّ من (أمجد) و(صادق) قبل أن يتجه نحو الأريكة ليجلس ويقول وأنفاسه تتلاحق بعصبية:

- إنتوا عايزين تجننوني، بقولكم فيه راجل خرج من أوضة النوم.

كان (أمجد) يصدقه ويدرك جيدًا ما يشعر به فقد مرَّ منذ دقائق بموقفٍ مشابه، لذلك جلس إلى جواره وربت على كتفه وهو يقول:

- إهدى يا (سيد).

- أنا لازم امشي.

قالها (سيد) بعصبية وتصميم فأجابه (صادق):

- مش لوحدك اللي هتمشي، بكرة كلنا نروح شقة تانية.

أكد (أمجد) على كلامه:

- وانا بكرة هانزل للبواب واسلّمه مفتاح الشقة وآخد منه الإيجار اللي دفعناه.

نظر (صادق) بخوف نحو غرف النوم قبل أن يقول:

- بس لازم نستنى لبكرة الصبح عشان نعرف نلم هدومنا.

أومأ له (سيد) و(أمجد) برأسيهما موافقة والأخير يقول:

- يبقى نستنى هنا في الصالة كلنا لغاية ما النهار يطلع.

تبادل الجميع نظرات صامتة بعد عبارة (أمجد) الأخيرة وكأنه لم يعد في جعبتهم كلامٌ يقال.

جلس (صادق) بجوار صديقيه على الأريكة بعد أن خاف أن يجلس بعيدًا عنهما حتى ولو على المقعد المقابل، ودونما اتفاق. التقت أعين الثلاثة على نافذة الصالة التي يطل سواد الليل من خلف زجاجها وهم يتمنون في قرارة أنفسهم لو يتبدد هذا الظلام سريعًا.

***

فتح (أمجد) عينيه بتثاقل وهو يجيلهما فيما حوله ببطء، استغرق بضع ثوانٍ ليدرك أنه في صالة الشقة وأنه كان نائمًا في وضع الجلوس على الأريكة وبجواره (سيد) الذي مال رأسه قليلًا إلى اليسار.

أما (صادق) – الذي يبدو وأنه نهض من جانبهما خلال الليل – فقد كان يغط في النوم هو الآخر على مقعدٍ قريبٍ وقد فردَ ساقيه على المنضدة الصغيرة أمامه.

نهض (أمجد) بهدوءٍ شاعرًا بضعف خفيف في ساقيه وتشويش مضبب في عينيه من أثر النوم، سار بخطوات بطيئة نحو غرفة النوم الرئيسية ووقف أمام الدولاب ليفتح الضلفة اليسرى حيث وضع ملابسه.

أخرج قميصًا وسروالًا من الجينز وبدأ بخلع ملابسه، وفجأة شعر بشيءٍ يتحرك عند المرآة الضخمة.

أدار (أمجد) رأسه بسرعة نحوها ليجد رجلًا يرتدي سروالًا بحمالة وقميصًا أبيض ويقف الرجل بداخل المرآة، ليس أمامها بل بداخلها، كأنه

انعكاس لشخصٍ غير موجود، كان الرجل يولي ظهره لـ(أمجد) الذي اقترب من المرآة بخوفٍ وذهولٍ.

وقف (أمجد) أمام المرآة تمامًا وهو يتطلع إلى سطحها الذي يقف الرجل خلفه، قَرَّبَ (أمجد) وجهه من السطح الذي تساقط الطلاء في بعض أنحائه، رمش بعينيه ليتأكد أنه لا يتوهم واقترب بوجهه أكثر، وفجأة، استدار الرجل خلفه لينظر إلى عينيه مباشرة، وقد ظهر وجهه المليء بالجروح ورقبته التي تغطيها الدماء وقال بصوتٍ عالٍ:

- امشوا من هنا.

اتسعت عينا (أمجد) عن آخرهما وتراجع بحركة حادة فاتحًا فمه ليصرخ لكنه لم يجد صوتًا يخرج من حلقه، فوجيء برأسه يصطدم بشيءٍ من الخلف فانتفض قلبه بقوة أكبر وشهق وهو يستيقظ من نومه.

نظر (أمجد) حوله بذهولٍ متطلعًا إلى الصالة، تحسس مؤخرة رأسه التي اصطدمت بظهر الأريكة، كان (سيد) و(صادق) نائمين.

استغرق بضع ثوانٍ ليسيطر على أنفاسه ويدرك أنه كان يحلم، مسح عرقه الغزير وهو ينهض، كان ما يزال يسمع صوت دقات قلبه عاليًا في أذنه وهو يوقظ صديقيه النائمين.

***

وقف (سيد) يراقب الماء الذي أوشك على الغليان في "الكنكة" التي وضعها أمامه على الباجور، سمع خطوات تقترب من باب المطبخ فتذكر موقف ضحكة الأمس الذي صار متأكدًا الآن أنه لم يكن طبيعيًا.

دار (سيد) فجأة بحركة حادة ليجد (صادق) واقفًا هناك وقد بدَّل ثيابه وارتدى ملابس الخروج.

- ايه يابني فيه إيه، خضتني.

تنفَّس (سيد) الصعداء عند رؤيته وقال:

- مانت يا عم اللي جاي تتسحَّب.

- إنت اللي بصيت وراك فجأة سرعتني، إحنا ناقصين لَبَش.

- قول لنفسك.

بنفاد صبر قال (صادق):

- خلاص خِلصنا، بقولك إيه، (أمجد) نازل يكلم البواب وانا هانزل معاه، هو يتصرف مع البواب وانا اروح للسمسار يجيبلنا شقة النهاردة علشان ننقل فيها.

نظر (سيد) حوله قبل أن يقول له لائمًا:

- وهتسيبوني هنا لوحدي؟

- ما تخافش، أديك عرفت إن الصبح مفيش حاجة بتحصل ف الشقة.

قالها (صادق) ثم استدار وسار مبتعدًا، أخذ (سيد) الكنكة وصَبَّ الماء المغلي في كوبٍ صغيرٍ ثم قلَّب الشاي والسكر وتناول الكوب ليخرج من المطبخ.

سمع صوت باب الشقة يُفتَح وَيُغلَق فجأة فنظر حوله بخوفٍ وشكٍّ، فرغم كلمات (صادق) المُطَمْئِنَة ورغم أنه رأى بنفسه أنه لا شيء يحدث في الشقة نهارًا إلا أنه لم يُجَرِّب أن يبقى بين هذه الحوائط المخيفة وحيدًا بعد ما حدث أمس.

حاول تمالك أعصابه التي عادت لتنهار مرة أخرى فور أن خطا إلى الصالة، فهناك، في ركنٍ بعيدٍ على أحد المقاعد، ومرتديًا ملابس المنزل، كان يجلس (صادق).

***

انتفض جسد (سيد) من المفاجأة قبل أن يتسمر في مكانه مُتَخَشِّبًا فيما عدا يده التي راحت ترتجف حتى كاد كوب الشاي يسقط منها، نظر له (صادق) بدهشة وهو ينهض مُقْتَرِبًا منه مُتَسَائِلًا:

- مالك؟؟

- إنت مش لسة قايللي في المطبخ إنك نازل مع (أمجد)؟

ارتسمت ابتسامة على شفتي (صادق) وهو يقول:

- أنا قلت كده؟

- آه، وكنت لابس لبس غير ده كمان.

اتسعت ابتسامة (صادق) وهو يقترب من (سيد) الذي راح يتراجع خوفًا متجهًا ببطء إلى المطبخ وهو يقول بصوت مرتجف:

- انت مين؟

- أنا (صادق) يا (سيد). مالك؟

- لأ إنت مش (صادق). قول لي مين دكتور القانون الجنائي في الجامعة عندنا.

نظر له (صادق) لثوانٍ قبل أن يطلق ضحكة ساخرة قصيرة ويقترب منه أكثر بخطوات سريعة وهو يقول:

- طبعًا ما اعرفش.

فجأة ألقي (سيد) بالشاي المغلي في وجه (صادق) الذي أمسك وجهه صارخًا بينما جرى هو إلى المطبخ وألقى بالكوب الفارغ ليتهشم على الأرض. سمع (سيد) صوت (صادق) ينادي اسمه بغضب فأسرع بالتقاط سكين من على منضدة المطبخ واستدار ليواجه (صادق) الذي وصل في تلك اللحظة عند الباب وقد بدا في عيني (سيد) غريبًا مُخِيفًا بوجهه الأحمر من أثر الاحتراق وانفعالاته الغاضبة وهو يصرخ:

- إيه اللي انت عملته ده؟؟

اقترب (صادق) من (سيد) في نفس الوقت الذي أشهر فيه (سيد) السكين ليخترق طرفها بعمق بطن (صادق) الذي تراجع وهو يمسك بطنه مُتَأَلِّمًا وينظر إليها مفزوعًا.

هل طعنه (سيد) فعلًا؟ هل سيموت؟ هل.. اختلطت الأسئلة والأحاسيس بداخله. إلا أنه لم يشعر بألمٍ قويٍّ في موضع الطعنة. كان هناك تنميل خفيف جعله يتأكد أنه يحلم بالتأكيد.

لم يمر شريط حياته أمامه كما في الروايات والأفلام، ربما لأنه لم يصدق أو يستوعب أنه سيموت حقًا، بالأمس فقط كان يدخن ويضحك ويصنع المقالب والآن الدماء تخرج بغزارة كنافورة من بطنه.

***

هل آذاهم الكتاب فعلًا أم أن كلمات (سيد) عندما حَذَّرَهُم بأن مُزْحَتَهُم ستنقلب عليهم كالنبوءة التي تحققت؟ هل كان هذا الساذج يخطط للانتقام منهما بهذا الشكل بسبب مقلب حقًا أم أن الشقة قد أصابته بالجنون؟ ولكن.. ولكنها كانت مجرد مزحة يا (سيد)، مزحة والله.

ارتجفت يد (سيد) الممسكة بالسكين وهو ينقل بصره بين سيل الدم المتدفق من بين أصابع (صادق) الممسكة ببطنه ووجه الذاهل المتألم وهو يقول:

-معرفش اسم الدكتور.. لـ. لأني مبررر..حش الجامعة أنا وو.. (أمجد).. علشان كدة.. علشان كده جبناك تشرحـ...لنا يا غبي.

لم يستطع (صادق) أن يقول أكثر من ذلك، لم يقوَ على أن يُفَسِّر أو يبرر أو يسأل أو يلوم، حاول الاقتراب من (سيد) أكثر لكن توازنه اختَلَّ فسقط على ركبتيه.

حاول مرة أخرى الإمساك بملابس (سيد)، لا يدري إن كان يريد أن ينتقم منه أو أن يستنجد به، صحيح أنه هو الذي طعنه لكنه ما يزال صديقه وربما كان ما حدث خطأ غير مقصود من (سيد)، ترددت في ذهنه

العبارة التي خُيِّلَ إليه أنه سمعها من الهاتف "خَلِّي بالك من سيد".. قد لا يزال يملك فرصة في النجاة إن.. إن..

***

طاشت يد (صادق) فلم يستطع الإمساك بـ(سيد)، ثم خارت قواه فسقط على وجهه عند قدمي (سيد) الذي كان ما يزال يقبض على السكين بيده المرتعشة كأنما يحاول السيطرة عليها. راح ركن فمه يرتجف في حركة عصبية ولسانه المُنَمِّل لا يردد سوى جملة واحدة:

- كل ده هزار.. انتوا بتهزروا معايا.. كل ده هزار.. انتوا بتهزروا معايا.

***

بهدوء من لا يدري شيئًا عمَّا جرى بالداخل. فتح (أمجد) باب الشقة ودخل وهو يقول رافعًا صوته كي يسمعه الجميع:

- البواب مصمم ما يرجعش حاجة من الفلوس.

ما إن خطا (أمجد) داخل الصالة حتى وجد (سيد) يجلس هناك على الأريكة وفي يده سكين ينزله لأسفل. رفع (سيد) عينين ذاهلتين إلى وجه (أمجد) المندهش وقال بخفوتٍ وبطءٍ:

- كنت فاكره عفريت.

قالها (سيد) بلهجة ضعيفة مستسلمة كأنه يدافع عن نفسه. لم يفهم (أمجد) شيئًا في البداية وهو ينظر بدهشة إلى وجه (سيد) المنفصل

عن الواقع ثم يهبط بعينيه إلى يده فينتبه إلى السكين التي يقطر الدم من طرفها المدبب.

اتسعت عيناه تدريجيًا وقد خُيِّل إليه أنه فهم. حاول عقله أن يرفض ما استوعبه وهو ينادي على (صادق)، دخل غرف النوم ليتفقدها بلهفة ثم جرى إلى المطبخ ودخله و..

لا يعرف (أمجد) كم مرَّ من الثواني أو ربما الدقائق وهو واقف متسع العينين على باب المطبخ ينظر إلى الجسد الملقى على وجهه وسط بركة صغيرة من الدماء.

ظلَّ عقله متمسكًا بفرضية أن هذه الجثة قد لا تكون لصديقه رغم ملابسه وشعره وهيئته التي يعرفها جيدًا. هبط، أو سقط (أمجد) على ركبتيه بجوار الجسد ليقلبه، ليرى الثقب الدامي في بطنه، ليرى وجه (صادق) الشاحب وجفنيه المنطبقين، نادى عليه (أمجد) بذهولٍ وهو يهزه بلوعة رغم معرفته التامة أنه لن يرد ولن يستجب:

- (صادق).. (صادق).

سمع (أمجد) صوت خطوات تقترب فرفع عينيه إلى باب المطبخ ليجد (سيد) واقفًا هناك بنفس النظرة الذاهلة المُغَيَّبَة في عينيه، السكين لا يزال في يده بنفس الوضعية ونفس الجملة لا تزال تتردد على لسانه:

- كنت فاكره عفريت.

صرخ فيه (أمجد):

- انت اتجننت.. إيه اللي انت عملته ده!!

اقترب (سيد) منه أكثر وهو يقول:

- انت مش هاتصدقني وهاتقولهم إني قصدت أقتل (صادق).

انتبه (أمجد) مرة أخرى للسكين في يد (سيد)، نسى أمر (صادق) والشقة وكل شيء تقريبًا وأصبح همه وخوفه الوحيد هو السكين التي يمكسها (سيد) والذي ما عاد يعرف ما يدور في رأسه ولا ما يمكن أن يُقدِمَ عليه. بخوف نقل (أمجد) بصره بين وجه (سيد) والسكين التي يحملها ونهض وهو يقول بارتباك:

- سيب السكينة اللي ف إيدك دي يا (سيد).

- إنت هتشهد إني قتلته يا (أمجد)، وانا مش السبب. إنتوا اللي بتحبوا تهزروا. بس هزاركم قلب بجد.

تذكر (أمجد) العبارة التي قالها (سيد) أمس. هل كان (سيد) يخطط لهذا من البداية! مستحيل. (سيد) الساذج الطيب الذي يخاف من خياله. لا. لابد أنه الكتاب. أو الشقة. لا يمكن أن يكون كل هذا بسبب مزاحهم معه بالأمس. لا يمكن أن يبلغ انتقامه منهما حدَّ القتل!

- محدش هزر فينا دلوقتي يا (سيد).

قال (أمجد) عبارته وهو يوقف عقله عن التفكير في دوافع (سيد). المهم الآن هو تحاشيه أو مواجهته بأي ثمن. فجأة وبيأسٍ أعطى (أمجد)

ظهره لسيد وهو يبحث بيديه عن أي سلاح على منضدة المطبخ ليدافع به عن نفسه كحركة غريزية.

لكن يديه توقفتا وعينيه اتسعتا فجأة وهو يشعر بالسكين تخترق ظهره بعنف. دار مواجهًا (سيد) الذاهل. بدا الألم واضحًا على وجهه وهو يقول بحزنٍ:

- ليه !!

دمعت عينا (سيد) وهو ينظر إلى (أمجد) الذي راح يتنفس بصعوبة وهو يستند إلى منضدة المطبخ. فجأة تعلقت عيناه بنقطة ما خلف (سيد). إنه يراه الآن. ذلك الرجل الذي رآه داخل المرآة في حلمه. كان ينظر له ول(صادق) الميت.

رفع (أمجد) يده ناحية الرجل كأنه يشير إليه لكن صوته لم يخرج من حلقه. بالضبط كما حدث في الحلم. سالت دموع (سيد) بغزارة على وجهه وهو يرى صديقه الثاني يسقط قرب الأول والسكين التي قتلهما بها منغرسة في ظهره.

لم يستطع (سيد) أن يحدد ما إذا كان ذلك خوفًا أم حزنًا. لكن شفتيه راحتا ترتجفان ودموعه تهطل بلا توقف وهو يراقب صديقيه الملقيان على أرض المطبخ وسط الدماء. لا زال لا يصدق أنهما قُتِلا. وأنه هو الذي قتلهما.

***

لا يزال وجه (سيد) يحمل ذلك التعبير المُتَأزِجِ بين الخوف والحزن، كأن ذلك التعبير صار قناعًا ملتصقًا بوجهه، لكن (سيد) الآن ليس واقفًا في المطبخ ولا في الشقة كلها، إنه جالس في غرفة وكيل النيابة الذي جلس خلف مكتبه وبجانبه الكاتب الذي يُدَوِّن المحضر.

- لسة مصمم على كلامك يا (سيد)؟؟

لم يُجِب (سيد) ولا حتى نظر لوكيل النيابة الذي عاد يقول:

- مش هيفيدك إنك تقول إن الشقة مسكونة، الكلام ده مش هيخليك تتحول لمستشفى الأمراض العقلية لو انت فاكر كده، اعترف وقول السبب الحقيقي اللي خلاك تقتل (أمجد إبراهيم) و(صادق السيد).

أدار (سيد) عينيه إلى وكيل النيابة وهو يقول بتصميم وبصوتٍ مرتعش خائف:

- الشقة مسكونة.

***

الحكاية الأولى

عام 1936 – القاهرة

كانت (قاهرة) الثلاثينيات تختلف كل الاختلاف عن (القاهرة) التي نراها اليوم، خاصة في منطقة وسط البلد، صحيح أنها تحمل نفس الهيكل العمراني والمعماري تقريبًا إلا أن الاختلافات كانت في كل ما عدا ذلك، في المتاجر، في أشكال الناس وملابسهم، في كمية السيارات المارة بين الطرقات.

بل وفي نوعية تلك السيارات نفسها. وبما أن شارع (عماد الدين) الذي أخذ اسمه من اسم شيخ مشهور عاش في حقبة المماليك بالمحروسة قديمًا يقع في منطقة وسط البلد؛ فقد كانت تلك القاعدة تنطبق عليه هو كذلك.

في شارع جانبي وعند مدخل البناية رقم 2، ستشاهد شطرًا صغيرًا من الشارع الذي بدا شِبه خالٍ في ذلك الوقت المبكر من النهار، على اليسار سيارة (كاديلاك) موديل السنة توقفت أمام متجر صغير للخردوات.

وعلى اليمين عربة فول وُضِعَ عليها القِدْر الكبير وبضعة أطباق تمتلئ بالفلافل والسلاطات والمخلل وأرغفة كبيرة من الخبز وقد وقف صاحبها خلفها منهمكًا في غَرْفِ فوله الساخن في الأطباق التي ترد إليه من زبائنه الذين توقف بعضهم أمامه ليتناول إفطاره واقفًا.

تمر أمام المدخل سيارة (مرسيدس) سوداء تتبعها بمسافة كبيرة عربة حنطور تسير ببطء مع النغمة المميزة لاصطكاك الحُلِيّ التي تزينها هي وحصانها ببعضها البعض.

على الرصيف، هناك عدد قليل من المارة من بينهم فتاة مصرية رشيقة ترتدي فستانًا بسيطًا وأخرى دلّ شعرها الأشقر على أوروبيتها يسير

بجوارها رجلٌ يرتدي حُلَّةً وقُبَّعَة، على مقربة منهما يسير رجل آخر كبير السن يرتدي جلبابًا وطربوشًا وحذاءً جلديًا.

أما تلك المرأة الجميلة ذات "اليشمك" فقد مضت تتهادى بملاءتها المحبوكة جيدًا حول جسدها الممتلئ حتى وصلت إلى بقالة صغيرة على اليمين ووقفت لتشتري بعض الطعام وهي تحادث البائع بصوت رفيع.

برغم أن البناية رقم 2 في شارع جانبي إلا أن لها عراقة بنايات شارع (عماد الدين) الرئيسي، حيث يعود تاريخها إلى عام 1914 لذا فهي مبنية على الطراز الكلاسيكي الذي مَيَّز القاهرة الخديوية.

مكوَّنة من 6 طوابق يبلغ ارتفاع الواحد منها قرابة 4 متر، أي ما يعادل حوالي طابق ونصف من البنايات الحديثة، وقد ازدانت بعدد من الزخارف والتماثيل الصغيرة المنحوتة على هيئة وجوه بشرية وملائكة مجنحة.

في تلك البناية العريقة بطوابقها الستة، وفي تلك الشقة في الدور الثالث، الشقة التي تحمل رقم"9"، فهنا تعيش أسرة الحاج (عبد الباقي) العطاروالتي تتكون من الحاج نفسه وزوجته وطفليه الصغيرين.

أما زوجته (عزيزة) فقد استيقظت اليوم كعادتها، غادرت الفراش النحاسي المرتفع ذا الناموسية ببطءٍ حتى لا توقظ زوجها النائم وتوجهت إلى المشجب الذي التقطت من عليه جلبابًا منزليًا ارتدته بعد أن خلعت قميص نومها وعلَّقَته مكانه ثم وقفت أمام المرآة لتمشط شعرها الأسود الكثيف وتعقصه في ضفيرة طويلة تصل حتى خصرها.

ورغم اللمحة الريفية في وجهها وخُلُوِّهِ تقريبًا من الزينة إلا أن الجمال بدا واضحًا عليه، تمامًا كجسدها الملفوف الممتلئ الذي لم يفلح جلبابها المنزلي الواسع في مداراة مفاتنه بشكلٍ كامل.

غادرت غرفة النوم وأغلقت الباب وراءها بهدوء ثم خرجت إلى الصالة وتوجهت كعادتها إلى "الجرامافون" الموضوع على منضدة جانبية صغيرة من الخشب المزخرف.

أدارت الذراع الجانبية له ثم وضعت الإسطوانة ليخرج منه صوت المطرب الذي كان مشهورًا وقتها (صالح أفندي عبد الحي). راحت (عزيزة) تهز رأسها وتدندن بخفوت مع أغنية "ليه يا بنفسج" التي انبعثت من بوق "الجرامافون" لتملأ صالة الشقة الواسعة التي راحت تنظفها بسرعة وخفة وهي تهز رأسها مع لحن الأغنية قبل أن تتجه إلى الطرقة الجانبية وتدخل إلى المطبخ لتبدأ في إعداد طعام الإفطار.

كان الكل ما يزالون نيامًا وصوت (صالح أفندي عبد الحي) ما يزال يصدح في الصالة حين خرجت إليها (عزيزة) تحمل أطباق الفول والفلافل والبيض والخبز لتضعها على مائدة السفرة الضخمة والتي ازدانت هي ومقاعدها الثمانية بزخارف محفورة في الخشب الثقيل؛ حين انتهت من رص المائدة أخيرًا.

اتجهت إلى غرفة نوم طفليها، (منصور) ذو التسعة أعوام و(سعيد) الذي يصغره بعامين، لتوقظهما. نهض الصبيين متكاسلين واغتسلا بسرعة بإشراف أمهما ثم ذهبا ليجلسا على المائدة ليتناولا طعام الإفطار ويتبادلا النكات الصبيانية بصوتٍ خفيض.

- يلا خلصوا أكلكوا بسرعة عشان اصحّي أبوكوا يفطر.

تزامنت جملة (عزيزة) تلك مع صوت دقات الساعة الخشبية الكبيرة ذات البندول معلنة عن تمام السابعة صباحًا.

نهض (سعيد) إثر جملة والدته على الفور في حين راح (منصور) يحشر بعض قطع الفلافل في فمه ليتكور خَدَّيهِ بشكلٍ مُضحِكٍ قبل أن يندفع خلف أخيه نحو الحمَّام كي لا تراه أمه التي لمحته رغم ذلك.

- يا واد قلت لك مية مرة ما تحشرش الأكل في بُقَّك، كده عيب اختشي.

قالتها (عزيزة) وهي تتجه إلى غرفة النوم الرئيسية لتوقظ (عبد الباقي) وتهزه برفق قائلة:

- الفطار جاهز يا حاج.

فتح (عبد الباقي) عينيه واعتدل ليتمطى بقوة وهو يقول:

- العيال فطروا؟

- فطروا يا خويا وبيجهزوا عشان المدرسة.

قالتها (عزيزة) وهي تفتح الدولاب الكبير وتلتقط منشفة نظيفة ناولتها لـ(عبد الباقي) الذي خلع جلباب النوم ليظهر من تحته سرواله وصديريته الداخليين، وضع المنشفة على كتفه ونهض وهو يتنحنح بصوتٍ قويٍّ من أثر المعسل الذي يتناوله كل ليلة.

خرج من الغرفة متجهًا إلى الحمَّام وهو ما يزال يتنحنح بصوته الأجش الذي كان يرعب (منصور) و(سعيد) ويدفعهما إلى الفرار إلى غرفتهما احترامًا.

خرج (عبد الباقي) من الحمَّام إلى مائدة الطعام مباشرة وهو ما يزال بالسروال والصديري، أما (عزيزة) فقد جلست إلى جواره وراحت تساعده وتقرّب له الأطباق.

- عالي قوي البتاع ده.

قالها (عبد الباقي) مشيرًا إلى "الجرامافون" فقالت (عزيزة):

- أهو بيسليني وانا قاعدة لوحدي.

- ابقي شغلية بعدين لما انزل.. ناوليني القُلَّة"

ناولته (عزيزة) القلة فشرب حتى ارتوى ثم نفض يديه وهو ينهض فأسرعت (عزيزة) لتقول:

- ما تقعد تكمل يا حاج، مش أكلتك.

- مصاريني وجعاني شوية هبقى أكل أي لقمة بعدين، عايز الحق أروح الوكالة عشان ورايا شغل كتير لازم أخلّصه قبل ما أسافر.

- تسافر؟

- آه، عندي سفرية بعد بكرة لـ (بورسعيد).

- سفرية إيه خير؟

- وَطِّي بس البتاع ده الأول.

قالها (عبد الباقي) بتذمر وهو يتجه إلى الحمَّام. أما (عزيزة) فقد استبد بها الفضول وهي تسرع لخفض صوت "الجرامافون" قبل أن تلحق بـ (عبد الباقي)، الذي انتهى من غسل يديه واتجه إلى غرفة النوم، لتساعده في ارتداء ثيابه مُحَاوِلَةً إخفاء الفضول واللهفة في صوتها وهي تفتح الدولاب لتتناول جلباب خروج ذا لونٍ بني داكنٍ وتقول:

- إيه حكاية السفر ده يا حاج؟

- شغلانة كده ممكن توسَّع علينا وتدخَّل لنا قرشين كويسين.

- شغلانة إيه؟

قالتها (عزيزة) وهي تساعد (عبد الباقي) في ارتداء وهندمة جلبابه في حين قال هو:

- وساطة بين جماعة فلاحين في (طنطا) وتاجر في (بورسعيد) هتاخدلها جمعة.

تغيَّر وجه (عزيزة) قليلًا وارتسمت نظرة غريبة في عينيها حاولت إخفاءها وهي تشيح بوجهها بعيدًا لتجلب عباءته السوداء من على المشجب وتقول:

-وهتقعد كل ده بعيد عننا يا حاج؟!

- ما تقلقيش.. أنا هبقى اكلمك كل يوم في التلافون، أو يوم آه ويوم لأ، حسب الظروف، أومال انا دافع الفلوس دي كلها ليه علشان ادخَّل التلافون، منظرة على الفاضي.

بدا وجه (عزيزة) غريبًا وهي تقف خلف (عبد الباقي) لتضع العباءة على كتفيه وتتركه لتأتي له بالشال في حين اتجه هو إلى طاولة الزينة والتقط مِشطَهُ الصغير لِيُشَذِّبَ به شاربه الضخم.

- وهتروح (طنطا) كمان ولا الشغلانة كلها هتخلص من (بورسعيد)؟

قالتها (عزيزة) وهي تناوله الشال الذي وضعه على كتفه وهو يقول:

- لأ طبعًا لازم أروح (طنطا) عشان اتفق مع الفلاحين بنفسي.

- والنبي كان نفسي أجي معاك يا حاج.

قالتها (عزيزة) بنبرة شبه متحسرة وهي تنحني لتتناول حذاء (عبد الباقي) الأسود الضخم وتقوم بتنظيفه وتلميعه بسرعة ومهارة في حين يلتقط هو طربوشه ليرتديه ويقف ليعدله أمام المرآة وهو يقول ضاحكًا:

- محدش بياخد نسوانه في سفرية زي دي يا ولية.

كانت (عزيزة) قد انتهت من الحذاء فأجلست (عبد الباقي) على الفراش وجثت أسفل قديمه لِتُلْبِسَهُ إياه وهي تقول مبتسمة:

- مانا عارفة يا خويا، أنا بس كان نفسي ازور (السيد البدوي) واقراله الفاتحة.

انتهى (عبد الباقي) من ارتداء حذائه فنهض وربت على كتفها مبتسمًا وهو يقول:

- معلش ابقى أقراهالك انا.

- أمانة والنبي ما تنساش.

قالتها (عزيزة) وهي تلتقط زجاجة عطر من على طاولة الزينة راحت تقطر منها على ملابس (عبد الباقي) ويديه ووجهه حتى أبعدها عنه ضاحكًا وهو يقول:

- كفاية يا (عزيزة) هاتخنق، هو أنا رايح اخطب.

ضحكت (عزيزة) بدورها وتبعته وهو يخرج من الغرفة إلى الصالة ليجدا (منصور) و(سعيد) يقفان هناك بملابس المدرسة المكوَّنة من سترة وسروالٍ قصيرٍ وطربوش. وقد انحنى (منصور) على ركبتيه ليساعد أخاه في ربط حذائه.

ما إن رأى الاثنان والدهما وهو يخرج إليهما متنحنحًا بصوته القوي كعادته حتى اعتدلا في ثباتٍ كأنهما يقفان في طابور الجيش أمام (عبد الباقي) الذي قال بصوته الأجش:

- إنت لسة هنا ياد انت وهو، يلا منك ليه هتتأخروا على المدرسة.

أسرع الصبيان بالتقاط حقيبتيهما الجلديتين واندفعا نحو باب الشقة ركضًا وهما يقولان:

- حاضر يا بابا.

أما (عبد الباقي) فقد ضحك على منظرهما وهما يوشكان على السقوط أو الاصطدام ببعضهما البعض ثم راح يداعبهما كأنه ينوي ضربهما بطرف عباءته وهما يتسابقان للخروج من باب الشقة. في الحقيقة لم يكن (عبد الباقي) من النوع الذي اعتاد على ضرب أبنائه ككثير من الآباء.

اللهم إلا مرة أو اثنتين بسبب أخطاءٍ لم يكن من الممكن التغاضي عنها أو جعلها تمر مرور الكرام. فيما عدا ذلك فهو يكاد لا يمد يده على أحدٍ منهما، بل ويحاول بقدر الإمكان تلبية أغلب طلباتهما التي تكون في مقدوره وضمن إمكانياته.

رغم ذلك كله فقد كان الولدان يحملان في نفسيهما قدرًا كبيرًا من الرهبة تجاهه، ربما بسبب طوله الفارع وشاربه الضخم، أو بسبب كَفَّيْهِ العريضتين وصوته الأجش القوي. المهم أنهما يحملان داخلهما احترامًا بالغًا له يكاد يصل إلى حد الخوف ولكنه ليس كذلك. فالحب في داخلهما يغلب الخوف دائمًا.

اتجه (عبد الباقي) لباب الشقة هو الآخر وهو يقول لـ (عزيزة):

- مش عايزة حاجة اجيبهالك من السوق وانا جاي؟

ابتسمت له وهي تقول:

- إن شالله تسلم، إنت مخلينا ناقصنا حاجةً!

- أنا كده كده هبعتلك الواد (صالح) بعد الضهر يشوفك إن كنتي عايزة حاجة.

اتسعت ابتسامة (عزيزة) وهي تقول:

- ماشي يا حاج، خلي بالك انت بس على نفسك، ربنا يفتح في وشك كل السكك المقفولة يا رب.

- ربنا يكرم.

قالها (عبد الباقي) وخرج من الشقة فانتظرت (عزيزة) حتى غاب عن ناظريها وأغلقت الباب خلفه.

***

إلى الشارع الهادئ نزل (منصور) يتبعه (سعيد) حاملين حقيبتيهما، متجهين إلى المدرسة، ورغم الازدياد النسبي في كمية الواقفين والمارة في ذلك الوقت، إلا أن الشارع ظَلَّ شِبه خالٍ.

من بين الواقفين كانت هناك فتاة صغيرة ضئيلة الجسد تقف أمام مدخل البناية محتضنة حقيبتها المدرسية، بيضاء الوجه خضراء العينين ذات ضفائر سوداء طويلة، ملامحها الجميلة رُسِمَت بوضوحٍ رغم حداثة سنها الذي يقل بعامٍ واحدٍ عن سن (منصور) الذي توقف ليحييها بابتسامة واسعة قائلًا:

- صباح الخير يا (أميمة).

- صباح النور يا (منصور).

تلك هي (أميمة) ابنة (لطفي) أفندي الذي يقطن في الطابق الخامس. كانت ابتسامة (أميمة) الواسعة تشف عن روحها الرقيقة المرحة

وسعادتها بلقاء (منصور) في نفس الوقت. أما (سعيد) فقد كان خجولًا مُطرِقَ الرأس كعادته، لذا (أميمة) هي من بدأته بالتحية قائلة:

- ازيك يا (سعيد)؟

- الحمد لله.

قالها (سعيد) بابتسامة مرتبكة ووجه محمر كعادته كلما خاطبته فتاة. لم يكن من عادته الاختلاط بأقرانه الإناث أو حتى الذكور لخجله وانطوائه الشديد، على عكس (منصور) الذي كان اجتماعيًا يحب اللعب والاندماج، خصوصًا مع (عادل) صديقه وشقيقته (أميمة) التي جمعه بها حُبّ طفولي وصداقة بريئة منذ انتقلت مع أسرتها إلى البناية منذ ثلاثة أعوام.

- بابا امبارح اشترالي كيس بِلي جديد حلو أوي. البِلي اللي فيه كبير جدًا، أكبر.. أكبر من التفاح.

ضحكت (أميمة) برقة وهي تقول:

- يا سلام، بقى فيه بلي برضه أكبر من التفاح.

- أه، لما نطلع نلعب النهاردة هوريهولك، وانتي ابقي هاتي البلي بتاعك.

- ماشي، بس انا مش هينفع اطلع بعد الغدا زي كل مرة عشان ماما عايزاني ارتب أوضتي النهاردة.

بخيبة أمل قال (منصور):

- يعني مش هنلعب، أنا كنت عايز أوريكي البلي.

- لأ ما أنا هاجي بس بعد ما ارتب الأوضة الأول.

- بس اوعي تتأخري.

- ماشي.

- أمال فين (عادل) صحيح؟

أطلقت (أميمة) ضحكة قصيرة وهي تقول:

- قصدك (عادل) أفندي، فوق بيتشيك ويضبط زر الطربوش.

كاد (منصور) يبادلها الضحك لولا ظهور والدها وشقيقها في تلك اللحظة خارجين من مدخل البناية، كان الابن، والذي يشبه والده بشدة، قد حوَّل نفسه إلى نسخة مصغرة من أبيه: بنفس المشية البطيئة المتخشبة قليلًا، والنظرة الهادئة الباردة نوعًا.

كتم (منصور) ضحكته وهو يرد على تحية (عادل) و(لطفي) أفندي الذي اقتاد (أميمة) إلى سيارته لِيُقِلَّهَا كعادته إلى مدرسة الراهبات التي ترتادها في (شبرا)، قبل أن يتجه إلى عمله في مصلحة المساحة.

أما (عادل)، فقد انضم إلى (منصور) و(سعيد) في طريقهم إلى المدرسة وهم يتجاذبون جميعًا أطراف الحديث.

***

في الرابعة وعشر دقائق تمامًا، وقف (منصور) أمام درج مكتبه الصغير ليجمع كل البلي المتناثر في أرجائه بحماسة وهو يقول لأخيه:

- ما تيجي يا (سعيد) تلعب معانا.

- لا يا عم، أنا ما بلعبش مع بنات.

قالها (سعيد) مُدَاعِبًا دون أن يرفع عينيه عن مجلة (البعكوكة) التي يتصفحها بين يديه في حين عاد (منصور)، بعد أن انتهى من جمع كل البلي الموجود في الدرج في كيسٍ صغيرٍ، يقول:

- ما (عادل) جاي يا ابني، تعالى بقى وبلاش غَلَبَة.

- (عادل) ده بالذات أنا مش بحب العب معاه، ما بيعجبوش العجب، إما ياخد كل البلي بتاعي عافية أو يعمل أزعربنة أما يخسر.

- على كيفك، بس خليك بقى صاحي عشان تفتح لي الباب اما أرجع أحسن بابا وماما ناموا، عارف يا واد لو نمت انا هعمل فيك إيه، هَرِنَّك علقة سخنة ما أكلهاش حمار في مطلع.

قالها (منصور) بلهجة جادة وقد ثَبَّتَ عينيه المتسعتين في عينيْ أخيه الصغير الذي انتابه الخوف فعلًا وهو يتساءل بخفوتٍ وضعفٍ:

- بجد؟؟

- إنت صدقت يا عبيط، أنا بضحك معاك.

قالها (منصور) مداعبًا وهو يضحك قبل أن يخرج من الغرفة إلى الصالة متجهًا إلى باب الشقة ليفتحه ويخرج ثم يغلقه خلفه بهدوء كي لا يوقظ والديه، أو والده بمعنى أصح، فهو صاحب الصوت الأعلى واليد

الأكثر خشونة في المنزل، وهو الذي يستحق أن يخافه بحق، بعكس الأم المستكينة المغلوبة على أمرها أغلب الوقت.

***

(عادل) في العاشرة من عمره، أي أنه أكبر من أخته بعامين وأكبر من (منصور) ببضعة أشهر فحسب، ورغم ذلك الفارق الضئيل بينهما في السن، والذي وضعه مع (منصور) في نفس الصف الدراسي.

إلا أنه، ومنذ وصل إلى الرقم 10، فقد اعتبر نفسه أكبر وأعلى من مستوى لعب أخته و(منصور)، و(سعيد) إذا قرر المشاركة، وذلك بحُكم الخانة الزائدة التي أضيفت لعمره وأشعرته أنه صار أهم وأكبر من بقية أصدقائه بكثير.

وها هو (عادل) يخرج من شقتهم واضعًا كتابًا مدرسيًا تحت إبطه والطربوش فوق رأسه، ليسير بهدوء وبطء مُقَلِّدًا الكبار، ومتبوعًا بأخته التي كتمت ضحكتها من مظهره وهي تقول لـ (منصور):

- ماما بتقول نلعب هنا في العمارة وما ننزلش في الشارع.

- ليه؟ ما احنا طول عمرنا بنلعب تحت.

- بتقول عشان (عادل) يعرف يذاكر دروسه، لأنه مش هيعرف يركز في الدوشة تحت.

- أما غريبة صحيح، طب ما يقعد في أوضته يذاكر.

- لأ هو عايز ييجي معانا.

- وبيجي ليه أدام مش هيلعب.

قالها (منصور) بتأفف واعتراض فرفعت (أميمة) كتفيها علامة الحيرة في حين تجاهلهما (عادل) تمامًا وهو يخرج كرسيًا خشبيًا صغيرًا ويضعه على بسطة السلم ليجلس عليه واضعًا ساقًا فوق ساق ويبدأ في قراءة كتابه، مُقَلِّدًا والده حين يقرأ الجريدة كل صباح.

ورغم اعتراض (منصور) على ما يحدث إلا أنه سرعان ما نسيه وتجاهله وهو يخرج بِليه الكبير من الكيس ليريه لـ(أميمة) بلهفة قائلًا:

- عمرك بقى شفتي بِلي أكبر من كده.

- بقى ده أكبر من التفاح يا (منصور)، ده حرنكش.

قالتها (أميمة) ضاحكة وهي تُخرج بلِيها بدورها فبادلها (منصور) الضحك هو الآخر. وسرعان ما انهمكا في اللعب والضحك والحديث.

كانت (أميمة) هي الشخص الوحيد الذي يسمح له (منصور) بالسخرية منه وقتما شاءت، ذلك لأنها من بين أصدقائه جميعًا، تحتل في قلبه الصغير مكانة لم يحتلها أحدٌ قبلها.

***

- يلا يا (منصور) خَلّص أكلك عشان تخشوا تناموا واوعوا تخرجوا من الأوضة.

قالت (عزيزة) العبارة وهي تقف على رأس (منصور) و(سعيد) وهما يتناولان طعام العشاء في المساء بعد أن سافر (عبد الباقي) إلى

(بورسعيد) صباح نفس اليوم، بدا التذمر واضحًا على وجه (منصور) وهو يقول:

- لا يا ماما بقى عايزين نلعب شوية.

- اللي بينام بدري ربنا بيحبه، زي كده ما اللي بيخلص طبقه كله عشان يدعيله.

باستنكار طفولي قال (منصور):

- الطبق ما بيعرفش يتكلم هيدعي ازاي.

- بيدعي وانت مش سامعه يا حبيبي.

ظلَّ (سعيد) يتابع الحوار الدائر بينهما وهو يمضغ الطعام في صمتٍ ناقلًا بصره بين أمه التي راحت تنظر إلى الساعة الكبيرة المُعَلَّقَة على الحائط بقلق و(منصور) الذي بدا عليه عدم الاقتناع وهو يعود ليقول:

- طب وانتي يا ماما هتنامي دلوقتي؟

- لأ.

- ليه؟

- عشان انا لسة ورايا شغل كتير في البيت.

- ومش عايزة ربنا يحبك.

زفرت (عزيزة) بنفاد صبر وبدا عليها القليل من العصبية وهي تقول:

- (منصور). خلَّص أكلك وقوم اغسل إيديك ورجليك عشان تنام وإلا والله أقول لأبوك لما ييجي من السفر إنك ما كنتش بتسمع الكلام وهو بقى يبقى يشوف له حل معاك.

زمَّ (منصور) شفتيه في ضيق وأنهى طعامه بسرعة ثم توجه مع أخيه إلى الحمَّام للاغتسال، ومن ثم إلى غرفة النوم حيث انَدسَّا تحت الأغطية التي حبكتها (عزيزة) حول جسديهما، كلٌ في فراشه الصغير.

***

لم يكن لدى (منصور) و(سعيد) أدنى فكرة عما تفعله أمهما بالخارج وربما ما كانا ليفهما ما تفعله حتى لو رأياه بأعينهما، هي في الحقيقة لم تكن تكذب حين قالت إنه ما يزال أمامها "شغل كتير".

أول ما فعلته هو أن قامت بوضع اسطوانة (سيد درويش) في "الجرامافون" لتخرج أغنية (أنا هويته وانتهيت) من بوقه الواسع، اتجهت بعدها إلى المطبخ وهي تدندن مع الأغنية باستمتاع لتتابع القِدْر الذي كانت قد تركته على الباجور منذ مدة وتزيح غطاءه لتقلِّب محتوياته.

ثم تخرج إلى الصالة لتقوم بترتيبها بسرعة كعادتها قبل أن تتجه إلى غرفة النوم وتفتح دولابها لتنتقي قميص نوم أبيض شفاف وترتديه بعد أن خلعت جلبابها المنزلي الواسع، وقفت أمام المرآة وهي تحل ضفيرتها الطويلة لينساب شعرها الأسود الكثيف على كامل ظهرها وذراعيها العاريتين.

ظلت (عزيزة) واقفة أمام المرآة لتمشِّط شعرها وتضع على وجهها بضع لمسات من الزينة. لمسات قليلة لا تتعدى القليل من البودرة والكحل وطلاء الشفاه. لتلتقط بعدها زجاجة العطر الوحيدة التي تملكها وتقطر منها بسخاء على جسدها ثم تنهي كل هذا بلمستها الأخيرة.

وهي قَرْص كل خد من خديها بقوة كي يحمر وجهها. سمعت تلك الطرقات القادمة من جهة باب الشقة. طرقات خفيفة قليلة لكنها كانت كافية كي تلتقطها أذن (عزيزة) التي أسرعت نحو الباب وكأنها في انتظارها. عَدَّلَت من ثيابها وشعرها بسرعة قبل أن تفتح الباب بلهفة وَتُطَالِع ذلك القادم الذي يزورهم في ذلك الوقت. ذلك القادم الذي لم يكن سوى (صالح)، صبي الحاج (عبد الباقي) زوجها.

***

(صالح) يملك العديد من الصفات والمهارات التي أهَّلته لا ليكون صبي الحاج (عبد الباقي) فحسب. بل ذراعه اليمنى التي يستعين بها في كل شيء تقريبًا. من أدق دقيقة في محل العطارة الكبير الذي يملكه إلى شراء متطلبات منزله وخدمة أهل بيته أحيانًا.

وقد كانت السرعة والدقة من أهم الصفات التي جعلت الحاج يختاره ليكون صبيه. أما وسامته وصِغَر سنه فهي ما جعلت (عزيزة) تقع في حبائله. لكن أهم صفة على الإطلاق. والتي نستطيع أن نقول إنها أثَّرت على كلٍّ من (عبد الباقي) و(عزيزة) معًا هي أن (صالح) كان لَبِقًا. حلو اللسان.

يقف هناك خلف الباب، مبتسمًا كعادته. وما إن رأته (عزيزة) حتى هَشَّت وبَشَّت كعادتها أيضًا وهي تُدخِله بسرعة وتنظر يمينًا ويسارًا قبل أن تغلق الباب خلفه بهدوء.

- وحشتيني

قالها (صالح) لـ (عزيزة) وهو يهم بتقبيلها لكنها راوغته وهي تقول هامسة:

- ششششش.. وطي صوتك.

عاد يحاول تقبيلها مرة أخرى وهو يمسكها من ذراعيها ليضمها قائلًا:

- مش العيال ناموا؟

- أيوه بس

- ما بَسِش، أنا هويته وانتهيت

قالها (صالح) مدندنًا مع الأغنية الصادرة عن "الجرامافون"، والتي كانت (عزيزة) تشغلها في كل مرة يأتيها فيها، مثبتًا عينيه في عينيها بتلك الطريقة التي تجعلها تذوب كالملبن بين أصابعه لكنها تمالكت نفسها وهي تجذبه إلى غرفه نومها قائلة:

- طب يالا على جوة أحسن حد من العيال يصحا ويشوفك.

استسلم ليدها وهي تسحبه إلى الغرفة وتغلق الباب خلفهما لتستسلم هي بين ذراعيه وهو يعتصرها برفق ويدفن فمه بين شفتيها وهي تئن من اللذة، مطمئنة إلى البابين المغلقين اللذين يفصلانها عن ولديها النائمين.

لكن ما لم تدركه (عزيزة) هو أن أحد هذين البابين كان مردودًا وليس مغلقًا، كان ذلك هو باب غرفة الطفلين والذي وقف (سعيد) خلفه لمدة ليست طويلة كفاية كي يرى أمه بين أحضان عشيقها، ولكن كي يرى ذلك العشيق- الذي لا يمثِّل له سوى كونه (صالح) الذي يرسله والده له بالحلوى أحيانًا- وهو يدخل إلى منزلهم في ذلك الوقت من الليل في غيابه.

***

لم تكن (عزيزة) قد امتصت بعد ما يكفيها من رحيق عشيقها الوسيم، الذي يصغرها بعشر سنوات، بعد ولكنها على الرغم من ذلك تملصت منه برفق وهي تقول:

- مش اروح أجيب الأكل بقى عشان نتعشى

بلهجة عابثة قال (صالح) وهو يفلتها:

- أكل إيه بقى هو فيه أحلى من كده.

ضحكت (عزيزة) لإطرائه وهي تقول:

- ده انا عاملة لك كوارع، مش عايز تاكل كوارع.

نظر (صالح) إلى ساقيها الباديين من أسفل قميص نومها الشفاف وهو يقول:

- أموت انا في الكوارع.

ضحكت (عزيزة) مرة أخرى بخجلٍ وهي تشير له كي يصمت ثم فتحت الباب وخرجت بهدوءٍ لتتجه إلى المطبخ وتجلب منه الصواني والأطباق.

وتعود بسرعة إلى الغرفة مرة ثانية لترص ما جاءت به على السرير الواسع الكبير، ثم تجلس عليه بجوار (صالح) الذي راح يتشمم الرائحة الشهية باستمتاع.

- من يد ما نعدمها.

قالها (صالح) لـ (عزيزة) التي راحت تضع الطعام في فمه بيدها ولا تهتم بالأكل بقدر ما تهتم بإطعامه. أما هو، فقد كان أكثر همه منصبًّا على الطعام نفسه والذي أقبل عليه بشهية بالغة.

فعزيزة تعرف أن (سعيد) فقير وأن جزءًا كبيرًا من اهتمامه بها يكمن في كونها توفر له ما لا يستطيع هو توفيره لنفسه، ولكنها كانت مفتونة به على الرغم من ذلك؛ فهو أيضًا يقدم لها ما لا تجده عند (عبد الباقي).

يقدِّم لها الحنان والدلال، يقدم لها المداعبة الرقيقة والعلاقة الجسدية الساخنة التي تفتقدها مع زوجها، يُشعِرها بجمالها الذي كف (عبد الباقي) عن مغازلته بعد أول شهر من زواجهما، وربما قبل ذلك.

لم تكره (عبد الباقي) أو تنفر منه من قبل، ولا هو يعاني من نقصٍ في الرجولة مثلًا، بالعكس، فربما لأن رجولة زوجها المفرطة وعمره الذي يزيد عن عمرها بكثير من أهم الأسباب التي تجعلها تحترمه وتهابه ولكنها لا تحبه.

لم يكن مُقَصِّرًا في حقها أبدًا لكنه لم يمثل لها سوى الإحساس بمعنى الأسرة والأمان المادي والمعنوي، أما (صالح) فقد يمثِّل لها الحب الساخن والعلاقة الملتهبة التي ترغب فيها كل أنثى حتى لو كبر سنها.

وحتى بعد أن تنجب وتصبح أمًا. لذلك فلم يكن من الممكن بالنسبة لـ (عزيزة) أن تستغنى عن أيًا منهما. ولذلك أيضًا لم تفكر حتى في أن القيام بأي عمل جنوني كالفرار معه مثلًا. الأمر الذي لم يعرضه (صالح) عليها، ولا كان في نيته عرضه.

الاثنان يفكران بواقعية وعمليه رغم بساطة تعليمهما، ويعلمان جيدًا أن قصص الحب التي تفر فيها الزوجة مع عشيقها لا تنجح إلا في الروايات، ولا تنتهي على أرض الواقع إلا بمصيبة.

أما (صالح)، فعلى الرغم من كونه مُدركًا ومستفيدًا بما تجلبه له علاقته بـ (عزيزة)، إلا أنه استمتع بالعلاقة نفسها على قدر ما استطاع، واستفاد منها لأقصى درجة.

فصحيح أنها زوجة معلمه التي تكبره بعشر سنوات إلا أنها أيضًا امرأة جميلة ميسورة الحال، بحكم زواجها من (عبد الباقي)، وهو بطبعه لم يمل إلى النساء الأصغر سنًا لكونهن أقل خبرة.

ثم إنه مع (عزيزة) يتمتع بعلاقة كاملة تشبعه وتشبعها دون الحاجة إلى السعي وراء مشقة تكوين نفسه للزواج من فتاة صغيرة في مثل سنه سيضطر معها إلى مواجهة الحياة بكل صعابها.

فلماذا يتعب بالجري وراء شيء قد لا يتحقق إلا بعد عدة سنوات وهو في استطاعته تحقيقه الآن بالكامل، وبمجهودٍ لا يتعدى إشباع رغبات (عزيزة) المدفونة في الفراش.

انتهى الاثنان من الطعام بسرعة وهما يُعِدَّان نفسيهما للحظة التي ينتظرانها بشغف، لحظة التحامهما في السرير.

بدأ (صالح) بمداعبة (عزيزة) برفق لا يعرفه زوجها الخشن، بذلت مجهودًا خرافيًا كي لا تصرخ من فرط النشوة واكتفت بتلك الآهة المكتومة التي أجَّجَت نيران (صالح) أكثر فزاد من مداعبته لها بأصابعه الخبيرة التي اكتسبت خبرتها ذاتيًا.

أحبت شفتيه الرقيقة ووجهه الناعم الخالي من الشعر بعكس (عبد الباقي) الذي يضايقها شاربه الخشن إن فكَّر يومًا في تقبيلها. تحب يده البارعة التي تعرف طريقها جيدًا بعكس زوجها الذي تؤلمها يداه الكبيرتان أكثر مما تمتعانها.

ارتسمت تلك النظرة الغريبة في عينيها وهي ترقد بجوار (صالح) بعد أن وصل كلاهما إلى ذروته وتهالكا على السرير بإنهاك.

(صالح) مشغولًا بسيجارته اللف التي يحب تدخينها دائمًا بعد أن ينتهيا، أما هي، فانشغلت بولديها، وعلى وجه التحديد، بتلك الجملة التي قالها (منصور) بعفوية قبل أن تجبره هو وأخاه على النوم كي تتمكن من الوصول إلى ما وصلت إليه الآن.

صحيح أنها لم تعتبر نفسها متدينة أبدًا، ولا تعرف عن الدين سوى القرآن الذي تسمعه في المآتم والمعوذتين اللتين تقرأهما لتحفظ ولديها من الحسد، إلا أن تلك الجملة ظلَّت ترن في أذنها على الرغم منها.

(ومش عايزة ربنا يحبك).

أقنعت نفسها أن ما يحدث ليس خطأها هي بل خطأ زوجها الذي يعتبرها "أم العيال" ولا يعاملها أبدًا كامرأة، وخطأ والدها الذي زوَّجها له، صحيح أن الأول لم يقسُ عليها أبدًا، والثاني لم يجبرها فعليًا على الزواج من الأول، إلا أن عليها أن ترمي بالخطأ على أيِّ شخصٍ آخر كي تتمكن من التمتع مع (صالح) بأسبوعٍ كاملٍ لا تدري متى ولا كيف سيتكرر.

***

مرَّ اليوم الثاني كالأول وسرعان ما لحق بهما الثالث والحياة تسير على نفس الوتيرة دون أن يعكر صفوها شيء، ظنَّت (عزيزة) أنها ستتمكن من تحقيق كل ما ترغب فيه دون الحاجة إلى التضحية بأيِّ شيء، فها هي ذي الآن تعيش لحظات الحب الملتهبة مع (صالح) كل ليلة حتى ينتهي الأسبوع وتعود مرة أخرى إلى حياتها اليومية العادية.

أُمًّا وزوجة تطبخ وتنظف ولا تنادي على زوجها أمام الناس إلا وتضع لقب "حاج" قبل اسمه، ولا ينوبها من (صالح) غير ساعة كل بضعة أيام يخطفها عند ذهاب زوجها إلى المحل، والطفلين إلى المدرسة.

أما (عبد الباقي)، فعلى الرغم من انشغاله الشديد بعمله، إلا أنه لم ينسَ أن يوفي بوعده لـ (عزيزة)؛ يحادثها تليفونيًا كل يوم حتى وصل إلى اليوم الرابع.

الوقت عصرًا و(عزيزة) انتهت للتوِّ من تنظيف المائدة بعد أن تناولت طعام الغداء مع الصبيين، وبسبب إرهاقها من العمل المتواصل في المنزل، ورغبتها في الحصول عل بعض الراحة استعدادًا لسهرة المساء اليومية،

فقد دخلت إلى غرفتها لتنام قليلًا تاركة الولدين منهمكين في حل واجباتهما المدرسية.

ذلك حين دقَّ جرس التليفون. لينهض (سعيد) من على مكتبه ويخرج إلى الصالة ليرد عليه.

- ألو. مين معايا؟

- ازيك يا (سعيد). أنا ابوك ياض.انت مش عارفني ولا إيه؟

- بابا.. ازيك يا بابا وحشتني.

- وانت أكتر يا حبيبي والله. إزيك وازي أخوك وأمك؟

- كويسين الحمد لله. إنت مش هتيجي بقى؟

- هاجي طبعًا أومال إيه.

- هتيجي إمتى؟

- كلها يومين وآجي ما تستعجلش. المهم بس تنتبه لدروسك وتذاكر كويس عشان اجيب لك حاجة حلوة وانا جاي.

- طب ما تبعتها مع (صالح) وخلاص. ماهو بييجي كل يوم.

تبددت الفرحة والاشتياق في صوت (عبد الباقي) إلى الوجوم وعدم الفهم وهو يقول:

- بييجي فين؟

- بييجي كل يوم البيت هنا.

حاول (عبد الباقي) استيعاب ما يقول ابنه وهو يقول:

- وانتوا فيه حاجة ناقصاكوا في البيت يعني عشان يجيبهالكو؟

- ما اعرفش بس هو ما بيبقاش شايل أي حاجة في إيده.

علا صوت (عبد الباقي) قليلًا، واختلطت فيه الدهشة بالعصبية وهو يقول:

- أومال بييجي ليه؟ ومين اللي أذن له بكده؟؟

حتى وهو يأتيه عبر أسلاك التليفون، شعر (سعيد) بالرهبة كعادته كلما ارتفع صوت والده، فقال بصوتٍ خائفٍ قليلًا:

- معرفش.. بس أكيد ماما لأن هي اللي بتفتح له وبتقعد معاه.

لم يتمكن (عبد الباقي) من تصديق ما يسمعه فعاد يقول بصوتٍ أعلى:

- بتقعد معاه فين وإمتى؟ وازاي بتدخَله البيت أصلًا في غيابي وبدون علمي؟؟؟؟

بدا (سعيد) وكأنه على وشك البكاء وهو يقول مدافعًا كأنما ينفي عن نفسه تهمة:

- معرفش يا بابا والله.

عقل (عبد الباقي) بدأ يستوعب ما يحدث رغم عجزه عن تصديقه، حاول إخماد النيران المستعرة في رأسه كي يفهم ويتأكد أولًا مما يقوله (سعيد) مستبعدًا أن يكون ما يقوله كذبًا؛ لأنه ما من سببٍ يدفعه لذلك، ثم إن سنوات عمره القليلة لا تسمح له بتأليف تلك القصة من الصفر.

لذلك هدأ قليلًا كي يجتذب منه المعلومات دون أن يخيفه. وخفض صوته وهو يقول:

- (صالح) بيجيلكوا إمتى يا (سعيد)؟

- مش عارف.

- يعني بالليل ولا بالنهار؟

- لأ بالليل.

- يعني الساعة بتبقى كام؟

- آآ.. مش عارف، بس العقرب الصغير بيبقى مشاور على رقم 11 أو 12، هو ده يبقى كام يا بابا؟

لم يهتم (عبد الباقي) بإجابة سؤال ابنه: فقد وصل إلى غرضه واجتذبه ليجيب هو على أسئلته. علا صوت تنفسه وبدا وكأنه على وشك الغليان وهو يتمتم بكلمات لم يفهمها (سعيد) ويزوم بطريقة مرعبة لم يسمعها من قبل.

- بابا هو انت زعلان مني؟ أنا عملت حاجة غلط؟

- لا يا ابني مفيش حاجة.

قالها (عبد الباقي) وهو يبذل مجهودًا خرافيًا كي يبدو طبيعيًا أمام ابنه كي لا يَعَظِّمَ الأمر في عينه بطريقة قد تدفعه لنقل مكالمتهما إلى (عزيزة) التي ستأخذ احتياطها طبعًا.

يجب أن يضبطها بنفسه كي يتأكد من المصيبة التي سمعها: فهو لا يصدق ما سمعه حتى الآن. لذلك أنهى المكالمة بشكلٍ طبيعيَ مع (سعيد) واعدًا إياه بالحلوى ومرسلًا سلامه إلى (منصور). وقد اتخذ قراره

الحاسم بتغيير وجهة سفره من (طنطا) إلى (القاهرة) الليلة بأيِّ ثمنٍ، حتى لو ضاعت عليه الصفقة التي سافر خصيصًا من أجلها، وحتى لو ضاعت تجارته وتبددت أمواله كلها.

الشيء الأكثر إثارة للسخرية، والذي لا يدركه أيًا من (عبد الباقي) أو (سعيد) أو حتى (عزيزة) نفسها، هو أنها تجرَعَت من نفس كأس التهديد الذي دائمًا ما لوحت به لولديها كي يناما مبكرًا لتلهو هي مع عشيقها.

التهديد بأن تشي بهما إلى والدهما كي يتصرف معهما حين يعود، لكن ما حدث هو العكس تمامًا، ما حدث هو أن ابنها وشَى بها إلى والده دون أن يقصد، وأنها هي التي سوف "يتصرف" معها (عبد الباقي) عند عودته.

***

الحكاية الثالثة

عماد الدين 2003

- آدي يا ستي الشقة، إيه رأيك؟"

خطا (سامح) على أرض الشقة المتربة حاملًا حقيبتي سفر كبيرتين وهو يقول تلك العبارة لزوجته (دعاء) التي سارت خلفه حاملة في يديها حقيبتيْ سفر صغيرتين.

وَجه (سامح) يحمل قدرًا من الوسامة لكن ذلك الشارب المُنَمَّق أسفل أنفه المستقيم أعطاه لمحة من الصرامة وربما القسوة، ملابسه أيضًا رغم بساطتها فقد كانت مُنَمَّقَة ومكوية بعناية. أما (دعاء) فمظهرها أكثر بساطة بوجهها القمحي المريح وملابسها المحتشمة التي يعلوها حجابٌ يناسبها تمامًا رغم بساطته. دارت (دعاء) دورة سريعة بعينيها في المكان وعينيها تقع على الطيور المحنطة قبل أن تقول بابتسامة هادئة:

- حلوة، أنا بحب النمط القديم ده، والحاجات المتعلقة دي مش بَطَّالَة، بس الشقة محتاجة تنضيف جامد أوي.

وضعت (دعاء) الحقيبتين اللتين تحملهما على الأرض وفعل (سامح) المثل وهو يقول:

- معلش، ربنا يعينك، بس بصراحة الشقة لقطة، إيجارها حلو وخطوتين من الشغل، هي صحيح قديمة شوية بس مش صغيرة (يشير بيده إلى الطرقة الجانبية) دي تلات أوض على فكرة، بس فيه أوضة فيهم مليانة كراكيب خلّيها زي ما هي لغاية ما اكلّم البواب علشان يبعت لصاحب الشقة ياخد الحاجات اللي فيها، اختاري لنا اللي تعجبك بقى وظبّطي الدنيا على كيفك.

نظر إلى الطرقة باتجاه المطبخ وهو يسير ناحيتها قائلًا:

- استني اشوف التلاجة والبوتجاز والأنبوبة بتوعنا اللي بعتهم النهاردة الصبح البواب طلعهم ولا لأ.

غاب (سامح) في المطبخ فقالت (دعاء) بصوتٍ عالٍ كي يسمعه:

- أنا هغيَّر هدومي و ابدأ شغل على طول، بس ياريت لو تقدر تنزل تجيب لنا حاجة ناكلها عشان شكلي كده مش هلحق أطبخ النهاردة.

خرج (سامح) من المطبخ وقطب قليلًا وهو ينظر في ساعة يده ويقول:

- لأ، أنا لازم أرجع الشركة تاني.

شعرت (دعاء) بالدهشة وبالقليل من الضيق الذي تخفيه وهي تقول:

- دلوقت؟ على طول كده!

- آه، ده انا اتأخرت كمان.

- طب خلاص، أنزل أنا أجيب"

قالتها (دعاء) ببساطة لكن حاجبي (سامح) انعقدا بشدة وهو يقول فجأة بجِدَّة:

- لأ

نظرت له (دعاء) بدهشة وصمت ورغبت في داخلها أن تعترض أو تستفسر لكنها أحجمت عن ذلك تَجَنُّبًا لردة فعل (سامح) الذي تعرف كم هو عصبي وعنيد.

تعرف جيدًا أنه إذا اتخذ قرارًا مهما كان بسيطًا فإنه يُنَفِّذَهُ مهما كان الثمن. لذا لم تجد داعيًا للجدل أو النقاش. وهي لا تريد أن تبدأ حياتها الجديدة في هذه الشقة بشجارٍ. فهي تؤمن بالفأل إلى حدٍّ كبير.

شعر (سامح) بما يدور في داخل (دعاء). لكم يحب فيها احترامها لشخصيته التي يراها هو نفسه صعبة. لانت ملامح وجهه قليلًا وهو يقترب منها حتى وصل إليها ووضع يده على كتفها وقال كأنه يعتذر عن حِدته بأسلوب غير مباشر:

- إحنا لسة ما نعرفش المنطقة هنا كويس وانا خايف عليكي تتوهي أو حد يضايقك.

ارتسمت تلك الابتسامة الواسعة المُتَفَهِّمة التي يعشقها (سامح) على وجه (دعاء) وهي تنظر له بحُبٍ فعاد ليقول:

- أنا هجيب أكل وانا مروح.

هتفت (دعاء) بمرح وهي تتساءل بفضول:

- هتجيب إيه؟

- لأ خليها مفاجأة.

قالها (سامح) بابتسامة هادئة ثم أضاف:

- أنا همشي بقى عشان ما أتأخرش أكتر من كده.

اقتربت منه (دعاء) وربتت على ذراعه بحنان وهي تقول:

- الله يعينك يا حبيبي.

أطلق (سامح) ضحكة قصيرة مقتضبة ويقول:

- الله يعينك انتي على التراب ده، يللا سلام.

اتجه (سامح) بعدها نحو باب الشقة ليفتحه ويخرج ثم يغلقه خلفه و(دعاء) تتابعه بنظراتها وهي تقول:

- خلي بالك من نفسك.

ما إن سمعت (دعاء) صوت خطواته على درجات السلم حتى هرعت إلى نافذة الصالة لتفتحها بصعوبة من كثرة الأتربة العالقة بها، منتظرة أن يمر أمامها (سامح) كي تتابعه بعينيها.

كانت تتمنى لو يرفع رأسه ليراها ويلوح لها كما يفعل الكثير من الأزواج، لكن (سامح) لم يفعل، ثم إنه لم يكن من هذا النوع، هي تعلم جيدًا كم يحبها لكنها تعلم أيضًا أنه كتوم ومتحفظ جدًا في إظهار هذا الحب.

اختفى (سامح) عن ناظريْ (دعاء) فتنهدت بقوة وهي تدعو الله من قلبها أن يحفظه كما تفعل كل يوم، أعادت غلق النافذة واستدارت لتواجه الشقة المتربة، يجب أن تبدأ التنظيف على الفور؛ فهي لن تسمح لعين (سامح) أن تقع إلا على ما يسرها فقط.

***

سار (سامح) نحو الشركة بخطوات سريعة كعادته، إلا أن ذهنه اليوم كان شاردًا .يفكر في الشقة الجديدة، في المجهود الذي ينتظره في الشركة، والطعام الذي يتوجب عليه إحضاره وهو عائد إلى المنزل.

لا ريب أنه سيعود مرهقًا مكدودًا خاصة بعد تعب النقل، لكن أكثر ما شغل باله هو (دعاء)، لقد رآها بجانب عينه وهي تتطلع له من نافذة الشقة، لكنه تظاهر كعادته أنه لم يفعل، رغب لو بادلها تلك الحميمية والحنان اللذين تعامله بهما إلا أنه لم يستطع.

هذه الأشياء ليست من طبعه، ولكن ليس هذا هو المهم الآن، المهم أن (دعاء) بمفردها في الشقة في بناية غريبة ومنطقة لا يعرفون بها أحدًا.

كانوا قبلها يسكنون في شقة في منطقة (الخصوص) بعيدة عن عمله وعن كل شيء، لكنها قريبة من شقة حماته، ثم إن والدته تعيش معهما، أما الآن وقد توفيت، وابتعدت (دعاء) عن أمها فقد صارت وحيدة تمامًا

يخاف عليها كثيرًا، يخاف عليها و.. لماذا لا يعترف بهذا لنفسه؟ أنه لا يخاف على (دعاء) فحسب وإنما.. وإنما.. نفض ذلك الخاطر عنه وأجبر ذهنه على الانشغال بمشاكل الشقة الجديدة والعمل.

لم يشعر بنفسه إلا عند اكتشافه أن هناك بضعة أمتار فحسب تفصله عن البناية التي تقع بها شركته، يا إلهي! كانت رحلة الذهاب إلى العمل تستغرق ما يقارب الساعة والنصف فيما مضى، يبدو أنه سيحب هذه الشقة الجديدة.

صعد إلى الشركة مُلقِيًا التحية بروتينيته المعتادة على كل من يقابله من زملائه حتى وصل إلى مكتبه، ألقى التحيه على (عزيز) زميله في المكتب قائلًا:

- سلام عليكم.

- وعليكم السلام، إيه التأخير ده كله، مش واخدين منك احنا على كده.

اتخذ (سامح) مجلسه خلف مكتبه وهو يقول:

- معلش عشان النقل، ما انت عارف بقى.

ابتسم (عزيز) وهو يقول:

- أيوة يا عم، مبروك الشقة الجديدة.

- الله يبارك فيك.

- بس انت عرفت ازاي تجيب شقة في المكان ده؟

لم يُحِبّ (سامح) الخوض في مسائله الشخصية كثيرًا؛ لذا ابتسم في تحفُّظ وهو يجيب باقتضاب:

- توفيق من ربنا بقى.

لم تروِ تلك الإجابة فضول (عزيز) الذي عاد يقول:

- لازم إيجارها حرَّاق، أكيد مرتبك انت والمدام يادوب بيكفي، مش كده؟

- المدام سابت الشغل من زمان.

- خسارة، أنا اعرف إنها كانت شغالة هنا بس ما شفتهاش، لكن اسمع من (نجلاء) سكرتيرة الأستاذ (هشام) إنها كانت شاطرة قوي وبتترقى بسرعة.

لم يجد (سامح) ما يجيب به سوى ابتسامة سريعة باهتة على (عزيز) الذي عاد يقول:

- هي سابت الشغل ليه؟ لازم عشان الأولاد.

لم يُعَلِّق (سامح) وإنما تناول عدة ملفات من على مكتبه ونهض سريعًا وهو يقول:

- أنا هروح أودي الملفات دي لمدام (شهيرة).

قالها واندفع خارجًا من المكتب بعصبية و(عزيز) يتابعه بعينيه مندهشًا

يسير في أروقة الشركة وهو يضغط على فكيه بقوة جعلت وجهه يحمر والعروق على جانبي رأسه تكاد تنفجر من شدة النبض، هو يعلم جيدًا أن (عزيز) ليس إلا شخصًا فضوليًا وثرثارًا.

لا يعرفه جيدًا ولا يعرف تفاصيل حياته؛ وبالتالي فهو لم يقصد أي إساءة ورغم ذلك فقد بدا وكأنه يضغط عمدًا على كل جروحه دفعة واحدة، لم يعرف أي أمر ضايقه أكثر؛ ترك (دعاء) للعمل أم مهارتها التي

يدرك جيدًا أنها تفوق مهارته أم.. أم الإعجاب الذي رآه في عيني (عزيز) وهو يتحدث عن زوجته.

حتى وإن كان إعجابًا مهنيًا لا غير. حتى وإن كان لم يرَها في حياته من قبل. لكن غيرة (سامح) كانت تفوق كل الحدود. ورُغمًا عنه تركزت أفكاره على (دعاء) وهو يتساءل بداخله. كيف هي الآن. وماذا تفعل؟

***

انهمكت (دعاء) في تلك اللحظة في تنظيف الشقة مرتدية ثوبًا منزليًا بسيطًا ابتلَّ وتلوث بالغبار في أكثر من موضع. أما شعرها فقد ربطته إلى الخلف بإيشارب صغير.

حملت تلك الصورة القديمة المُعَلَّقَة في الصالة وأخفتها خلف الدولاب. وذَكَّرَت نفسها بأن عليها أن تُعَلِّقَ صورة زواجها في نفس الموضع بوقتٍ آخر.

كانت قد رأت الثعبان المحنط منذ أن وقعت عيناها عليه على الكومود .. رفعته ووضعته تحت الفراش .. لا يصح أن يناما وبجانبهما ثعبان محنط.

بعد عدة ساعات من العمل الشاق. وبعد أن صار لون ثوب (دعاء) لا يكاد يبين من شدة البقع عليه. انتهى التنظيف أخيرًا ولم يعد باقيًا أمامها سوى إفراغ الحقائب في الدواليب.

جرَّت إحدى حقيبتي السفر الكبيرتين داخل غرفة النوم الرئيسية ورفعتها على الفراش الكبير بصعوبة لتفتحها لاهثة ثم استدارت نحو الدولاب وفتحت إحدى ضُلَفه.

بدا الدولاب في الوهلة الأولى فارغًا، لكن حين بدأت برص الملابس على الأرفف شعرت يدها بشيءٍ ما لتسحبه وتتبين ما هو: صورة فوتوغرافية قديمة بالأبيض والأسود، مَدَّت يدها داخل الدولاب مرة أخرى متفحصة ذلك الرف لتجد أشياء أخرى.

المزيد من الصور القديمة، جرائد مقصوصة على أخبار بعينها، وأوراق مصفرة مسطرة مكتوب عليها بخطٍ جميلٍ صغيرٍ.

تغلَّب الفضول الأنثوي عليها فتركت ما كانت تفعله لتتأمل ما وجدته، طوال حياتها وهي تحب الأشياء القديمة، ولو امتلكت بعض النقود لبددتها في جمع التحف؛ لذا فتلك الصور والأوراق كالكنز بالنسبة لها.

راحت تُقَلِّبُ في الصور بين يديها، جميعها لفتيات جميلات مبتسمات يرتدين أثوابًا ذات موديلات قديمة ويصففن شعورهن بطرق قَدَّرَت أنها تنتمي لأواخر الأربعينيات أو مطلع الخمسينيات.

جميع الصور حملت عبارة (ستوديو منصور) بخطٍ زخرفي جميل في الركن الأسفل على اليسار، نَحَّت الصور جانبًا وتأملت الجرائد بلا اكتراث قبل أن تنتقل للأوراق المصفرة.

تراجعت بجسدها حتى جلست متربعة فوق الفراش الكبير وبدأت في القراءة:

"رأيتها بعيني، بأم عيني، إنه لمن المستحيلات أن أنسى ذلك المنظر، أمي تحت قدم أبي، الدم يجري من جبينها، والمسدس في يده، حينها كنت طفلًا، لا أزال أخشى أن تموت أمي، لكني بعدها تمنيت من كل قلبي لو أنها ماتت فعلًا، فلربما غسلت دماؤها عارنا و عارها.

***

..خائنة، أمي أنا خائنة، أكمل نساء العالم في نظر كل طفل، لكن حظي العثر جعل أمي تُدَنِّس كل امرأة أخرى في نظري، فإن كانت الأم، التي هي مثال الطُهر والنقاء، قادرة على ارتكاب مثل هذا الجرم الفظيع، فأي امرأة بعد ذلك تؤتمَن!!

***

قَلَّبَت (دعاء) في الأوراق قليلًا بعشوائية حتى أخرجت ورقة أخرى وعاودت القراءة:

"لن أتزوج، ربما لم يكتب الزواج لمن هو مثلي، فكل شيء مُقدَّر ومكتوب، إذ كيف أتزوج و أنا لا أطيق النساء، وكيف أتزوج وأنا لا أقدر على مضاجعتهن، فمن منهن سترضى بالحُبِّ العذري، من منهن ستطيق الابتعاد عن إشباع شهواتها، كلهن أمي"

مهنتي هي وجوه البشر، أسجِّل تعبيراتهم، أحفظها عبر الزمن، وعن طريق مهنتي رأيت من الجمال ما يكفيني، هذا الوجه الجميل وذلك القد

الرشيق.. لماذا منح الله النساء كل هذا القدر من الجمال وكل هذا القدر من الخيانة، كل هذا القدر من الرقة و كل هذا القدر من الدنس.

***

لن أتزوج لأنني عاجزٌ عن الزواج، لكنني لستُ عاجزًا عن الحب، رجولتي عاجزة لكن قلبي في كامل قواه، قلبي يستطيع أن يحب.. ويكره، قلبي يستطيع أن يحب (وفاء)، يمكنه أن يُغْرَم بابتسامتها الهادئة و شعرها الحريري، لكن ماذا عن قلبها، عن جسدها، أتحفظ جسدها لي فحسب، أيحمل قلبها الوفاء الذي يحمله اسمها. قلبي يمكن أن يقع صريعًا في هوى (ليلى)، صاحبة العينين اللتين لم أرَ لهما مثيلًا، أول فتاة أصوِّرها في حياتي، لكنها لم تكن الأخيرة".

توقفت (دعاء) عن القراءة في تلك اللحظة وهي تفكر في طريقة كتابة تلك الأوراق والتي تشبه الخواطر، برغم أنها كُتِبَت كما هو واضح على فترات متباعدة لاختلاف نوع الحبر ودرجة اهتزاز الكلمات، إلا أنها تروي قصة تكاد تتضح معالمها.

تذكرت الكلمات عن (ليلى) في الأوراق فعادت لذاكراتها صورة جذبتها فعلًا، قلَّبَت قليلًا بين الصور حتى وجدتها، صورة لفتاة من أجمل ما رأت في حياتها، لها عينان واسعتان أخَّاذتان وقد رسمتهما بتلك الطريقة الساحرة التي تميز فترة الأربعينات.

- أكيد هي دي (ليلى)

قالتها (دعاء) لنفسها وهي تتأمل الصورة بإعجاب قبل أن تقلبها لترى ظهرها، فتقع عيناها على عنوان مطبوع بخط صغير. قطبت جبينها للحظة وهي تقرأ العنوان وبدا عليها علامات التفكير وهي تقول:

- هو مش ده عنوان الشقة هنا؟ هي كانت ستوديو زمان ولا إيه؟!

شعرت لحظتها بالورق وكأنه ازداد ثقلًا بين يديها، دائمًا ما تشعر أن آثار أي شخص مهما كان تحمل جزءًا منه، لذا فقد بدا لها وكأن تلك الكلمات قد احتفظت بجزءٍ من روح من كتبها بداخلها.

ليس فقط لأنها مذكرات رجل ربما يكون في عداد الموتى، ولكن لأن قصة ذلك الشخص كانت غريبة بحق. رفعت (دعاء) الأوراق أمام عينيها مرة أخرى وعادت تقرأ بتركيز:

"... كل هذا الجمال وهذه الرقة تستحق من تملكهما أن تحيا بسعادة، تستحق أن تجد كنفًا يحميها من شرور الدنيا، ولكن ماذا لو كان هذا الجمال هو الشر نفسه؟ ماذا لو كانت (مها) تتظاهر بكل هذه العفة، فقط كي تأسر بها الرجال ثم تقتلهم بعدها كما تفعل الأرملة السوداء؟ و لماذا لا أستدرجها أنا إلى الفخ بدلًا من أن تقودني هي إليه؟ لماذا لا أختبر عفتها و أرى إن كان احمرار خديها هذا خجلًا حقيقيًا أم تصنُّعًا ؟..و ماذا لو كشفتها على حقيقتها، الحقيقة الحتمية، كل النساء لسن سوى صورٍ لأمي، و أمي كانت تستحق القتل"

تركيز (دعاء) كله في هذه اللحظة على الورق الذي تقرؤه وقد اتسعت عيناها قليلًا تدريجيًا وهي تقرأ، وقد بدا لها أنها قد وصلت للذروة حين سمعت تلك القرعة العالية المفاجئة تأتي من الخارج.

أجفلت وهي تنظر نحو باب الغرفة، القرعة تبدو وكأنها ناتجة عن غلقٍ عنيف لضلفة نافذة أو باب، بنبرة مترددة وصوت حاولت رفعه قدر استطاعتها هتفت:

- (سامح).. انت جيت؟

أنصتت وهي تتطلع إلى ذلك الجزء البسيط المنكشف من الصالة أمامها من خلال باب الغرفة المردود، لم تسمع إجابة ولم ترَ شيئًا، فقط خُيِّلَ إليها أنها تسمع صوت خطوات في الصالة.

توترت في جلستها قليلًا وهي تتساءل عن مصدر الصوت، إن كان (سامح) فلماذا لا يجيب وإن لم يكن (سامح) فـ...

قررت أن تنهض لترى ما هناك، هي لم تعرف في نفسها الجبن أو الشجاعة ولا تعرف إن كان نهوضها وخروجها إلى الصالة يعد هذا أم ذاك، فهو قد يعد شجاعة لأنها ستخرج وهي ما زالت لا تعرف من بالصالة وقد يعد جبنًا لأنها خافت من مجرد صوتٍ عالٍ فحسب إلى الحد الذي دفعها للخروج وتقصّي الأمر.

نهضت من على الفراش وهي تحاول ألا تحدث صوتًا قدر الإمكان، انزلق الإيشارب الصغير على شعرها الناعم ليسقط من على رأسها، ولكن الغريب.. أن الإيشارب لم ينزلق حقًا، لقد بدا الأمر كذلك لكن ما حدث في الحقيقة هو أنه.

***

ما حدث في الحقيقة هو أن هناك يد امتدت فجأة لتمسح على شعر (دعاء) في نفس اللحظة التي كانت تنهض فيها فلم تمس أطراف أصابع تلك اليد إلا ذلك الإيشارب الصغير ليسقط على الفراش دون أن تشعر (دعاء).

انعكاس صاحب اليد ظاهر في المرآة لكن وجهه لم يكن واضحًا، بل إنه هو نفسه لم يكن موجودًا فِعْلِيًّا في الغرفة، ربما استطاعت (دعاء) رؤيته في المرآة لو أنها فقط استدارت لتنظر إليها، لكنها انشغلت بذلك الصوت.

لذلك تحركت بخفة نحو باب الغرفة لتفتحه بهدوء وتخرج إلى الصالة الخالية تمامًا كما تركتها، أما الصوت فقد كان يأتي من خصاص النافذة المفتوح الذي دفعه الهواء بقوة ليضرب النافذة مصدرًا ذلك الصوت العالي.

زفرت بنوعٍ من الارتياح وابتسمت ساخرة من نفسها على هذا التوتر الذي أصابها منذ قليل وهي تتجه نحو النافذة لتغلقها و...

- (دعاء)

اتسعت عينا (دعاء) وشهقت بصوتٍ مسموع وهي تضع يدها على صدرها وتدور بحركة حادة لتواجه..

- (سامح).. أنت جيت إمتى؟

وقف (سامح) قرب الباب ممسكًا بأكياس تحوي طعامًا جاهزًا، تجاهل سؤالها وهو يتأملها بوجه مقطب ويقول باستنكار:

- إيه مالك، شفتي عفريت؟!

حاولت (دعاء) الابتسام كي تكسر من حدة الموقف الذي لا تعرف كيف توتر أصلًا وهي تتناول الأكياس منه قائلة :

- لا يا حبيبي أصلي ما سمعتكش وانت داخل، وبعدين الشيش كان صوته عالي أوي فـ. سيبك، المهم حمد الله على السلامة، تعالى اقعد ارتاح الشقة بقت زي الفل، ما قلتليش صحيح إيه رأيك فيها؟

وضعت (دعاء) الأكياس على المائدة ونظرت حولها مبتسمة ففعل (سامح) المثل لكنه لم يبتسم كما توقعت، بالعكس، لقد ازداد وجهه عبوسًا وهو يقول بغضب:

- إيه اللي انتي عاملاه ده؟

كانت على دراية تامة بطباع زوجها الحادة، اعتادتها وتأقلمت عليها حتى لم تعد تدهشها، ونتيجة لذلك صارت تحاول تجنُّب فعل كل ما يزعجه بقدر الإمكان.

وعلى الرغم من هذا فلم تفلح في معرفة ما ضايقه الآن وهي تدور بعينها بسرعة في المكان محاولة إيجاد الخطأ، مرت ثوانٍ قليلة من البحث الغير مجدي، فقالت أخيرًا ونبرة القلق تبدو واضحة في صوتها:

- عاملة إيه؟

- فاتحة الشباك على آخره كده ليه؟

- أصلي مسحت الأرض فبهويها عشان تلحق تنشف بسرعة، كنت عايزاك تيجي تلاقي الشقة كلها خلصانة .

ظهر القليل من الامتنان في عيني (سامح) لكنه ظلَّ محتفظًا بتقطيبته وغضبه وهو يقول:

- طب ومش تحطي حاجة على شعرك.

رفعت (دعاء) يدها إلى رأسها وهي ترد بتلقائية وبلهجة دفاعية:

- مانا حاط..

بترت عبارتها عندما لمست يدها رأسها لتجد شعرها بدلًا من الإيشارب،كانت تعرف مدى غيرة (سامح) وحرصه الدائم على الخصوصية.

لا تذكر أنها خلعت الإيشارب عن رأسها، بل إنها من المستحيل أن تكون قد فعلت قبل أن تتأكد من غلق كل النوافذ، صحيح أنها اصطدمت بطباع (سامح) الغيورة في بداية زواجهما إلا أنها ما لبثت أن حفظتها عن ظهر قلب حتى بات من المستحيل أن ترتكب خطأ كهذا، فمتى سقط الإيشارب عن رأسها وكيف؟

ارتبكت (دعاء) وشحب وجهها قليلًا وهي تقول:

- كنت رابطة شعري والله، بس الظاهر الإيشارب اتزحلق من عليًا وانا بـ..."

ظَلَّ (سامح) في مكانه والغضب يطل من عينيه. شعرت (دعاء) بعدم جدوى الكلام أو التبرير الذي لم يقنعها هي نفسها فراحت الكلمات تتكسر على شفتيها إلى أن صمتت تمامًا.

انتبهت فجأة إلى أنها ما زالت تقف أمام النافذة المفتوحة بشَعرٍ مكشوف فاندفعت إلى الغرفة.

تابعها (سامح) بعينيه حتى دخلت ثم اتجه نحو النافذة ليغلقها لكنه سمع صوت أقدام تخطو خلفه. استدار في حركة حادة مستعدًّا لتأنيب (دعاء)، التي ظنَّ وأنها قد عادت للخروج. فقط ليكتشف أن الصالة خالية تمامًا أمامه.

في نفس اللحظة. وقفت (دعاء) مشدوهة أمام الإيشارب الملقى على الفراش وهي تتساءل في نفسها عن كيفية سقوطه حين سمعت هي الأخرى صوت أقدام تخطو خلفها.

استدارت وقد ظنت أنها سترى (سامح) لكنها لم ترَ أحدًا. ذَكَّرَتْهَا تلك الحركة بصوت الخطوات التي سمعتها عقب قرعة خِصَاص النافذة. لقد كانت خطواته بكل تأكيد. نعم.. لا ريب أنها كانت كذلك.

***

خرجت (دعاء) من الحمَّام والماء يقطر من شعرها الذي راحت تجففه بالمنشفة في طريقها إلى غرفة النوم. وقفت أمام المرآة الضخمة وأكملت تجفيفه قبل أن تلقي بالمنشفة على الفراش لتتناول فرشاة شعر من أمامها وتبدأ بالتمشيط.

تبدو الآن مختلفة تمامًا عن ذي قبل؛ بعد أن أخذت حمَّامًا دافئًا تورَّد بفعله وجهها، وبدَّلت ثيابها لترتدي ثوبًا قرمزيًا طويلًا بدا وكأنه يزيد من ذلك التورد، كانت واقفة أمام المرآة لكنها لم ترفع عينيها نحوها بعد، إن هي إلا بضع ثوانٍ..

بضع ثوانٍ فحسب وترفع عينيها لترى ما يعكسه سطح المرآة.

***

جلس (سامح) في الصالة يراجع بعض الأوراق الخاصة بالعمل، بدَّل ثيابه منذ مدة وجلس ينتظر (دعاء) التي وعدته أن تغتسل وتبدِّل ثيابها بسرعة، ولكن ها هي ذي قد تأخرت كعادة كل النساء.

صحيح أنه يحترم فيها ذلك الحرص البالغ على مظهرها أمامه إلا أنه بدأ يتململ ويتثاءب وقد استبد به الجوع والتعب، بدأت الأرقام تتداخل أمام عينيه من شدة إرهاقه حتى إن رأسه تدلى على صدرة وهو يغيب في سِنَة خفيفة لم يفق منها إلا على صوت زوجته المفزوع يناديه من الداخل.

***

ما كادت (دعاء) ترفع عينيها إلى المرآة حتى أسقطت الفرشاة من يدها وانتفضت وهي تتراجع إلى الخلف بعينين متسعتين، فهناك في المرآة امرأة مبتسمة تُمَشِّطُ شعرها.

لم يكن ذلك انعكاسًا لـ (دعاء) نفسها بل لامرأة أخرى تبدو وكأنها خرجت من فيلم سينمائي قديم، بفم مفتوح من الصدمة راحت (دعاء)

تتأمل تلك المرأة الغريبة التي ظلت تُمَشِّطُ شعرها وتنظر إلى عيني (دعاء) وهي تبتسم.

- (سامح).. (سامح)

هكذا هتفت (دعاء) بصوتٍ كاد ينحشر في حلقها من الخوف. مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يظهر (سامح) على باب الغرفة وهو يسأل بلهفة :

- فيه إيه؟

نظرت له (دعاء) لثوانٍ وآثار الصدمة ما تزال على وجهها قبل أن تشير بأصابع مرتجفة نحو المرآة قائلة:

- المراية

نظر لها بعدم فَهم ثم تقدم ليقف بقربها مُتَطَلِّعًا إلى المرآة التي كانت تظهر انعكاسيهما بطريقة طبيعية تمامًا قبل أن يدير وجهه إليها متسائلًا :

- مالها؟

نظرت هي الأخرى بدورها إلى المرآة قبل أن تقول بتردد وخوف:

- كان فيه واحدة.. واحدة ست واقفة بتبصلي وتضحكلي.

عاد ببصره إلى المرآة يتفحصها مليًا وقد بدأ يشعر ببعض الغيظ مما تفعله، قبل أن يقول بنبرة ساخرة:

- طبيعي انه يبقى فيه واحدة ست، هو انتي مش كنتي واقفة قصاد المراية، أكيد هتشوفي نفسك يعني.

- بس انا ما شفتش نفسي، أنا شُفت واحدة تانية واقفة مكاني.

على عكس عادته ضغط (سامح) على أعصابه كي لا يتشاجر معها، خصوصًا بعد موقف النافذة الذي هدأ بصعوبة أصلًا.

في رأيه أن ما تفعله ليس سوى نوعٍ من الجنون أو الدلال وهو غير مستعد للتعامل مع أيًا منهما، لذا أدار وجهه بعيدًا عنها وأخذ نفسًا عميقًا ليهدأ قبل أن يقول:

- أكيد كان بيتهيألك يا (دعاء)، لو سمحتي بلاش تفزعيني كده تاني، ثم يلا عشان ناكل، أنا جعان وتعبان وعايز انام.

نقلت بصرها بينه وبين المرآة في قلقٍ قبل أن تقول باستسلام:

- حاضر، جاية حالًا أهو.

خرج من الغرفة في حين تباطأت هي قليلًا، صحيح أنها لا تريد أن ترهق عقله بما حدث لكنها أيضًا لا تعرف كيف تتصرف معه أو تواجهه إن كان حدث حقًا.

حتى أنها غير متأكدة حقًا مما رأت، ربما كان (سامح) مُحِقًا وما رأته ليس سوى تخيلات، ثم إنه ما من سبيل للتأكد أصلًا و.. ولكن مهلًا، ربما كانت هناك طريقة.

فتحت الدولاب ومدَّت يدها بداخله ملتقطة الصور القديمة إياها قبل أن تقلب بينها بسرعة حتى وصلت إلى ضالتها، إنها هي.. (ليلى)، الفتاة

ذات العينين الجمليتين التي لفتت انتباهها من قبل، نفس الثوب والابتسامة.

أعادت الصور إلى الدولاب مرة أخرى بوجه شاحبٍ وقد زادت حيرتها أكثر، وجود الصورة قد يؤكد أن من رأتها في المرآة شخصية حقيقية وموجودة، ولكنه أيضًا قد يدل على أنها تخيلت رؤية تلك الفتاة في المرآة لأنها رأتها من قبل.

ربما بسبب الإرهاق وقلة النوم الناتجين عن النقل والتنظيف. تركت (دعاء) الغرفة لتلحق بـ (سامح) قبل أن تغضبه للمرة الثالثة هذه الليلة، وعندها.. عندها عادت صورة تلك المرأة لتظهر في المرآة وهي تكمل تمشيط شعرها، بنفس الوقفة ونفس الابتسامة، الاختلاف الوحيد هو ظهور ذلك الخيال الغير الواضح لرجلٍ يقترب منها من الخلف.

***

برغم تجهمه الدائم وطبيعته الحادة إلا أنه لا ينسى أبدًا ما تفضّله، بل إنه قد يفضِّلها على نفسه ليأتي لها بما تشتهيه حتى ولو لم يكن يحبه.

هكذا فكرت (دعاء) وهي ترص الأطباق على المائدة وتفض الأوراق عن وجبة الدجاج المشوي التي أتى بها (سامح) من الخارج. شكرته وهي تُقَبِّلَهُ في كل موضعٍ بوجهه حتى طلب منها ضاحكًا أن تتوقف. أخيرًا جلست مبتسمة بجواره على المائدة وبدأ في تناول الطعام.

كان إرهاق اليوم قد استبد به فلم يتحدث كثيرًا، اللهم إلا بضع عبارات قليلة للغاية مثل "شكرًا" و"ناوليني كوباية المية". لم تحسب

(دعاء) أن هذا الصمت ناتج عن الإرهاق وإنما ظنته ما يزال غاضبًا بسبب موضوع النافذة.

راحت الابتسامة على شفتيها تذبل تدريجيًا حتى قالت أخيرًا محاولة كسر الجمود الذي أصاب جلستهما:

- أنا آسفة يا (سامح) على موضوع شعري ده. أنا كنت لابسة إيشارب بس والله وقع من غير م...

- مصدقك من غير ما تحلفي.

لسان فمه يؤكِّد أنه يصدقها. أما لسان حاله فقد أكَّدَ لها العكس تمامًا. بدا الأسف على وجهها وهي تُطَالِعُ جبينه الذي تقطَّب بعد عبارته المقتضبة. وهي تمد يدها لتربت على كفه قائلة:

- ما تزعلش طيب.

- مش زعلان.

خفضت عينيها بعد أن شعرت أنها لن تستطيع كسر حاجز الصمت هذه الليلة. تظاهرت بالأكل وإن بدا واضحًا أنها لا تأكل فعلًا وأن وجهها حزين شارد.

أما هو فما زال غاضبًا فعلًا من تلك الحركة وغضب أكثر عندما ذكَّرته (دعاء) بها. اندمج في الأكل لعدة دقائق وبدا وكأنه سيكمل العشاء صامتًا إلا أنه ترك الأكل وتردد لحظة قبل أن يقول فجأة دون أن ينظر نحوها:

- أنا بس بغير عليكي أوي.. إنتي عارفة.

فجأة انزاحت كل تعبيرات الحزن والشرود من فوق وجه (دعاء) ليحل محلها الحنان وهي ترفع عينها إليه قائلة:

- عارفة يا حبيبي والله، ربنا يخليك ليا.

أدار وجهه الذي احتفظ بتعبيره الجامد نحوها وإن لانَ صوته وهو يقول:

- أنا آسف إني زعقت لك كده، ما تزعليش، أنا ما ببقاش عايزك تزعلي أبدًا على فكرة، لو عليًا أعمل لك كل اللي يبسطك لكن.. لكن أعمل إيه بقى؟

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهها وهي تقول:

- تعمل إيه في إيه، ما انا مبسوطة جدًا أهو الحمد لله.

- لأ مش مبسوطة.

قالها بعصبية خفيفة وتَزَحْزَحَ قليلًا في جلستها، فعاد ليقول وهو ينظر في عينيها مَلِيًّا:

- مش مبسوطة ونفسِك في عيال.

- يا حبيبي والله أنا ما عايـ..

- ما تحلفيش.

قاطعها بنبرة حادة ألجمت لسانها قبل أن يتابع:

- أيَ ست بيبقى نفسها في عيال يا (دعاء)، وانتي تقدري تخلَفي عادي، لكن عاملة نَفسِك مش عايزة بس عشان ما تضايقنيش. أنا فاهم. بشوف بصتك لقرايبك اللي عندهم عيل واتنين. ببقى فاهم إحساس الوحدة والزهق اللي بيجيلك لما اسيبك كل يوم و أروح الشغل.

أدركت مدى ألمه فحاولت إبعاد دفة الحديث عن موضوع الأطفال قائلة:

- إن كان على الزهق يا سيدي حله سهل. أنا ممكن أرجع الشغل تاني و...

قاطعها بصرامة:

- لأ. إحنا اتكلمنا في الموضوع ده قبل كده وخلصنا.

حاولت امتصاص غضبه وهي تبتسم وتقول:

- خلاص طيب ما تزعلش. ما تضايقش نفسك عشان خاطري. أقولك على حاجة تضحَك حصلت النهاردة. مش انا لقيت جرامافون وتليفون قديم بقُرص وأنا بَنضَّف الصالة. كانوا متغطيين بحتة قماش كده ومتَرّبين قوي بس انا لَمَعتُهم كويس. شكلهم أنتيكا أوي. بُص.

تبعت (دعاء) عبارتها بأن أشارت نحو المنضدة الصغيرة في ركن الصالة التي وضع عليها الجرامافون وإلى الهاتف ذي القرص. أومأ (سامح) برأسه في شرودٍ ثم دفع مقعده إلى الخلف استعدادًا للنهوض.

- أنا هقوم انام.

- طب استنى كمل أكلك.

قالتها بلهفة ممسكة يده لكنه نهض برغم ذلك وخلَّص يده من يدها وهو يربت عليها بالأخرى برفق قائلًا:

- أنا شبعت خلاص، تصبحي على خير.

لم يزد كلمة واحدة واتجه من فوره إلى الحمَّام ليغسل يديه ثم إلى غرفة النوم الرئيسية وهي تتابعه بعينيها، نظرت إلى طبقه الذي لم تنقص منه إلا لقيمات معدودة قبل أن تقول بحزنٍ:

- وانت من أهله يا حبيبي.

***

اندست بهدوء كعادتها إلى جواره، شعرت حواسه بالحرارة المنبعثة من جسدها الدافئ أغلب الوقت، وبالعطر الأخَّاذ الذي ترشه دومًا قبل النوم، لا ليس دومًا، بل في تلك الليالي فحسب، توتَّر جسده قليلًا لكنه لم يقل شيئًا ولم يتحرك.

اعتمد على ظهره الساكن الذي يواجهها كي يعطيها إحساسًا زائفًا بالنوم، لكنه لم يكن نائمًا، ولا حتى متيقظًا، كان عاجزًا عن فتح عينيه من شدة الإرهاق، وعن إخماد عقله من كثرة التفكير، مُعلَّق في تلك الحالة التي يكرهها ولا يعرف سبيلًا للخروج منها.

شعر بذراعيها تُطَوِّقُ وسطه من الخلف، وبجسدها اللين ينضغط في ظهره المُتَيَبِّس، ظلَّ على ثباته وصمته، أتراه عناقًا عاديًا أم مؤديًا إلى شيءٍ آخر؟

لكنه غير قادر فعلًا على فعل أي شيء، غير قادر أو غير راغب، أو ربما كان الاثنين معًا، فهو يشعر أنها لا تفعل ما تفعله إلا من باب الشفقة فحسب، كي تشعره أن كل شيء على ما يرام، ولكن الحقيقة أنه ليس كذلك فلماذا يلقي بذوره في الأرض وهو يعلم جيدًا أنها لن تثمر أبدًا.

لفَّت ساقها حول ساقه لتقترب منه أكثر، ليتغلغل في أنفه عطرها الذي تعلم جيدًا تأثيره عليه، لم تكن تفكر بمبدأ الشفقة كما يظن هو بقدر ما كانت ترغب فعلًا فيه، ترغب في احتوائه وتهدئته بكل وسيلة تملك، دفنت أنفها في شعره كي تتشممه بعمق وهي تقبِّله في عنقه من الخلف برقة كأنها تدغدغه، بدا وأن ما تفعله قد آتى ثماره أخيرًا، فها هو ذا يدور بجسده ليواجهها ثم يعتليها.

التقت الشفاة في قُبلة طويلة وتشابكت الأيدي وهي تزيح الملابس بلهفة و..

- بحبك

قالتها بصوت رقيق لتزيد من اشتعال (سامح) وسرعة شفتيه اللتين انزلقتا إلى عنقها وصدرها، أغلقت عينيها في نشوة، شعرت بجسده ينقبض عدة مرات متتالية فوق جسدها.

ازدادت حدة مداعبته لها وعلا صوت أنفاسه. صار جسدها ساخنًا مشدودًا على آخره، ها هي ذي اللحظة ستأتي أخيرًا، ها هي ذي. تأوهت برقة وهي تطوقه بلهفة وتهمس باسمه في أذنه بحب.

مرت عدة دقائق دون أن يلتحما. زادت من تأوهها وتكسُّرها أسفله... طالت الدقائق وهما على نفس الحال. طالت بشكل مُقْلِق. شعرت أن في الأمر شيئًا لكنها تابعت مداعباتها له وهمساتها في أذنه. انقبض جسده انقباضة شديدة وقبضتاه تضغطان بقوة على ذراعيها و..

فتحت عينيها بدهشة حين ابتعد عنها فجأة. اعتدلت جالسة وهي تنظر لحدود جسده التي تراها على الضوء المتسرب من خِصاص النافذة.

- فيه حاجة يا (سامح)؟

قالتها بصوتٍ خفيض قَلِق فأجابها بعبارة مقتضبة وصوت أجش:

- مفيش حاجة.

- أومال.. أومال بعدت فجأة ليه؟

لم تسمع منه سوى صوت أنفاسه العالي فعادت تقول:

- أنا عملت حاجة ضايقتك؟

- لا.

- فيه حاجة فيَّا مش عاجباك؟

- لأ خالص.

- أومال مالك؟

عاد لصمته الذي زاد من حيرتها وقلقها. مَدَّت يدها اليمنى لتربت على ساقه وهي تشعل المصباح الجانبي باليسرى. ولكنها ما كادت تفعل حتى قال بسرعة:

- لأ لأ اطفي النور.

تعجبت من ردة فعله لكنها أطاعته على الفور. ظلّت تنظر إليه متأملة حدود جسده في الضوء الخافت. لا تعرف إن كانت تتخيل أم أنها فعلًا ترى ما يشبه البريق في عينيه. وهذا البريق لا يعني إلا شيئًا من اثنين، إما أنه غاضب جدًا أو.. حزين.

- أنا هنام

قالها بصوتٍ خافت قبل أن يمد يده ليلتقط ملابسه ويرتديها بسرعة ثم يوليها ظهره وينام. شعرت في تلك اللحظة بقدرٍ كبيرٍ من العطف تجاهه. تمنت لو كان بإمكانها أن تحتضنه وتواسيه. لكنها تعلم جيدًا أن هذا لن يزيد الأمر إلا سوءًا.

بالطبع فهمت ما حدث وتعرف أنه ما زال مُتَيَقِظًا بكل تاكيد. ولكنها رغم ذلك لم تنطق بكلمة واحدة وهي ترتدي ملابسها هي الأخرى وترقد إلى جواره. ثبتت عينيها على ظهره بحُبّ وحنان دون أن تتمكن من النوم هي الأخرى، لم تشعر بنفسها إلا وتلك الدمعة تنبت من عينها لتسيل على خدها.

لكنها مدت يدها لتمسحها بسرعة كي لا يراها. فإن كانت تؤلمها بهذا القدر، فهي بلا شك ستؤلمه هو أكثر بكثير.

أما هو فقد كاد يبكي هو الآخر. إنها ليست المرة الأولى التي يفشل فيها، صحيح أنه لم يقل شيئًا ولكنها بلا شك قد فهمت ككل مرة. سؤالها عمًا إذا كانت فعلت ما ضايقه لم يكن إلا تمثيلًا لحفظ ماء وجهه فحسب، تمامًا كاستدراجه كي يضاجعها من الأساس. شفقة: امرأته تشفق عليه!

رفع عينيه إلى النافذة وتطلّع إلى قرص القمر الذي يطل على هيئة خطوط رفيعة من خلف خِصَاصِهَا وهو يفكر.. منذ شهور وعندما علم بعدم قدرته على الإنجاب انخفضت قدرته الجنسية فجأة. فمرة يتوقف أثناء مضاجعتها وقد فقد القدرة فجأة، ومرة لا يستطيع من الأساس، وقليلًا ما كان ينجح.

أخبره الطبيب أنه يتمتع بصحة جيدة وليس معنى عدم قدرته على الإنجاب أن تقل قدرته الجنسية. ولكن الموضوع يتعلق بالثقة ولا يحتاج حتى لمنشطات. لكنه يحاول ويفشل ولا يعرف السبب.

دعا في نفسه وهو ينظر لِخِصَاصِ النافذة قائلًا: أما كان يكفي أن خلقتني برجولة ناقصة يا رب. أكان يجب أن تقضي على ما تبقى منها لتلغيها من الأساس! لِمَ يا رب. لِمَ؟؟

***

المكان صامت تمامًا والظلام يحيط بكل شيء. لكن الإضاة الخافتة المُنْسَلَّة من بين فتحات خِصَاص النافذة جعلت الرؤية ممكنة نوعًا. (دعاء) و(سامح) نائمان على السرير الكبير في غرفة النوم الرئيسية. النافذة مغلقة والباب مردود. ولكنه الآن ينفتح. ينفتح ليصدر عنه صرير خفيف.

ذلك الصرير كان كافيًا كي تفتح (دعاء) عينيها وتنظر نحوه بدهشة وترقب.

لا، لم ينفتح الباب بفعل الهواء فنوافذ الشقة كلها مغلقة، ثم إن فتحة الباب راحت تزداد اتساعًا كأن أحدهم يدفعه عامدًا ليظهر من خلفه خيالان على هيئة سيلويت أسود غير واضح المعالم لرجلين. اتسعت عينا (دعاء) وتسمرت في مكانها في رعب وهي ترى هذين الخيالين يخطوان بلا صوت داخل الغرفة، اقترب الرجلان في سكون كأنهما خيالان فعلًا ليتوقفا عند نهاية السرير.

عند قدمي (دعاء) المتجمدة من شدة الخوف، الرجلان الآن قد دخلا مجال الضوء البسيط القادم من النافذة فبدت معالمهما واضحة. لم تكن تعلم هذا لكن هذين الرجلين لم يكونا سوى (صادق) و(أمجد): القتيلان اللذان سكنا في الشقة قبلها.

***

(صادق) و(أمجد) يقفان هناك عند حافة الفراش بوجهيهما الشاحبين الجامدين كوجوه الجثث. لكن (دعاء) لم تكن تنظر إلى وجه

أيًا منهما فقد كانت عيناها مُعَلَّقَتَانِ ببطن (صادق) المطعونة التي تنزف بغزارة، فجأة، تكلم الإثنان بصوتٍ واحدٍ قائلين:

- امشوا

لم تتحرك عضلة واحدة في وجهها أو جسدها، اللهم إلا قبضتاها اللتان راحتا تعتصران ملاءة الفراش بحركة لا إرادية. أما الشابان فقد التفتا إلى الخلف لينظرا نحو الباب الذي نظرت نحوه أيضًا، فقط ليظهر أمامها خيالٌ ثالثٌ لرجل آخر يقف في الظلام الذي يُخفِي ملامحه. بنفس الطريقة ونفس الصوت عاد الشابان ليقولا:

- امشوا

اتسعت عينا (دعاء) أكثر حتى كادتا تسقطان من محجريهما. أما فمها فقد انفتح عن آخره هو الآخر كأنها تصرخ، أو تحاول أن تصرخ. خرجت حشرجة خافتة من حلقها المبحوح وهي تهز (سامح) بقوة بيدها قبل أن تتمكن من مناداته بصوتٍ مختنق:

- (سامح).. (سامح)

صحا (سامح) مذعورًا منتفضًا إثر هزه بتلك القوة وهو يهتف بفزع:

- إيه.. إيه؟ فيه إيه؟؟

أشارت نحو باب الغرفة بأصابع مرتجفة فأدار عينيه إلى حيث أشارت ثم فركهما متسائلًا بصوت ما يزال أثر النوم واضحًا فيه:

- فيه إيه؟

نظرت أمامها فلم تجد أحدًا. لا الشابين ولا الرجل. اختفوا فجأة كما ظهروا وعادت الغرفة إلى ما كانت عليه. أدارت عينيها في الغرفة بتوجُّس كأنها تبحث عنهم. لم تكن تراهم لكنها تعلم أنهم ما يزالون هنا.

اختفوا عن ناظريها فحسب لكنها تكاد تقسم أنها ما زالت تشعر بوجودهم. ولكن كيف. كيف لا تراهم وتشعر بهم في ذات الوقت. هل اختبؤوا؟ هل خرجوا؟ ولكن كيف خرجوا؟ وكيف دخلوا أصلًا؟؟ قبضت على يد (سامح) بكفها الباردة وهي تقول:

- كان فيه ناس واقفة هنا.

- ناس مين؟

قالها بعدم فهم فعادت تقول بصوتٍ خافتٍ كأنها تخشى أن يسمعها أحد:

- رجالة.. تلات رجالة. اتنين هنا عند السرير وواحد عند الباب.

أجال (سامح) بصره في الغرفة بنظرة شك تحولت إلى استنكار وهو يقول:

- رجالة إيه يا (دعاء) ما الأوضة فاضية أهيه!

- يمكن مشيوا اما شافوني بَصَحِّيك.

- مشيوا راحوا فين؟

- معرفش

- يعني همَّ هيكونوا دخلوا ازاي أصلًا؟

- معرفش، بس انا شفتهم.

الحيرة والخوف يبدوان واضحين على وجهها، أما هو فقد بدا أقرب للانزعاج وهو يقول:

- ده كان حلم يا (دعاء)، إنتي كنتي بتحلمي، تاني مرة لما تعوزي تحلمي إبقى احلمي على كيفك إنما ما تصحينيش من النوم تخضيني كده، أنا بصحى كل يوم الساعة سبعة الصبح ومش فاضي للكلام ده.

قالها وهو يجذب الغطاء على نفسه ويوليها ظهره لينام، أما هي فقد ظلت عيناها معلقتان بالباب وهي تقول:

- بس انا ما صحيتش يا (سامح).

تثاءب بإرهاق وقال بنفاذ صبر دون أن يلتفت لها:

- يعني إيه ما صحيتيش؟

- يعني أنا ما كنتش لسة نمت عشان اصحى، فاهمني يا (سامح)؟ أنا شفتهم رحت مصحياك على طول.

لم تجد منه ردًا على ما قالت فأبعدت عينيها قليلًا عن الباب لتنظر إليه وهي تناديه بلهفة كأنها تستنجد به:

- (سامح)

لقد عاد إلى نومه العميق وتركها متيقظة بمفردها، عاجزة عن النوم أو حتى عن النهوض من الفراش والمرور عبر باب الغرفة الذي عادت عيناها تتعلقان به بخوفٍ متوقعة ظهور تلك الخيالات مرة أخرى قبل أن تعود لتقول مُحَدِّثَةً نفسها: ما صحيتش والله..

***

- يللا يا (دعاء) بتعملي إيه كل ده؟

كان (سامح) يقف في الصالة مُتَمَلْمِلًا وقد ارتدى كامل ملابسه؛ استعدادًا للخروج. جاءه صوتها من داخل غرفة النوم قائلًا:

- حالًا يا (سامح)، بَظَبَّط الطرحة بس وجاية أهو على طول.

نظر في ساعته بلا سبب تقريبًا، فهو يعلم أنهما سيخرجان للتنزهة فقط، ما من موعد أو ساعة معينة في الموضوع. إلا أنه كان يحب الانضباط في كل شيء حتى التنزه، كما كان يكره الانتظار ويمل منه للغاية، وعلى الرغم من التزام (دعاء) بمعظم قواعده إلا أن موضوع التأخير هذا يضايقه كثيرًا.

نظر في ساعته للمرة الثانية وكاد يهم بمناداتها مرة أخرى حين سمع صوت كعبها يطرقان الأرض قبل أن تظهر على باب غرفة النوم مرتدية فستانًا طويلًا واسعًا بلون وردي فاتح، مزين عند الصدر والأكمام بزهورٍ مطرزة بلون أغمق قليلًا، أما حجابها وحقيبتها وحذاؤها ذو الكعب العالي فقد كانوا جميعًا باللون الأبيض.

اعترف لنفسه بأنها تبدو في غاية الجمال، وقد ظهرت في وجهها لمحة ملائكية لم يرَها من قبل. ابتسمت وهي ترى تأثير مظهرها على وجهه الذي ارتفع حاجبيه وانفتح فمه قليلًا وهو يتأملها من أعلى رأسها حتى كعبيْ حذائها المدببين. كانت سعيدة لأنها استطاعت تغيير ملامح وجه (سامح) الجامدة التي لم تكن تتغير كثيرًا، خصوصًا في الأونة الأخيرة.

- الطقم ده كله جديد، اشتريته قبل ما ننقل هنا على طول، وقلت ألبسه في أول خروجة نخرجها سوا في الشقة الجديدة.

قالتها (دعاء) وهي تدور حول نفسها كي يرى (سامح) كامل تفاصيل ملابسها قبل أن تقف في مواجهته مرة أخرى وتتابع:

- إيه رأيك، حلو؟

ظلت عينا (سامح) معلقتين بوجهها في شرودٍ لبضع ثوانٍ قبل أن يقول:

- إنتي حاطة ماكياج؟

اندهشت (دعاء) من عبارته وردة فعله التي لم تتوقعها، بهتت ابتسامتها قليلًا وهي تقول:

- خفيف.

- لأ تقيل.

ارتبكت قليلًا وتكسرت الكلمات على شفتيها وهي تقول:

- أ.. أنا والله ما حطيت غير شوية كحل و.. وروج بس.

- طيب خشي خفي الروج ده فاقع أوي.

ظهر القليل من خيبة الأمل على وجهها إلا أنها هَزَّت رأسها وقالت بخفوت:

- حاضر.

وقف في الصالة في انتظارها حتى خرجت مرة أخرى بعد دقيقة وقد أطاعته فيما طلبه، بل إنها حتى خففت في بقية زينتها دون أن يطلب. لم تكن ابتسامتها واسعة كأول ما خرجت ولكنها تبتسم على كل حال.

شعر أنه قسا عليها قليلًا فتقدم منها وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يقول:

- يعني انتي مش عارفة إن انا ما بحبش المكياج التقيل.

- عارفة.

- ثم انتي شكلك كده أحلى بكتير.

هنا عادت ابتسامتها إلى اتساعها السابق خاصة عندما أمسك رأسها وقَبَّل جبينها قبل أن يمسك يدها برفق ويقودها إلى باب الشقة.

***

في شوارع وسط البلد المزدحمة، سارا متجاورين يتطلعان إلى نوافذ المحلات التجارية الكبيرة بأضوائها المبهرة. كانت الابتسامة تُزَيِّنُ وجه الاثنين، (دعاء) بابتسامتها الواسعة الطفولية نوعًا، و(سامح) بابتسامته الرصينة المُتَحَفِّظَة إلى حدٍّ كبير، وبالرغم مما يعتمل بداخلهما من

مشاعر مختلطة إلا أن أيًا منهما لم يُرد إفساد تلك النزهة على الآخر بأي شكل.

خصوصًا بعد المشاكل التي زادت بينهما في الآونة الأخيرة بدون سبب واضح.

- شبعتي ولا لسه جعانة؟

قالها مبتسمًا لها فضحكت وهي تمسك بطنها قائلة:

- جعانة إيه ده انت لو دوست على بطني هطلع كشري من وداني.

ضحك بدوره وهو يقول مداعبًا:

- خسارة.. خلاص بقى مفيش نصيب.

- مفيش نصيب ف إيه؟

- أصل كنت عايز أأكلك أيس كريم من (العبد).

تعلقت بذراعه بحركة طفولية وهي تقول:

- لأ أنا جعانة، أنا لسه جعانة جدًا على فكرة.

ضحك الاثنان وهما يتجهان نحو المحل الذي يقع في شارع (طلعت حرب) والذي كان على بُعدِ بضعة شوارع منهما.

دخلا وانتقيا الأنواع التي يرغبان فيها قبل أن يتجه (سامح) لدفع الحساب في حين أمسكت هي بكأسيهما وسبقته إلى الخارج، كان يدفع الحساب وعينه على (دعاء) التي وقفت تنتظره على الرصيف أمام المدخل.

انعقد حاجباه بشدة حين توقف شاب لا يتعدى الثامنة عشر من عمره بجوارها وقال لها شيئًا ما، لم يستطع (سامح) أن يسمع ما قاله الشاب بسبب الصخب الشديد داخل المحل وخارجه، أدارت هي رأسها بعيدًا متجاهلة ذلك الشاب الذي قال بضع كلمات أخرى قبل أن ينصرف، لكنه لم يرَها وهي تفعل ذلك بسبب احتشاد المارة والزبائن أمام المحل.

هو فقط رأى الشاب يحادثها، انتهى من دفع الحساب بسرعة ليشق طريقه بصعوبة داخل المحل المزدحم برواده حتى وصل إليها وهو يبحث بعينيه عن الشاب الذي لم يتمكن من اللحاق به وقد ذاب بسرعة بين جموع المارة.

- تعرفيه منين ده؟

قالها بنبرة حادة مفاجئة وهو يحدجها بنظرة شك فارتبكت قليلًا من طريقته وهي تقول:

- أنا ما أعرفوش ده ك....

قاطعها بحدة أكبر وعلا صوته وهو يقول:

- أمال كان بيكلمك ليه؟؟

- كان بيسألني على مول (طلعت حرب) فأنا م...

- مول إيه، المول أهه، ده بيستعبط.

قالها بعصبية مشيرًا إلى المبنى القريب فأسرعت تقول:

- مانا عارفة يا (سامح)، أنا نفسي حسيت إنه مش مضبوط.

- وبتتكلمي معاه ليه لما حسيتي إنه مش مضبوط؟

- أنا ما اتكلمتش.

- انتي مش لسه قايلة إنه كان بيسألك على المول! ثم انا نفسي شايفه من جوه وهو بيكلمك.

- أيوة هو اتكلم لكن انا ما ردتش.

ازداد الشك في نبرته وعينيه المتسعتين وهو يقول:

- ده وقف يتكلم شوية، أنا شفته، يعني كان واقف بيكلم نفسه!

- والمصحف ما رديت عليه، ده انا حتى دوَّرت وشي الناحية التانية.

- أنا ماشفتش الكلام ده.

انتبهت في تلك اللحظة إلى عيون المارة التي كانت تتابع (سامح) بصوته العالي وهو ينهرها كالأطفال. فترقرت عيناها بدموع الخجل وهي تقول:

- بس ده اللي حصل والله.

نظر إليها في حيرة وشك، قد تكون صادقة فعلًا لكنها أيضًا قد تكون كاذبة، ماذا يدريه؟ كيف يتأكد؟؟ أما هي فقد شعرت باختناق وعجزٍ تام أمام أسئلته ونظراته التي تتهمها بقسوة.

لماذا يفعل هذا بها وهي لم تخطيء فعلًا، وكيف تُثْبِتُ له ذلك؟ ثم إنه من المُهِين أصلًا أن يتهمها بالكذب في أمرٍ كهذا.

هل يظنها مجنونة مثلًا لتقف في الشارع وتحدث شابًا لا تعرفه بكل تساهل، ماذا دهاه؟ اعتادته غيورًا ولكن ليس إلى هذا الحد، لقد تعدى مرحلة الغيرة إلى الشك الصريح، يشك بها بجنون في حين أنها تحبه وتخلص له بجنون أيضًا

- حتى لو ما رديتيش، إنتي شجعتيه على الكلام معاكي بلبسك ده.

- ما انت شفته قبل ما ننزل وما قلتليش حاجة عليه.

- بقولك إيه، الطقم ده ما يتلبسش تاني بعد كده، مفهوم؟؟

- حاضر يا (سامح)

صمت الإثنان تمامًا بعد عبارتها تلك، ناولته كأسه فالتقطه منها ومضيا ياكلان بلا شهية ويسيران بصمتٍ وتجهم

***

هل تحولت حياتها معه إلى نوعٍ من التمثيل؟

هكذا فكرت (دعاء) وهي تنصت في شرودٍ لصوت الماء المنهمر من الصنبور إلى قاع حوض المطبخ القديم الذي وقفت أمامه تغسل الصحون، لقد رأته وهو يتفقَّد هاتفها المحمول بالأمس ليتأكد من أنها لم تتحدث إلى أحد.

ورغم أنه من المفترض أن تتضايق من هذا التخوين إلا أن هذا لم يكن أكثر ما ضايقها فعلًا، ما آلمها وأحنقها بحق أنه حتى بعد تأكُده ما زال يشك فيها.

ليت تجسساته هذه تجعله يثق فيها، ولكنها أبدًا لا تفعل، فهو مستمر بالشك ومستمر بالتجسس، صحيح أنها لا تزال تحبه جدًا إلا أن غيرته، أو شكه بمعنى أصح، أصبح شيئًا خانقًا، لم تعد تستطيع تحمُل طباعه السيئة لأجل خاطر صفاته الطيبة التي بدت وكأنها اختفت أو كادت تحت وطأة تعامله شديد السوء معها، خاصة بعدما علما بعدم قدرته على الإنجاب.

فجأة انتقل تفكيرها إلى الشقة، أقنعت نفسها أن كل ما رأته وسمعته وشعرت به ليس إلا كوابيس أو تهيؤات أو هلاوس، أيَّ شيء سوى أنه حقيقي، صحيح أنها ما زالت تكره أن تظل بمفردها في الشقة حين يغيب (سامح) في الشركة.

ولكنها يجب أن تتحمل ولا تنهار أو تستسلم لإحساس الخوف كي لا تضايقه، وكي تستمر حياتها هي نفسها، على الأقل حتى تتعوَّد عليها، ولكن، ألا يتزامن تغيُّر طباع (سامح) مع انتقالهما للشقة؟ أيكون لهذا علاقة بذاك؟ أتراه يتصرف هكذا بسبب تغيُّر نمط ومكان حياتهما؟ وهل سيتحسن بمرور الوقت أم أنها تحاول فقط أن تخدع نفسها كي تتمكن من تحمـ...

انقطع حبل أفكارها فجأة حين سمعت صوت طرقات قوية على الباب، تركت ما تفعله وأغلقت الصنبور قبل أن تجفف يديها في جانبي ثوبها وتعقد حاجبيها وهي تقول بضيق واستنكار:

- إيه الطريقة دي، ما فيه جرس!

خرجت من المطبخ إلى الطرقة وهي ما تزال تجفف يديها في ثوبها وتقول محدثة نفسها:

- ده لا يمكن يكون (سامح). ولا تلاقيه نسي مفتاحه يمكن.

وصلت إلى الصالة حين سمعت صوت الطرقات ثانية. توقفت في مكانها فجأة وقد أدركت أمرًا. هذه الطرقات لا تأتي من باب الشقة. بل من باب غرفة النوم الرئيسية.

***

لم تكن (دعاء) قد أفاقت من الصدمة الأولى بعد حين عاجلتها الصدمة الثانية على هيئة صرخة رجل عالية قادمة من نفس الغرفة. اتسعت عيناها بشدة وتسمرت في مكانها وهي واقفة وقد أولت ظهرها للغرفة. سَرَت رعدة خفيفة في جسدها وكأنه يخشى أن يتحرك كثيرًا.

استعاذت من الشيطان وهي تدور حول نفسها ببطءٍ كي تواجه الغرفة وأنفاسها تتسارع وتتلاحق من الرعب والترقب. كان الباب مُغْلَقًا كما تركته. أم تراه كان مفتوحًا.

لقد نسيت حقًّا من شدة الخوف. المهم أنه الآن مغلق سواء أكانت تركته هكذا أم لا. ليته كان مفتوحًا فانغلاقه هذا يجعل الأمر أصعب بكثير.

أخذت نفسًا عميقًا في محاولة لاستجماع قواها وهي تخطو نحو الباب المغلق. أقنعت نفسها أن الوقت نهارًا وأن الأشياء المُخِيفَة لا

تحدث عادة بالنهار. تمتمت بآيات قرآنية ترددت بصوتٍ خفيض على لسانها الذي جَفَّ من شدة الخوف.

أخيرًا وقفت أمام الباب وهي تشعر بطنين صامت داخل أذنيها. وقفت لبضع ثوانٍ متوقعة أن ينفتح الباب فجأة من تلقاء نفسه كما يحدث في أفلام الرعب. تمالكي نفسك يا (دعاء)، أنتِ في عالم الواقع ولست تمثلين فيلمًا. هكذا حَدَّثَت نفسها وهي تمسك بمقبض الباب بيدٍ مرتعشة لتديرها وتفتحه.

راحت فتحة الباب تنفرج أمام عيناها المتسعتين بترقب، واللتين راحتا تجوبان الغرفة بسرعة فائقة بحثًا عن أيّ شيء غريب، لكن الغريب فعلًا أنها لم تجد أيَّ شيء على الإطلاق. الغرفة خالية وطبيعية تمامًا. ولكن، أهذا أفضل حقًّا أم أسوأ؟

ألقت (دعاء) نظرة شك أخيرة على الغرفة قبل أن تغلق بابها مرة أخرى. لم تدرِ لِم فعلت ذلك حقًّا. لقد بدا وكأنها ترغب لا إراديًا في حبس ما في الغرفة بداخلها.

أيًا كان ما هو. وحتى وإن كانت لا تراه فعلًا. استدارت وابتعدت عن الباب وهي تسير في الصالة بتشتت على ساقيها المرتجفتين حين سمعت صوت الجرس.

انتفضت للمرة الثالثة وهي تنظر حولها بحثًا عن مصدر الصوت الذي تبينت أنه آتٍ من التليفون الأسود في الركن. سارت حتى وقفت أمامه تتطلع له بأنفاسٍ مبهورة وهي تقول مندهشة:

- هو مش (سامح) قال إن مفيش حرارة واصلة الشقة؟

***

ظَلَّ الجرس مستمرًا كأنه مُصرٌّ على الرنين حتى تجيب. كانت ما تزال على دهشتها حين أمسكت السماعة التي بدت لها شديدة البرودة لتضعها على أذنها. ذلك حين سمعت ذلك الصوت العميق يقول:

- عارفة حكاية الولد اللي كل اللي حواليه اتهموه ظلم إنه سرق البيضة. وعَدَّى عشر سنين وكبر الولد ولسه كل اللي حواليه بيتهموه إنه سرق البيضة. في الآخر قرر الولد إنه يسرق بجد. لأنه مهما عمل محدش هيصدق إنه بريء. أهي دي حكايتك يا (دعاء). (سامح) شايفك دايمًا خاينة وكل اللي مستنيه هو دليل اتهامك. وانتي عارفة كويس إنه عمره ما هيثق فيكي. طالما مفيش حل إنك تطلعي بريئة. ليه ما تجربيش الخيانة. ولو لمرة.

اتسعت عينا (دعاء) وهي تشهق قبل أن تقول بصوتٍ مُتَقَطِّع من شدة الارتباك والغضب:

- إنت مين وعرفتني إزاي؟

عاد الصوت العميق يقول بنبرة بدت لها ساخرة:

- تقصدي عرفت اللي جواكي ازاي؟؟

أسرعت (دعاء) بوضع السماعة مكانها كأنما تخشى أن يكمل ذلك الرجل كلامه قبل أن تشعر بذلك الضعف الشديد في ساقيها والذي

جعلها تسرع نحو أقرب مقعد لتلقي نفسها عليه وتحني رقبتها لأسفل خافضة عينيها نحو الأرض وأنفاسها تتردد في صدرها بصعوبة.

***

(سامح) جالسًا على الأريكة في الصالة واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى وعيناه مركزتان على الجريدة التي يقلّب فيها بين يديه.

عاد من عمله منذ قليل وتناول طعامه سريعًا وها هو ذا يجلس مسترخيًا مرتاحًا. ليس هناك وقتٌ أنسب لإخباره. كذا فكرت (دعاء) وهي تقترب منه حاملة صينية عليها فنجان من القهوة. وضعت الصينية على منضدة صغيرة أمامه قبل أن تجلس على الأريكة بجواره.

خَيَّمَ الصمت عليهما لدقيقة أو اثنتين لم يُسمَع فيهما سوى صوت تقليب أوراق الجريدة في يد (سامح) الذي ظَلَّت عيناه مركزتين على الجريدة فلم يلحظ التردد البادي على وجه (دعاء)، والتي راحت عيناها تتحركان بتوتُّرٍ كأنها تفكر كيف تبدأ كلامها.

- (سامح)

دون أن يرفع عينيه عن الجريدة أجابها:

- نعم"

- الشقة دي مش مريحاني.

- مش مريحاكي ازاي؟

- معرفش. فيها حاجات غريبة.

- حاجات زي إيه؟

- زي موضوع المراية، والناس اللي كانوا في أوضة النوم.

- قلنا كنتي بتحلمي يا (دعاء).

- والنهاردة سمعت صوت حد بيخبط وصوت راجل بيصرخ فـ..

أنزل (سامح) الجريدة من أمام وجهه وهو يقاطعها قائلًا:

- راجل.. راجل مين؟

ضايقها أنه لم يُعطِ كلامها اهتمامًا إلا عندما ظهر رجل في الموضوع، لكنها على الرغم من ذلك أخفت ضيقها وهي تقول:

- معرفش، الصوت كان جاي من أوضة النوم.

بشكٍّ سألها:

- وهو كان فيه حد في أوضة النوم؟؟

- لأ، لما دخلت مالقيتش حد، بس انا متأكدة اني سمعته، وكنت واقفة ساعتها في المطبخ بغسل مواعين، يعني أكيد ما كنتش نايمة

نظر لها مليًا قبل أن يعود ليرفع الجريدة أمام عينيه ويقول:

- إنتي في عمارة كبيرة في وسط البلد، يعني ممكن يكون صوت حد من الجيران أو حد في الشارع.

صمتت قليلًا وهي تفكر في كلامه، أتراه يكون على حق، إن ما يقوله احتمال وارد فعلًا ولكن.. ولكنها متأكدة أنها سمعت الصوت، ومتأكدة أنه كان صادرًا من غرفة النوم، لذلك وجدت نفسها تقول بإصرار لم تعهده في نفسها:

- لأ، الصوت كان جاي من أوضة النوم، أنا متأكدة، الشقة دي فيها حاجة غلط.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يبعد الجريدة قليلًا عن وجهه ليلتفت إليها قائلًا:

- الشقة ما فيهاش حاجة يا (دعاء)، إنتي بس اللي بتتدلعي حبتين، دي لقطة، 400 جنيه في الشهر وكويسة وجنب شغلي، بدل ما كنا عايشين في (الخصوص) وبيطلع عيني كل يوم عشان اروح الشغل في ميعادي، وارجع أخر النهار مهدود حيلي.

صمت قليلًا وهو يتأملها قبل أن ينحني إلى الأمام قليلًا ويثبت عينيه في عينيها وهو يقول:

- ولا يمكن انتي مش عاجبك موضوع إنها جنب شغلي ده.

نظر إليها مَلِيًّا بعد أن قال عبارته كأنه يراقب تأثيرها على وجهها الذي لم يبدُ عليه سوى الاندهاش وهي تقول:

- ومش هيعجبني ليه؟؟

تراجع في جلسته مرة أخرى وهو ما يزال يراقب كل حركة وسكنة تقوم بها قائلًا:

- يعني.. مش عايزاني اكون جنبك أوي كده طول الوقت.. عايزة تبقي براحتك.

خُيِّلَ إليها في البداية أنها لم تفهم قصده ولكنها بعد بضع ثوانٍ من التفكير فهمت التلميح الواضح في جملته. ربما لو خرجت تلك الجملة من أيِّ شخصٍ آخر غيره لما كانت تعني ما تعنيه ولكنها تدرك جيدًا ما يرمي إليه.

ظَلَّت صامتة لا تجد ما تردّ به عليه، بادلته النظر وثبتت عينها في عينه كما يفعل هو. ظلَّ حبل النظرات مشدودًا بينهما، بادئًا بعقدة الشك من جهته ومنتهيًا بعقدة العتاب عندها.

انقطع ذلك الحبل أخيرًا عندما أبعد عينيه عنها ليعود إلى جريدته ويقول مُنهيًا الأمر:

- من الآخر أنا مش هسيب الشقة دي، مش مستعد اتشحطط في المواصلات ساعة ونص رايح وساعة ونص جاي كل يوم زي زمان. كفاياني بهدلة بقى.

اختلطت مشاعر (دعاء) فجأة بعد عبارته الأخيرة؛ تارة تشعر أنها غاضبة منه، ضائقة بشكه الزائد عن الحد، وتارة أخرى تشعر بشفقة غريبة عليه، هي لم تجرب أن تضع نفسها مكانه وتحمل نفس مشاعره؛ أن تعجز عن الإنجاب، أو حتى عن المعاشرة الجنسية.

ترى كيف سيكون شعورها لو حدث معها ذلك. وجدت نفسها دون أن تدري تربت على كتفه بتعاطف. لا تعرف إن كان حقيقيًا أم تمثيلًا، اختلط عليها الأمر لاختلاط مشاعرها، ولكنها على الرغم من ذلك وجدت صوتها يخرج حانيًا من بين شفتيها وهي تقول له:

- خلاص يا حبيبي، ما تضايقش نفسك.

ولأنها تعرفه أكثر مما يعرف نفسه، وبالرغم أنه لم يعلق ولا حتى التفت نحوها، إلا أنها شعرت بالتأثر الذي أخفاه خلف جمود وجهه. مالت لتلتقط فنجان القهوة وتناوله إياه مبتسمة وهي تقول:

- إشرب القهوة قبل ما تبرد.

تناول منها الفنجان بابتسامة مجاملة خفيفة في حين مالت هي نحوه وقبَّلته في خده قبل أن تنهض قائلة:

- هقوم أنا بقى.

- رايحة فين؟

- هاخد دش في السريع واجيلك على طول.

قالتها قبل أن تغيب داخل الطرقة المؤدية إلى الحمَّام والمطبخ. سمع صوت انغلاق باب الحمَّام بعد عدة ثوان تلاه صوت انهمار الماء من الدش بعد عدة دقائق.

ظل في مكانه يقلب في الجريدة ويرتشف القهوة باستمتاع وقد هدأت نفسه نوعًا بعد حركة (دعاء) وكلماتها. فجأة، رنَّ جرس التليفون الأسود القديم، أجفل وهو ينظر إلى يساره حيث يقع التليفون بدهشة وقال:

- إيه ده، بيرن إزاي ده؟؟؟

ترك الجريدة والقهوة ونهض من مكانه متجهًا إلى التليفون ليرفع سماعته ويضعها على أذنه بحذر و..

- وحشتيني يا (دعاء). وحشتيني برغم إني كنت معاكي النهاردة. هجيلك بكره زي كل يوم وجوزك في الشغل. عايزك تلبسيلي قميص النوم الأزرق القصير اللي بحبه.

تغيرت ملامح (سامح) واتسعت عيناه بعدما سمع. أبعد السماعة عن أذنه ليضعها في مكانها على التليفون الذي راح ينظر له بغضبٍ وذهولٍ. رفع عينيه إلى الطرقة المؤدية للحمَّام حيث تستحم (دعاء).

تخيَّلها وقد خلعت ملابسها ووقفت تحت المياه بجسدها العاري. تخيل هذا الجسد ورجل آخر يقبِّله ويتلمّسه. اتسعت عيناه أكثر حتى بدا أشبه بشخص مجنون. عاد ببصره نحو التليفون لينظر له بغلٍّ كما لو كان ينوي تحطيمه. كما لو كان هو نفسه ذلك الرجل الذي سمع صوته من خلاله منذ قليل.

قبضت أصابعه على سلك التليفون بغيظ ليجذبه من قابسه بعصبية. فقط ليكتشف أنه ينسحب في يده بسهولة. وأنه غير متصل بأي قابس أصلًا.

***

شعرت بقدميها الصغيرتين المشدودتين وقد تقوستا داخل حذاء أسود ذو كعبٍ عالٍ. ورغم طرف ذلك الكعب القوي المدبب فهي لا تكاد تسمع له صوتًا وهي تسير فوق أرضية الغرفة الخشبية. تلك الغرفة. هي لا تذكر أنها دخلتها من قبل.

منذ جاءت هي و(سامح) إلى هنا، ورغم ذلك فهي تعرفها جيدًا، تعرف أنها الغرفة الثالثة في الشقة، غرفة الاستوديو، وها هو المصور ينحني على الكاميرا ليضبطها ريثما تستعد هي للتصوير.

تنورتها الواسعة تلمس ركبتيها برقة وهي تسير لتقف أمام مرآة جانبية صغيرة تعلو رَفًّا وُضِعَت عليه بضعة أمشاط صغيرة، وفرشاة للشعر، والقليل من أدوات الزينة، مظهرها يبدو غريبًا جدًا ولكنها رغم ذلك لا تستغربه، هذه هي، ورغم ذلك فهي ليست هي.

شعرها قد تَمَوَّج في تصفيفة لم ترَها إلا في أفلام الخمسينيات، عيناها تحددتا بخطٍ أسودٍ عريض يرتفع لأعلى عند نهايتهما، وشفتاها تألقتا بطلاءٍ ذي لون أحمر داكن.

شعرت وكأنها صورة على غلاف مجلة قديمة، تفاصيل كل شيء تبدو واضحة وحقيقة جدًا، ورغم ذلك فهي أيضًا لا تستغرب أيَّ شيء.

وقفت أمام المرآة لتتلمس شعرها وتتأكد من مظهرها قبل أن تلتفت مبتسمة إليه وقد رفع رأسه عن الكاميرا ووقف يتطلع إليها بصمت، بنفس الخطوات التي لا تصدر صوتًا، ذهبت لتجلس على كرسي التصوير في حين ترك هو موضعه خلف الكاميرا واتجه إليها ليمسك رأسها بأطراف أصابعه ويضبطه في وضع معين وعيناها لا تزال مُعَلَّقَة بوجهه الجاد، شعرت بأنها تعرفه جيدًا رغم أنها لم تره من قبل.

تعرف حركاته وسكناته، وكل تعبيرات وجهه وجسده، الغريب أنها لم تسأل نفسها كيف، ولا تعجبت أصلًا من كونها كذلك.

عاد إلى موقعه خلف الكاميرا والتقط صورتها وفلاش أبيض ضخم أضاء الغرفة لثوان وهي تسمع صوت شيء يتكسر، ثم اعتدل وخرج من الغرفة فاختفت الابتسامة من على وجه (دعاء) وحلَّت محلها اللهفة وهي تنهض من على الكرسي لتتبعه وتمد يدها أمامها وتناديه.

سارت نحو باب الغرفة الذي بدا بعيدًا جدًا رغم قربه، تراه أمامها لكنها لا تصل إليه مهما جَدَّت في السير، رفعت صوتها كي يسمعها وهي تنادي باسمه:

- (منصور).. نت رايح فين؟.. إستنى يا (منصور).

***

الدخان يعبق هواء الصالة من حوله والسيجارة في يده توشك على الانتهاء، عجز (سامح) عن النوم هو ما جعله ينهض من فراشه ويخرج إلى الصالة ليجلس على المقعد المواجه لغرفة النوم يراقب (دعاء) النائمة ويدخن، هذه هي سيجارته الثالثة وقد سحب آخر نفس فيها وأطفأها وهو يفكر ما إذا كان سيشرب الرابعة أم سينام.

أمسك علبة سجائره ليأخذ واحدة أخرى ويشعلها مُفضِّلًا الاختيار الثاني، راح يسحب منها النفس تلو الآخر دون أن يشعر بأيّ طعمٍ لها، كأنه يحرق جوفه وأعصابه فحسب، ذلك حين سمع صوت (دعاء) آتيًا من غرفة النوم، رَكَّز بصره عليها وهو يرى حدود جسدها المُمَدَّد في الغرفة المظلمة، هل استيقظت؟ ماذا تراه يكون أيقظها في منتصف الليل فجأة هكذا؟

نهض من مكانه والسيجارة في يده مقتربًا من الغرفة ليرى ما هناك. إنها ما تزال نائمة ولكن.. منذ متى وهي تتحدث أثناء نومها، وما هذا الذي تقوله بالضبط؟؟

- (منصور).. إنت رايح فين؟.. استنى يا (منصور).

تجمد (سامح) على باب الغرفة حين صَكَّ الاسم مسامعه. وقطب جبينه وهو يتطلع إلى زوجته مشدوهًا. إنها نائمة وتحلم. تحلم برجلٍ آخر على ما يبدو. هناك رجل معها الآن في الحلم وهي تطلب منه أنه ينتظر. فلماذا؟ وما الذي يفعله معها في الحلم أصلًا؟؟

- ستنى يا (منصور).. (منصور).

نسي السيجارة بين أصابعه فتجمع رمادها حتى احترقت عن آخرها دون أن يشعر. عيناه معلقتان بجسدها الذي راح يتلوى على الفراش وأذناه لا تسمعان سوى صوتها وهي تنادي باسم (منصور). ضاقت عيناه وهو ينظر إليها بتوعدٍ وظُفر. فقد التف حبل إدانتها حول عنقها أخيرًا.

***

لم يبدُ على (دعاء) أنها تذكر أيَّ شيء عن حلم الليلة الماضية وهي تفتح عينيها في صباح اليوم التالي وتتثاءب بقوة قبل أن تمد يديها لتتمطى فقط لتكتشف أن النصف الثاني من الفراش خالٍ تمامًا. وهذا يعني أن (سامح) ليس بجوارها. (سامح). أين (سامح)؟

كان (سامح). وعلى النقيض التام من (دعاء). يذكر كل تفاصيل الليلة الماضية. كان جالسًا على كرسي طاولة الزينة وبجواره منفضة

سجائر اختفت تقريبًا تحت تل من الأعقاب، عيناه الحمراوان والهالات السوداء أسفلهما كانت تشي بليلة لم يذق فيها طعمًا للنوم.

أما وجهه المُرْهَق وفَكُّهُ المُتَصَلِّب فكان يُظْهِرُ توعُّدًا شديدًا وغضبًا مكتومًا.

- إيه يا حبيبي، صاحي من إمتى؟

- مين (منصور) ده؟

ببرودٍ وصرامة قالها كأنه لم يسمع ما قالته (دعاء) التي نظرت له بعدم فهم وآثار النوم لا تزال واضحة في وجهها وصوتها وهي تقول:

- (منصور) مين؟

- أنا اللي بسأل.

- أنا معرفش حد اسمه (منصور).

- أومال كنتي بتنادي عليه وانتي نايمة امبارح ليه؟

تطاير أثر النوم قليلًا من عينياها وهي تقول باستنكار:

- أنا كنت بنادي على واحد اسمه (منصور)؟؟

ظلَّ صامتًا يتطلع إليها بثبات وفي عينيه نظرة مُخِيفَة أربكتها وجعلتها تصمت قليلًا قبل أن تحاول الابتسام وهي تقول ببساطة:

- أكيد كنت بحلم.

- مانا عارف إنك كنتي بتحلمي، مين بقى (منصور) اللي كنتي بتحلمي بيه ده؟

صمتت قليلًا كأنها تفكر قبل أن تهز رأسها في حيرة وهي تقول:

- والله ما اعرف يا (سامح)، أنا حتى مش فاكرة أصلًا أنا حلمت امبارح بإيه؟

- يعني انتي ما تعرفيش حد اسمه (منصور)؟

- خالص

ظلّ صامتًا وعيناه ثابتتان على عينيها قليلًا قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا وهو ينهض من كرسيه قائلًا:

- ماشي.

لم تبدُ كلمته وكأنها تحمل اقتناعًا بما قالته بقدر ما بدت كفاصل أو هدنة بين معركتين، ربما تكون هي التي ربحت هذه الجولة ولكنه اقترب جدًا من الإمساك بها، والأنشوطة في يديه تضيق شيئًا فشيئًا.

- (سامح)، إستنى

كان قد وصل إلى باب الغرفة حين سمعها تناديه فاستدار نحوها بلهفة وعلى وجهه نظرة تحفز، هل ستقول من هو (منصور)؟ هل ستعترف حقًا؟؟

- إنت متأكد إن انا اللي كنت بتكلم؟

- يعني إيه؟

صمتت قليلًا قبل أن تنهض من الفراش وتنظر حولها بقلق وخوف ثم تقول بتردد:

- أصل أنا حاسة إن الشقة دي مش مظبوطة.

حدجها بنظرة طويلة من أعلى رأسها حتى أسفل قدميها قبل أن يقول:

- الشقة بردو هي اللي مش مظبوطة.

- !!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

***

منذ مغادرته للشركة وحتى وصوله أمام الشقة وقلبه يدق بصوت عالٍ يُصِمُّ أذنيه ويكاد يخفي عنه كل الأصوات المحيطة رغم صخبها. قال لنفسه أنه سيغادر الشركة مهما حدث، حتى لو لم يعطوه إذنًا بالانصراف، وحتى لو اضطر إلى تقديم استقالته أو الصراخ في وجه مديره كي يطرده.

وقف أمام الباب قليلًا في محاولة لتهدئة أنفاسه المتسارعة قبل أن يولج المفتاح في القفل.كان حريصًا على عدم إصدار أدنى صوت أثناء دخوله، ها هي ذي الصالة الواسعة تبدو خالية هادئة، وها هو ذا باب غرفة النوم الرئيسية المفتوح يكشف جزءًا من الغرفة نفسها، والتي يسمع صوت (دعاء) آتيًا منها.

***

جلست (دعاء) أمام المرآة الضخمة في غرفة النوم الرئيسية تُمَشِّطُ شعرها الناعم الطويل، مرتدية ذلك القميص الأزرق القصير الذي يحبه (سامح) وفي نفس الوقت يجعلها تبدو مثيرة للغاية.

وبالرغم من كل الأحداث الغريبة والكوابيس التي هاجتمها في هذه الشقة إلا أن مزاجها كان رائقًا نوعًا ما في تلك اللحظة مما دفعها إلى الهمهمة بأغنية قديمة لا تعرف هل كانت تعرفها من قبل أم أنها ظهرت فجأة بعقلها:

- أنا هويته.. وانتهيت وليه بقى لوم العزول.. يحب إني أقول .. ياريت الحب ده عني يزول

انتهت من تمشيط شعرها وهي تبتسم من كلمات الأغنية الغريبة التي شعرت بأنها مخبأة في عقلها وأن كلماتها تجري على لسانها بسهولة كأنها تحمل لها ذكرى سعيدة.

وضعت الفرشاة على طاولة الزينة ثم خفضت رأسها وفتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بأدوات الزينة الخاصة بها وراحت تعبث بينها باحثة عن شيءٍ ما وهي ما تزال تدندن، كانت منهمكة فيما تفعله فلم تشعر بـ (سامح) الذي يسير في الصالة على أطراف أصابعه متجهًا إليها.

ولا بذلك الرجل غير واضح المعالم الذي بدا انعكاسه ظاهرًا في المرآة أمامها وكأنه يقف خلفها تمامًا.

***

لقد اقترب الآن من الغرفة وصار يسمع صوت (دعاء) أعلى وأوضح لكنه لا يميز ما تقول، فجأة، خرج من الغرفة رجل، لكنه خرج بظهره وركض نحو غرفة النوم الثانية.

اتسعت عينا (سامح) وتسمَّر لثوانٍ من وطأة المفاجأة لكنه تمالك نفسه وحَلَّ الغضب محل الدهشة في نفسه وهو يجري ليلحق بالرجل ويدخل الغرفة خلفه.

***

الغرفة خالية والنافذة مفتوحة، كان هذا أول ما طالع عيني (سامح) فور دخوله إلى الغرفة الثانية. أسرع نحو النافذة وراح ينظر من خلالها في كل الاتجاهات.

لم يكن يعرف ما يبحث عنه بالضبط، فمن الصعب أن يكون ذلك الرجل قد قفز إلى الشارع بهذه السرعة، ولكن أين ذهب إذن؟ هو متأكد أنه رآه، هل هذا هو (منصور) الذي كانت (دعاء) تهذي باسمه في حلمها؟

اشتاط غضبًا عند تلك النقطة فترك مكانه عند النافذة ليندفع نحو غرفة النوم الرئيسية، فإن كان ذلك الحقير الذي رآه يخرج من غرفة نومه يستحق القتل مرة، فالعاهرة التي استقبلته على فراشه تستحق القتل ألف مرة.

اندفع إلى غرفة النوم الرئيسية في حال أشبه بالجنون وقد احمر وجهه وهو يلهث بشدة، وما إن وقعت عيناه على (دعاء) وهي في كامل زينتها، مرتدية ذلك القميص الأزرق القصير، حتى شعر وكأن المشهد أمامه قد اصطبغ فجأة بلونٍ أحمرٍ قانٍ.

***

"هاجيلك بكرة زي كل يوم وجوزك في الشغل. عايزك تلبسيلي قميص النوم الأزرق القصير اللي بحبه"

***

- (سامح).. إيه اللي جابك بدري أوي كده النهـ...

قطعت (دعاء) عبارتها مرغمة عندما انهال (سامح) على وجهها بصفعة بلغت من قوتها أن أسقطتها من فوق المقعد الذي كانت تجلس عليه وهي تطلق صرخة ذهول قصيرة قبل أن تشهق قائلة:

- إيه يا (سامح) فيه إيه؟؟؟

انقَضَّ عليها وأمسكها من شعرها بقوة وهو يصفعها ويصرخ بطريقة جنونية والزَبَدُ يتجمع في ركني شفتيه:

- مين الراجل اللي لسه هربان من أوضتك؟

شعرت (دعاء) بفروة رأسها تكاد تنسلخ وهي تصرخ في ذهول قائلة:

- راجل مين؟؟

- فاكراني جاي من الشغل بالليل.

ازدادت سرعة وقوة صفعاته لها وبدأ بركلها بجنون وهي تحاول حماية وجهها بيديها صارخة:

- إنت بتعمل كده ليييييييه؟؟؟؟؟؟؟

- أنا كنت حاسس من الأول إنك بتخونيني

قالها (سامح) ثم سحبها من شعرها وهي تتلوى وتصرخ حتى وصل إلى السرير فرفع رأسها وصدمه بحافته لتنبثق الدماء من منبت شعرها وتسيل على جبهتها وعينيها.

- والله ما خُنتك"

كان الألم يبدو واضحًا في صوتها ووجهها وهي تقول عبارتها تلك قبل أن تسقط منهارة على الأرض من إثر ضربة رأسها فجثم فوقها (سامح) وضغط على عنقها بِغِلّ مُكملًا على ما تبقى منها.

- هو ده (منصور)، هه؟ (منصور) اللي بتحلمي بيه، مش كده؟؟"

كان يسأل دون أن ينتظر إجابة ولعابه يتساقط على وجه (دعاء) التي فتحت فمها لا لتجيب، بل لتحاول أن تصرخ أو أن تسحب نفسًا من الهواء الذي يمنعه عنها، راحت أطرافها تنتفض في حركة عشوائية في محاولة لإبعاده ووجهها يتغير تدريجيًا إلى اللون الأزرق، أما هو فقد زاد من ضغطه وهو يصرخ بجنون كلما تحركت أو قاومت.

لم تتصور (دعاء) أنها تموت، ولم تتصور أن الموت موجع هكذا، بدأت الرؤية تتضبب أمام عينيها لتصبح مشوشة مهتزة، وذات لون أقرب إلى الرمادي، كأن النور في عينيها ينطفئ بالمعنى الحرفي.

شعرت أنها صارت أضعف وأعجز عن المقاومة، وأن أطرافها لا تتحرك تقريبًا، في تلك اللحظة رأت شخصًا يقف هناك خلف (سامح)، أدارت عينيها نحوه، أرادت أن تنبه (سامح) إلى وجوده كي يصدقها، وفي داخلها أجابت سؤاله دون أن تتمكن من تحريك لسانها به..

كان آخر ما رأته هو شيء يشبه الدموع في عيني (سامح)، ومن خلفه وجه الرجل الذي راح ينظر لها قبل أن تتوقف أنفاسها في صدرها، وتتوقف أطرافها عن الحركة تمامًا.

***

- وبعدين..؟

نظر (سامح) لمحدثه بوجهٍ متصلِّب وعينين زائغتين اسودَّ أسفلهما بشدة، تعلقت عيناه بالمعطف الأبيض المُعلَّق على المشجب بجواره في شرود، هو لا يدري لِمَ يظنونه مجنونًا في حين أنه لم يفعل شيئًا، لقد غسل عاره فحسب، وهذه لا تعتبر إلا جريمة شرف، فما بال هؤلاء الناس، لماذا يتصرفون هكذا.. لكن، لكن كل ما يفعلونه لم يكن يهمه فعليًا ولا يؤثر فيه، فكل ما يضايقه فعلًا هو أن..

- كَمِّل يا (سامح)..

عاد (أيمن) الطبيب المكلف بتقييم حالته العقلية يستحثه على الكلام بلهجته الهادئة وهو يجلس خلف مكتبه البسيط في إحدى غرف مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، أما (سامح) فقد جلس على

مقعد أمام مكتب (أيمن) وقد أحنى رأسه وشرد بصره قليلًا قبل أن يقول باقتضاب:

- شفته وهو خارج من الأوضة.

- هو مين؟

صمت (سامح) لحظة كأنه لا يرغب في الإجابة قبل أن يقول بصوتٍ خفيض:

- (منصور).

- بس الشقة ما كانش فيها غيركم انتوا الاتنين.

- مهو الـ. الكلب أول ما شافني نطّ من الشباك.

بدا الغضب على وجه (سامح) في تلك اللحظة فعاد الطبيب يسأله بهدوء:

- انتوا ساكنين في الدور الكام يا (سامح)؟

- التالت.

- وتفتكر ممكن حد ينط من الدور التالت وينزل سليم؟

قطب (سامح) جبينه وهو يحرك عينيه يمنة ويسرة كأنه حائرٌ أو كأنه يبحث عن الإجابة في عقله قبل أن يقول:

- معرفش. بس انا شفته.

- شفته وهو بينط؟

- لأ، بس هيكون راح فين يعني؟؟!

- يمكن مكانش موجود أصلًا.

- لأ كان موجود.

قالها بإصرار يحمل رنة غضب فتوقف الطبيب قليلًا قبل أن يعود ليقول:

- قلت لي اسمه إيه؟.

- (منصور).

- و(منصور) ده انت تعرفه؟

- لأ..

- أومال عرفت اسمه منين؟

- سمعتها بتنادي عليه وهي نايمة.

- وده اللي خلاك تتأكد إنها بتخونك؟

صمت (سامح) مرة أخرى وهو يكتم الدموع التي تتجمع في عينيه في حين عاد الطبيب ليكمل كلامه قائلًا:

- والمكالمة اللي رديت عليها وكانت من عشيقها، مش انت بنفسك اللي قلت إن التليفون مفهوش حرارة؟

شعر (سامح) بالحيرة وبالدموع تزداد غزارة في عينيه مع كلمات (أيمن)، تمنى لو كان بإمكانه أن يسكته، إنه لا يدري حقًا، لو كان هو على حق فكلمات الطبيب لا معنى لها، ولو كان الطبيب على حق فـ...

- مش عارف.

- اللي سمعته في التليفون ده كان اللي جواك، إللي نفسك تسمعه عن (دعاء)، انت اللي كنت بتتكلم يا (سامح).

اتسعت عينا (سامح) وهو يستعيد تلك المكالمة في عقله مرة أخرى، هل.. هل كان ذلك صوته؟ هل ذلك الذي تحدث معه كان هو نفسه!

هنا عجز (سامح) عن الاحتفاظ بجموده أكثر من ذلك، وتقطع صوته وهو يقول في لهجة أشبه بالانتحاب:

- أنا.. أنا ما قصدتش أقتلها، أنا لا يمكن أقتل (دعاء)، (دعاء) دي.. دي.. أنا.. أقتلها ازاي يعني؟ هي عارفة، حتى اسألها، هتقول لك إن انا.. إن انا مـ..ما قتلتهاش"

- خلاص يا (سامح)، أنا مصدقك.

قالها (أيمن) بلهجة مُتَفَهِّمَة مُحَاوِلًا تهدئته وانحنى على ورقة أمامه ليكتب شيئًا ما، صمت (سامح) وهو يحني رأسه حتى كادت تلامس ركبتيه والدموع تسيل من عينيه لتغرق ملابسه، لكن كل ما يفعلونه لم يكن يهمه فعليًا ولا يؤثر فيه.

فكل ما يضايقه فعلًا هو أنه يشتاق إليها كثيرًا. صحيح أنه يراها. يراها قبل نومه، يراها عندما يكون بمفرده، أو حتى عندما يكون مع الأخرين، إلا أنها لم تعد (دعاء) زوجته التي يعرفها. لم يعد يستطيع أن يُقَبِّلَهَا أو يلمسها كالسابق. نعم، هو يراها، يراها في كل وقت و في كل مكان، كلما اقشعر جلده أو شعر ببرودة في أطرافه. بالضبط كما يراها الآن تقف إلى يمينه وتنظر له بحزنٍ شديدٍ.

***

الحكاية الأولى

كانت الشقة مظلمة تمامًا حين فتح (عبد الباقي) بابها بهدوء في تلك الساعة المتأخرة من الليل، دخل متسحبًا كأنه لص وهو يضع حقيبته على الأرض ويشعل ضوء الصالة مُعَلِّقًا عينه بباب غرفة النوم الرئيسية الذي كان مغلقًا.

سمع صوتًا خفيضًا يأتي من غرفة النوم كأنه موسيقى للحنٍ يعرفه، غشاوة الغضب تكاد تعمي عينيه وعقله يتمنى لو كان ما قاله (سعيد) ناتجًا عن خيالٍ واسعٍ لا أكثر. أرهف أذنيه لينصت جيدًا وهو يتجه إلى غرفة النوم وينادي بصوت عالٍ:

- (عزيزة)

كان قد اقترب جدًا من الغرفة حين سمع صوت جلبة خفيفة وهمهمات خافتة تصدر منها وفجأة.. انفتح باب الغرفة عن آخره وظهر (صالح) من خلفه عاريًا حافي القدمين، لا يستر جسده سوى ملابسه الداخلية فحسب، أما ملابسه ونعليه فقد كانوا مكومين تحت إبطه بلا نظام.

لم يستغرق ظهور (صالح) عند الباب إلا بضع ثوانٍ فحسب فقد اندفع خارجًا بسرعة شديدة ليصطدم بـ (عبد الباقي) في طريقه ويسقطه أرضًا ثم يجري نحو باب الشقة ليفتحه ويختفي عن الأنظار بسرعة البرق.

ظلّ (عبد الباقي) في مكانه على الأرض مذهولًا ينقل بصره بين باب الشقة الذي تركه (صالح) مفتوحًا أثناء فراره وبين غرفة النوم المظلمة وصوت أغنية (أنا هويته) أصبح واضحًا له وهو يأتي من "الجرامافون"

الذي نقلته (عزيزة) لغرفة النوم، رغم معرفته بما يحدث مسبقًا إلا أنه لم يتصور أنه سيرى فداحته هكذا بعينيه.

لم يستغرق ذهوله سوى بضع ثوانٍ فحسب، هَبَّ بعدها واقفًا وَحَلَّ الغضب محل الذهول في نفسه وهو يندفع إلى غرفة النوم ويشعل ضوءها بضربة عنيفة من كفه لتطالعه (عزيزة) جالسه على الفراش تهندم حول جسدها جلباب نوم مفتوح الأزرار، يبدو وكأنها ارتدته للتو، وتعيد شعرها بسرعة إلى الوراء.

- (عبد الباقي)!

قالتها وهي تنظر له بخوفٍ، فاقترب نحوها وقد انقلبت ملامح وجهه من شدة الغضب وهو يقول:

- نايمة مع الصبي بتاعي في فرشتي يا بنت الكلب.

ازداد خوف (عزيزة) مع اقترابه منها وهي تقول بصوتٍ مرتجف:

- هقولك إيه اللي حصل يا (عبد الباقي).

- فاكراني في (طنطا)، صح؟

رفع (عبد الباقي) كفه الكبيرة ونزل على وجهها بصفعة صَفَّرَت لها أذنها وهو يصرخ بغضب:

- بتخونيني يا وسخة

لم تكن تلك الصفعة القوية سوى بداية لعدة ضربات وصفعات أخرى انهالت على وجه (عزيزة) وجسدها وجعلتها تبكي وتصرخ من الألم وهي تتوسل له وترجوه من بين صرخاتها قائلة:

- ارحمني.. ارحمني يا (عبد الباقي).

لم تزد دموعها وتوسلاتها غضبه إلا اشتعالًا، لقد ضبطها متلبّسة بالجُرم أمام عينيه، رأى صبيّه يخرج راكضًا من غرفة نومه بملابسه، ثم هاهي تبكي وتصرخ طالبة الرحمة، أي رحمة!

أمسك (عبد الباقي) برأس (عزيزة) وصدمه بحافة الفراش فشجّه ليسيل خيط دماء من أعلاه لكنه لم يهتم وظل يصفعها بقوة وسط توسلاتها، ألقاها أخيرًا فوق الفراش واتجه إلى الدولاب وهو يقول بتصميم:

- مش هيطلع عليكي نهار إلا وانتي في تربتك يا بنت الكلب.

فتح الدولاب وظلّ يعبث بالملابس حتى عثر على مسدسه الساقية الكبير الذي رخَّصه منذ عشر سنوات ولم يستخدمه، وعلبة الرصاص الموضوعة بجانبه، تناول المسدس بينما سقطت العلبة من يده التي ترتجف من شدة الغضب فسقطت الرصاصات متناثرة على الأرض.

هناك غشاوة تتكون أمام عينيه، برغمها انحنى يتحسس الرصاصات ليقبض على مجموعة منها ويبدأ في حشو المسدس وقد اتخذ قرارًا بقتلها فعلًا.

هنا نسيت (عزيزة) ألمها والدماء التي سالت على جبهتها حتى وصلت إلى عينيها، لتندفع نحوه صارخة وتتشبث بيده محاولة تقبيلها لكنه دفعها لتسقط على الأرض فعادت مرة أخرى تحاول التعلق بقدمه بينما هو يكمل حشو المسدس غير عابئ بكل ما تفعله.

بل إن ما تفعله لم يزده إلا غضبًا وتصميمًا. انتهى من حشو المسدس وصوَّبه إلى رأسها. كاد إصبعه يعتصر الزناد فعلًا لولا ذلك الصوت الذي سمعه، صوت بكاء طفلٍ صغيرٍ. نظر نحو الباب ليرى ابنه (سعيد) واقفًا هناك يبكي بحرقة والدموع تغرق وجهه، وبجانبه (منصور) يحتضنه صامتًا.

توقفت أصابع (عبد الباقي) وأبعد المسدس عن رأس زوجته وهو ينظر إلى ولديه بتأثُّر قبل أن يضع المسدس في جيبه. هنا هدأت (عزيزة) وتركته وهي تنظر إلى الأرض بخجلٍ. ساد الصمت إلا من صوت (سيد درويش) المتصاعد من الجرامافون يقول: "أنا وحبيبي في الغرام .. مفيش كده ولا في المنام". لم تكن لتتصور أن ظهور ولديها سينقذها من الموت لكنها أيضًا لم تتصور أن تُفضَح أمامهما هكذا.

امتلأت عيناها بالدموع وقد بدا لها في تلك اللحظة أن الموت أهون بكثير. أما (عبد الباقي) فقد وضع المسدس بجيبه وهو يسير حتى وقف أمام الطفلين ووضع يديه على رأسيهما بحنانٍ وهو يقول بأسف:

- أمكم خاينة.. جابتلي العار. القتل حلال فيها. لكن انا هسيبها تعيش علشانكوا انتوا، بس يا رب عارها ما يلحقكوش.

قالها ثم التفت ليلقي نظرة ازدراء على (عزيزة) وهو يبصق عليها قبل أن يترك الغرفة. كفكف (سعيد) دموعه وقد هدأ قليلًا دون أن يفهم وقتها أنه كان المسؤول عمًّا حدث.

أما (منصور) فقد ظل وجهه من بداية الموقف وحتى نهايته جامدًا، لم يبكِ كشقيقه ولم يصرخ كأي طفل عادي، فقط ظلَّ ينظر إلى أمه بصمتٍ، لم ينظر لها بحزن كأخيه، ولا باحتقار كأبيه، لم يحمل وجهه أي تعبيرٍ يشي عمًّا بداخله رغم الصراع الدائر في نفسه، فرغم سنوات عمره التسع، والتي قد يظنها البعض لا تكفي كي يستوعب الموقف، إلا أنه كان يستوعبه جيدًا، يستوعبه ويخزنه في مكانٍ ما من عقله.

قد ينسى البالغون أنهم كانوا أطفالًا في يوم من الأيام، لذلك تجدهم يحسبون أن عقل الطفل قد ينسى وأن جرحه قد يندمل، ولكن نظرات (منصور) كانت تشي بغير ذلك.

***

انتهت (عزيزة) من رص الأطباق على المائدة قبل أن تنادي ولديها، مرَّ على تلك الحادثة ما يقرب من العام الآن وقد بدا أن نارها صارت رمادًا، أو هذا ما كان يبدو على السطح فحسب.

خرج (سعيد) و(منصور) من غرفتهما إثر سماعهما لنداء الأم، كان وجه (سعيد) عاديًا بينما كان (منصور) لا يزال يحمل ذلك التعبير الجامد المتجهم، كأنه التصق به منذ تلك الليلة، وهو ما لاحظته عليه، فلم يعد يبتسم نهائيًا حتى ولو صدفة.

اتخذ الصبيان مقعديهما حول الأم التي جلست بدورها قبل أن تمتد يدها حاملة الطعام إلى فم (سعيد) الذي فتحه تلقائيًا ليتناوله ببساطة. حاولت أن تفعل المثل مع (منصور) لكنه أبقى فمه مغلقًا وهو يبعد وجهه عنها بقرفٍ.

لم يكن (منصور) يخفي ازدراءه لأمه. لم يكن يحاول حتى أن يفعل. كان يراها شيئًا مُدَنَّسًا لا أمًّا. أما هي، فرُغمَ معرفتها التامة لما فعلته إلا أنها ظَلَّت أمًّا رغم كل شيء. انحفر الحزن عميقًا على وجهها عندما أبعد (منصور) وجهه عنها. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يقدم فيها على حركة كتلك. ولا يبدو أنها ستكون الأخيرة.

***

- خالو جه.. خالو جه يا جماعة

هكذا راح (سعيد) يصيح بفرحة وهو يستقبل (عبد العال) خاله الذي جاء لزيارتهم.

(سعيد) قد بلغ الثالثة عشر منذ بضعة أشهر وقد بدأت ملامحه هو وأخوه في التكوُّن والوضوح. ظهرت الوسامة التي ورثاها من الأم مع بعض اللمحات الرجولية التي أخذاها عن الأب خاصة (منصور) الذي بدأ شعر شاربه ولحيته ينبت على استحياء.

أما (سعيد)، فقد كان وجهه ما يزال ناعمًا طفوليًا بعض الشيء تمامًا كشخصيته التي ظلت هادئة وخجولة كما هي.

خرج (منصور) مبتسمًا من غرفته هو وأخوه، والتي صارت تحوي فراشين منفصلين الآن، إلى الصالة، وقد بدا سعيدًا هو الآخر لحضور خاله، كانت تلك من المرات النادرة التي يبدو فيها (منصور) سعيدًا، كانت سعادته لسببين.

الأول هو حب الولدان لخالهما بصفة خاصة بسبب أسفاره الدائمة هنا وهناك، والتي يجمع من خلالها التحف والمعروضات التي يزخر بها متجره في (خان الخليلي)، تلك الأسفار التي يعود منها محمَّلًا بالهدايا والحكايات المسلية التي تثير خيالهما الغَضّ.

أما السبب الآخر، فهو التغيير الذي يُحْدِثَهُ ظهور أي شخص أو زائر جديد في حياتهما الروتينية والتي لا وجود فيها تقريبًا إلا لـ (عزيزة)، التي لا يطيق (منصور) حتى خيالها على الأرض، خصوصًا بعدما ترك (عبد الباقي) المنزل وصار يرى ولديه من خلال زياراته المتفرقة لهما فحسب.

أما (عزيزة) فقد كانت تعرف جيدًا مقدار المحبة التي يكنها ولداها لخالهما، لذلك تتركه معهما بعد أن تحييه بحرارة لتذهب وتعد الطعام للجميع تاركة المجال لهما كي ينعما بوقتهما معه، خاصة (منصور) التي كانت تحاول إسعاده بأي شكلٍ.

(عبد العال) شابًا في مقتبل العمر، يكاد يقارب (منصور) و(سعيد) في سنهما، وقد كان أنيقًا حليق الوجه، يرتدي ملابس أفرنجي كما كان (عبد الباقي) يقول.

وبحُكم تعامله مع رواد متجره، كان أكثرهم من الأجانب وقد تأثر بهم (عبد العال) وصار يتقن بعض اللغات كالفرنسية والإيطالية والإنجليزية بلهجاتها.

كل هذا جعله قريبًا من نفس الولدين ومن عالمهما وثقافتهما، جعلهما يجدان سهولة في التعامل معه على عكس والدهما خشن الطباع رغم حنيته الفائقة معهما.

- عندي ليكوا النهاردة مفاجأة.

قالها (عبد العال) مبتسمًا فجاوبه (منصور) بابتسامة مماثلة وهو يقول:

- مفاجأة إيه؟.

أشار (عبد العال) إلى الكيس القماشي الكبير الذي يحمله قائلًا:

- جايبلكوا معايا هدية.

- هدية واحدة!

قالها (سعيد) بسرعة دون تفكير فنظر له أخوه بعتاب وهو يقود خاله كي يجلس قائلًا بحدة:

- ما تبقاش قليل الذوق يا (سعيد).

تَخَضَّبَ وجه (سعيد) بالحمرة في حين جلس (عبد العال) وهو يضحك قائلًا:

- ما تكسفوش يا (منصور)، هما فعلًا هديتين مش هدية واحدة.

كان وجه (سعيد) ما يزال في حُمرَة الدم حين أشار له خاله كي يجلس إلى جواره قبل أن يربت على كتفه برفق وهو يقول:

- يلا افتحوا الكيس وشوفوا إيه اللي جوه، بس خلي بالكم أوي عليهم.

اشتعل الفضول في نفس الصبيين خاصة (سعيد) الذي أمسك طرف الكيس مع أخيه ليفتحاه بحذرٍ وترقُّب وينظران بداخله قبل أن تتسع أعينهما ويطلق (سعيد) شهقة عالية قائلًا:

- إيه يا خالو ده؟ هو صاحي ولا ميت؟؟!

أما (منصور) فقد بدا أكثر تماسكًا وهو يمد يده داخل الكيس الكبير ليُخرج أحد الأرنبين المُحَنَّطَين بالداخل ليتأمله وهو يقول:

- زي اللي في متحف جنينة الحيوانات يا (سعيد)، بس متحنط.

ضحك (عبد العال) من نظرة (سعيد) إلى داخل الكيس وقال:

- امسكه ياد ما تخافش، مش هيعضك.

أما (منصور) فقد راح يتحسس أرنبه بإعجاب وهو يقول:

- (إبراهيم) صاحبي راح متحف (فؤاد الأول الزراعي) الجديد وبيقول فيه حاجات من دي كتير هناك.

- التحنيط ده فن يا ولاد، وهواية حلوة وبتكسّب كمان لو حد اشتغل عليها بإخلاص، ولو تحبوا تتعلموه، أنا ممكن اعلمكم بنفسي.

(سعيد) في تلك اللحظ قد تجرأ ولمس الأرنب داخل الكيس بحذرٍ في حين التفت (منصور) إلى خاله بلهفة قائلًا:

- بجد يا خالو؟

- بجد طبعًا.

- طب مش التحنيط ده محتاج أدوات ومواد.. ثم احنا هنجيب الحيوانات نفسها منين؟

- كل ده سهل، المهم.. عايزين تتعلموا ولا مش عايزين؟

في نفس واحد وبحماسة كبيرة أجاب الاثنان:

- عايزين طبعًا.

***

في ذلك الوقت الميت من اليوم، والذي تكون أغلب الأسر فيه قد تناولت طعام الغداء، المتبوع غالبًا بأكواب الشاي، ثم اتجهوا إلى غرف نومها للحصول على بعض الراحة أو نوم القيلولة في وقت "العصاري".

اعتاد (منصور) على الخروج من شقتهم مغلِقًا الباب خلفه بهدوء قبل أن يتلفت حوله بحذر ويتخذ طريقه نحو درجات السلم، ليست تلك التي تهبط به إلى أسفل كما قد يتبادر إلى الأذهان، وإنما التي تصعد به إلى أعلى، إلى سطح البناية.

صعد (منصور) الدرجات بخفة وسرعة حتى وصل إلى القمة، إلى (أميمة) التي تنتظره هناك مستندة إلى السور بفستانها الأنيق المحتشم الذي راح النسيم يداعب طرفه بخفة.

مشاعرهما الطفولية قد نضجت وتحولت على مَرِّ السنين إلى حب شاب غض، تمامًا كملامحهما وتكوينهما الجسدي، فها هي ذي (أميمة) وقد صارت أكثر جمالًا من ذي قبل، بعينيها المرسومتين ووجهها البيضاوي المحاط بشعرها الأسود الناعم الذي قَصَّته عند ذقنها ليحتوي ملامحها الرقيقة بنعومة.

أما جسدها، فقد ظل ضئيلًا يميل إلى القِصَر كما هو مع نحول في الخِصر وامتلاء بسيط في تلك المناطق التي جعلت منها أنثى.

(منصور) أيضًا قد تغيَّر؛ ازداد طولًا ووسامة، صار يهتم بتصفيف شعره الناعم الذي يفرقه من الجانب، كما صار يهتم بأناقة ثيابه وتلميع حذائه، خاصة عندما يقابل (أميمة)، أما وجهه، فقد تحول من الابتسام الدائم إلى العبوس الذي لم يكن ينكسر إلا نادرًا، إن مارس هواية التحنيط التي علمها خاله له ولسعيد، أو كلما قابل (أميمة).

- وحشتيني.

قالها (منصور) بصوت هادئ فاستدارت إليه بوجه أشرقته ابتسامتها الجميلة، كان هذا هو نفس موعد لقائهما منذ الصغر وإن اختلف المكان، اختلف ليتمكنا من البوح بما تجيش به صدورهما بعيدًا عن الأعين والآذان، فهما لم يعدا طفلين ولم تعد اهتماماتهما تنحصر في دحرجة

"البلي" ولعب (الاستغماية). صارا الآن يختلقان الأعذار؛ كشراء قلم أو ممحاة كي يتمكنا من التسلل واللقاء بحُرّية.

بعيونٍ مسبلة وخدين ورَّدهما الخجل. قالت (أميمة):

- وانت كمان.

- أنا كمان إيه؟

ابتسمت وازداد خداها احمرارًا دون كلام لكنها استسلمت لكفِّ (منصور) الدافئة التي امتدت لتلتقط راحتها الباردة مثيرة تلك القشعريرة الخافتة التي تحيا في كل مرة يمسك فيها يدها وهو يقول:

- بحبك.

فتحت شفتيها لتجيب فعاجلها قائلًا:

- ولو قلتي وانا كمان هازعل بجد.

- لأ أنا مقدرش على زعلك انت عارف.

- قوليها طيب.

تعلقت عيناها بعينيه قليلًا قبل أن تبتعد عنهما بخجلٍ وهي تقول:

- ما تكسفنيش بقى يا (منصور).

ذابت الابتسامة من على وجهه وهو يقول بخفوتٍ:

- براحتك.

بدت عليها اللهفة وهي تقول:

- (منصور).. انت زعلت بجد؟؟

كان وجهه قد عاد لتعبيره المقطب الجاد مرة أخرى وامتلأت عيناه بالحزن وهو يهز رأسه نفيًا بطريقة مزقت قلب (أميمة) التي لم تكن تحتمل رؤيته حزينًا فعادت لتقول:

- حقك علي، وحياتي عندك ما تزعل.

- أنا مش زعلان منك انتي يا (أميمة)، أنا زعلان من كل حاجة

بحذرٍ وخفوتٍ قالت:

- إنت اتخانقت مع والدتك تاني؟

- لأ.. بس مبقتش قادر حتى ابُصّلها، لسه مش قادر انسى اللي حصل، وعندي شعور اني عمري ما هنسى.

كانت (أميمة) هي المخلوق الوحيد الذي باح له (منصور) بسِرّ خيانة والدته، والوحيدة التي كانت تعرف كيف تخفف من حرقة الأثر الذي تركته تلك الخيانة، فها هي ذي ترفع يدها لتربت على خده برفق لتهدئته ولكنه على الرغم من ذلك ظلّ مقطبًا مطرق الرأس.

إنها تحبه، تحبه حقًا وهو يعرف ذلك رغم خجلها وحداثة سنها التي تمنعها من قول الكلمة صراحة. تحبه وتفهم احتياجه لسماعها تقولها حتى وإن كان يعرف. لكنها شعرت بداخلها في تلك اللحظة شيئًا يشبه

النار، نار أشعلها اختلاط حبها له بإشفاقها عليه، جعلتها تقدم على فعل لم تكن تتصور أن بإمكانها الإقدام عليه في حياتها.

وجدت نفسها ودون مقدمات، تتحسس ذراعي (منصور) برفق قبل أن تطوقه بذراعيها بحنان بالغ، لكنها لم تدرك في تلك اللحظة وهي تحتضنه، أن النار التي أردات إطفاءها بتلك الحركة، لم تزد إلا اشتعالًا، اشتعال وصل إلى (منصور) نفسه الذي ضمها هو الآخر إلى صدره بقوة شعرت بها حتى ضلوعها.

كان يشعر وهو يحتضنها أنه يحتضن طفلة صغيرة وأُمًّا في نفس الوقت، طفلة يفوح منها عطر البنفسج الذي كانت تتعطر به دومًا، العطر الذي يُشعره أنه يحتضن زهرة البنفسج نفسها، بكل رقتها وجمالها، يحتضنها بقوة كي يتغلغل عبيرها بداخله، وبرفقٍ كي لا يمزقها في ذات الوقت.

وببطءِ المُقبل على أمر لا يرغب فيه، أفلت (منصور) (أميمة) وهو يتأمل ملامحها بتأنٍّ كأنه يراها لأول مرة، مفتقدًا ذلك الدفء الذي منحه التصاق جسده بجسدها اللين الرقيق، أما هي نفسها، فقد ظلت بضع لحظات تتأمل ملامح (منصور) في ضوء جديد هي الأخرى، بوجهٍ خَضَّبَتْهُ حُمرة الخجل والدفء والإحساس بالأمان

وعينين تنشدان ذلك الأمان من جديد، وأمام مناشدة عينيها الخضراوين الشبيهتين بعيني قطة صغيرة خائفة، لم يتمالك نفسه وسرعان ما غاب معها في عناق آخر، أطول وأشد حرارة، جاءت فكرة التقبيل في عقله وفي عقلها في نفس اللحظة.

استعادت ذاكرته مشهدًا من فيلم أجنبي رآه عندما اصطحبه خاله مع شقيقه للسينما. وقد انطبعت القُبلة في ذهنه لأنها تختلف عن القُبَل التي رأها في الأفلام المصرية الأخرى.

بلع ريقه محاوِلًا التغلب على تردده. أبعدها مرة أخرى ببطء قليلًا حتى صار وجه كل منهما أمام الآخر ببضعة سنتيمترات. نظر لشفاها الصغيرة المحددة بلا أحمر شفاه. فتحت هي فمها قليلًا بحركة لا إرادية كأنها تبلغه بأنها مستعدة لاحتضان شفتيه.

قرَّب رأسه منها فأغمضت عينها وهي تشعر بشفتيه تلامس شفتيها برقة كأنها تستكشفها. اقتربت بوجهها منه أكثر لتلتحم شفتاه بها بقوة. شعر هو بملمس شفتيها الرطب من الداخل بينما تركت هي شفتيه لتتحرك بحرية وتتعامل مع شفتيها.. ظلا على هذا الوضع لدقيقة حتى ابتعدت هي قليلًا وأمسكت رأسه تتأمل تفاصيل وجهه. ثم قالت مبتسمة وبصوت صادق:

- بحبك.

***

- ده بابا يا (سعيد).

تقريبًا تغيَّر كل شيء فيما عدا النفوس التي عجزت جروحها عن الاندمال. كان (عبد الباقي) قد ترك الشقة لـ(عزيزة) لتقيم فيها مع ولديهما. وصار يعتمد على الزيارات- التي كانت هذه واحدة منها - كي يرى ولديه ويرعي متطلباتهما.

بدا وجه (منصور) جامدًا وهو يحيي والده ويحتضنه قبل أن ينادى على أخيه كي يأتي ويحييه هو الآخر. لكن صوته حمل سعادة واضحة لم تظهر على قسمات وجهه.

خرج (سعيد) من غرفة النوم الثانية - التي يتشارك فيها مع (منصور) – ليحتضن والده قبل أن يتجه ثلاثتهم ليجلسوا جميعًا في الصالة. وبعد سؤالهما عن الأحوال والدراسة. خفض (عبد الباقي) صوته قليلًا وهو يقول بحذرٍ:

- أمكم هنا؟؟

رد (منصور) بقرفٍ واقتضابٍ قائلًا:

- آه

زفر (عبد الباقي) بضيقٍ ثم وضع يده في جيبه وخرج بها حاملة مبلغًا كبيرًا من المال أعطاه لهما الذي قال:

- مش محتاجين كل ده يا بابا.

أضاف (منصور):

- ده المصروف بتاع كل شهر بيتبقى وبنحوش منه.

ربت (عبد الباقي) على أيديهما وهو يقول:

- خلصوا مصرفوكوا واطلبوا تاني ومالكوش دعوة. تعالولي على الدكان تاخدوا اللي انتوا عايزينه.

نظر (عبد الباقي) لغرفة نوم (عزيزة) وهو يضع يده في جيبه ويخرج مبلغًا ضخمًا آخر من المال ليعطيه لـ (منصور) قائلًا:

- خد وصَّل فلوس كل شهر لأمك. الحمد لله اني ما شوفتهاش الشهر ده.

لم يكد يتم عبارته حتى خرجت (عزيزة) من غرفة نومها في ثوبٍ منزلي محتشم وهي تقول بأدب:

- أنا أهو يا حاج.

اتجهت (عزيزة) إليه وجلست على مقعد مواجه له وخفضت عينيها إلى الأرض وهي تقول:

- عايزاك في موضوع يا حاج.

- عايزة إيه؟؟

قالها (عبد الباقي) بقرف فعادت (عزيزة) لتقول:

- مش عايزة اكلمك قدام العيال.

نظر لها (عبد الباقي) قليلًا متأملًا وجهها قبل أن يشير لـ (منصور) و(سعيد) بالنهوض فأطاعاه على الفور واتجها إلى غرفتهما. تبادل (عبد الباقي) النظر مع (عزيزة) التي تقول:

- أنا خايفة على (منصور)

- إيه اللي ناقصه؟

قالها مستفسرًا بقليل من اللهفة والقلق فردت هي بأسف:

- ناقصه ما يبصليش بقرف، ناقصه يحترمني، يحبني، (منصور) بيعاملني كأني عدوته، مش قادر ينسى اللي شافه من 8 سنـ...

- محدش هينسى.

قالها مقاطعًا إياها فانهار صوتها والدموع تتجمع في عينيها وهي تقول:

- إيه يا أخي ربنا بيسامح وانت و(منصور) مش عايزين تسامحوني.

نهض وألقى بالمال على الكرسي الذي كان يجلس عليه قبل أن يتوجه نحو باب الشقة وهو يقول:

- مش مش عايزين نسامح.. إحنا مش قادرين نسامح.

وصل إلى باب الشقة ففتحه ليخرج وأغلقه خلفه في حين بقيت (عزيزة) في مكانها وهي تنتحب بصوت مسموع، أما (منصور) و(سعيد)، فقد كانا واقفين خلف باب غرفتهما المردود يستمعان إليهما منذ البداية.

***

صارت (عزيزة) وحيدة تمامًا، تجلس وحدها، تأكل وحدها، تفعل كل شيء تقريبًا وحدها، كانت تدرك جيدًا ما فعلته، لو يستعرض المرء نتاج فعلته قبل الإقدام عليها لما وُجِدَت كلمة الندم.

لحظة ضعف أنهت على حياتها دون أن تزهق روحها، لا زالت تذكر يوم تشبَّثت بيد (عبد الباقي) وقبَّلت قدمه كي لا يقتلها، لقد ندمت لأنها أخطأت وندمت أكثر لأنها لم تتركه ليقتلها عقابًا لها على فعلتها.

فهذا العقاب الذي تعيشه أشد وطأة من القتل، لم يتركها إلا من أجل ولديها التي صارت تحيا معهما كالغريبة الآن، عرفت فيما بعد أن (صالح) قد اختفى بعد تلك الليلة بعدما وجدوا دماءً تغرق فراشه في غرفته على السطح لكنهم لم يجدوا أثرًا له، تمنت أن يكون مصيرها مثله، برغم أنها تشعر بأن (عبد الباقي) وراء اختفائه أو قتله بمعنى أصح.

لكن (سعيد) الذي لا تكنّ له مشاعر حالية اختفى وتركها تواجه نظرات الجميع وخاصة نظرات (منصور) التي تمزقها، لم تكن تعرف أنه في تلك اللحظة يقف خلف باب غرفة النوم الثانية ويختلس النظر لها وهي جالسه على المائدة تأكل بمفردها من طبقٍ صغيرٍ أمامها.

الغضب يغزوا ملامحه بقوة، أما هي، فقد استغرقت في أفكارها، تسترجع شريط حياتها وهي تمضغ طعامها بشرودٍ حين شعرت بألمٍ حاد مفاجيء في بطنها، توقفت عن المضغ وتقلصت ملامحها لحظة وهي تمسك بطنها ثم ما لبث وجهها أن استعاد هدوءه، فقد زال الألم كما هاجمها فجأة، اندهشت (عزيزة) قليلًا لكنها لم تعطِ أهمية للأمر وعادت لتكمل طعامها ظنًا منها أن ما حدث لم يكن سوى وعكة طارئة فحسب.

***

ها هو ذا (منصور) يقف مع والده قرب باب الشقة يصافح آخر خمسة رجال في طريقهم للخروج، اللون الأسود يغلب على ملابس كل منهما، وكان وجه (منصور) – الذي كان على أعتاب الثامنة عشرة من عمره - يحمل تعبيره الجامد المعتاد، أما الشقة، فقد خلت من كل مقاعدها وأثاثها تقريبًا ليحل محل ذلك مقاعد خشبية متراصة، جلس

(سعيد)، ذو الخمسة عشر عامًا، على واحد منها بوجه أحمر وعينين غارقتين في الدموع التي كانت ما تزال تتساقط على وجهه، كان (سعيد) يبكي بصدق حزنًا على أمه

- شكر الله سعيكم

قالها (منصور) لآخر المعزين قبل أن يغلق الباب ويتوجه نحو أحد المقاعد استعدادًا لتنظيف الشقة فأوقفه (عبد الباقي) بيده وهو يقول:

- سيبك من ده، أنا بكرة هبعتلكم حد يروّق البيت، تعالى دلوقت علشان عايزك في موضوع انت و(سعيد).

اتجه (عبد الباقي) نحو (سعيد) وجلس على الكرسي المجاور له في حين تناول (منصور) مقعدًا ووضعه قبالتهما ليجلس عليه منصتًا لوالده.

- عندي حاجتين عايز أقولهم، أولهم ما تحملوش هم شغل البيت بعد موت امكم، كل يوم الصبح بدري هاتجيلكم أم (صبحي) اللي شغال معايا في الدكان تنضف البيت وتحضّرلكم أكل اليوم كله وتسيبه في المطبخ، لغاية ما كل واحد فيكم يتجوز.

صمت (عبد الباقي) قليلًا وهو يخرج من جيبه علبة سجائر معدنية ليأخذ منها واحدة وينظر لولديه بنوع من الارتباك والقلق، وضع السيجارة العريضة في فمه وأشعلها بعودٍ من الكبريت قبل أن ينفث دخانها في الهواء ثم يقول بتردد:

- لما ماتت امكم بعد ما اتعشت ونامت وطلبتوني في التلافون وجيت وشوفتها، خلصت كل حاجة بسرعة، تصريح الدفن وشهادة الوفاة، وجبت مغسلّة تغسل الجثة وما تقولش لحد على أي حاجة تشوفها، علشان الموضوع ما يدخلش فيه البوليس، لأني عارف الحقيقة. قولتلي يا (سعيد) إن امكم بعد ما اتعشت بساعة جالها إسهال وترجيع؟

- آه.

قالها (سعيد) مجيبًا فعاد (عبد الباقي) ليقول:

- وانا عطار، ولما شُفت الجثة عرفت اللي حصل.

صمت (عبد الباقي) بضع لحظات ثبت فيها عينه في عين (منصور) قبل أن يقول:

- أمكم اتسممت بالزرنيخ.

هنا أدار (سعيد) عينيه هو الآخر نحو وجه (منصور) الجامد، ورغم تركز عيني والده وأخيه عليه، إلا أن وجهه ظل جامدًا بشكلٍ غير مفهوم.

***

الحكاية الرابعة

عماد الدين 2005

كان (عماد) يحمل حقيبة سفره الكبيرة في يدٍ ولوحًا خشبيًا كبيرًا في اليد الأخرى وهو يخطو بداخل الشقة ويجيل عينيه يمنة ويسرة في أرجائها. وقعت عينيه على المحنطات المعلقة في صالة الشقة ولكنه لم يشعر بشيءٍ نحوها، بل اعتبرها ديكورًا سيئًا لا أكثر. أومأ برأسه في رضا وهو يقول للبواب الذي يقف خلفه حاملًا بقية حقائبه:

- مش بطالة.

ترك (عماد) الحقيبة على الأرض وأسند اللوح إلى الجدار قبل أن يلتفت إلى البواب ويضيف:

- بس أهم حاجة يكون فيها أوضة تنفع تبقى ستوديو. زي ما فهّمتك، أنا هستخدم الشقة للتصوير.

- طبعًا يا بيه. الشقة دي أصلًا كانت بتاعة واحد مصوراتي. أنا هوريك الأوضة بنفسي.. تحب احط الشنط فين؟

- خليهم هنا على جنب.

وضع البواب الحقيبتين بحرص على الأرض ثم اتجه نحو الغرفة الثالثة وطلب من (عماد) أن يتبعه قائلًا:

- اتفضل يا بيه. اتفضل.

فتح باب الغرفة ودعا (عماد) للدخول وهو يقول:

- الأوضة أهيه. شوفها بنفسك.

دخل (عماد) الغرفة وأجال بصره فيها قليلًا قبل أن يقول:

- هي قديمة شوية ومترّبة قوي، بس تمام.

ارتسمت ابتسامة مجاملة على وجه البواب وهو يقول:

- حضرتك تؤمر بحاجة تانية؟

أخرج (عماد) من جيبه مبلغًا من المال وضعه في يد الحارس قائلًا:

- ربنا يخليك، بس فيه في بير السلم تحت شوية لوح وصندوق، طلعلهم لي، وحاسب ع الصندوق علشان جواه كومبيوتر.

- ما تخلي طيب.

قالها البواب بلهجة غير صادقة وهو يتناول النقود فعلًا فرد (عماد):

- معلش خليهم علشانك.

قالها (عماد) وهو يخرج هاتفه المحمول من جيبه وينظر في شاشته فقال البواب:

- على فكرة يا بية، التلاجة اللي سابها السكان القدام هي والبوتجاز أنا اتطمنتلك عليهم وشغالين زي الفل، أستأذن أنا عشان أطلع بقية الحاجات

أومأ (عماد) برأسه وهو ما يزال منشغلًا بهاتفه فخرج البواب من الغرفة في حين اتصل (عماد) برقم ما وانتظر بضع ثوانٍ قبل أن يقول:

- إزيك يا (سارة).

جاءه صوتها المرح وهي تقول:

-(عماد)، ازيك، وحشتني.

- وانتي أكتر.. بقوللك، عندي ليكي مفاجأة.

- مفاجأة، خير؟ طب انت فين طيب؟

- لأ ما هي دي المفاجأة.

- تبقى لقيت الشقة اللي هتعمل فيها الاستوديو.

- وهي دي ميزة إنك تبقى خاطب واحدة ذكية.

بعتاب ضاحك قالت (سارة):

- وانت خطبتني بس عشان أنا ذكية.

تصنع (عماد) الجدية وهو يقول:

- أومال انتي فاكرة إن أنا خطبتك ليه؟؟

- يعني عشان بتحبني مثلًا.

- لأ طبعًا مش حقيقي، أنا خطبتك عشان انتي ذكية، لكن هتجوزك عشان بحبك، وكمان ما تنيسش أهم ميزة فيكي.

- ايه ؟

- إنك بتكلميني بمحن وأنا برد عليكي بطريقة أمحن

- أمحن !!

اتجه (عماد) نحو الكرسي الخشبي الوحيد الموجود بداخل الغرفة وجلس عليه قائلًا:

- سيبك انتي ؟ تعرفي إن الشقة مش بطّالة، جاهزة انها تكون ستوديو تصوير، النهاردة بالليل بالكتير هكون خلّصت كل حاجة، يعني من بكرة ممكن تعمليلى دعاية، وتبعتيلي زباين كمان.

- أكيد طبعًا يا حبيبي.

التقط (عماد) نبرة حزن خفيفة ظهرت في صوتها فقال باندهاش:

- إيه ده انتي مش فرحانة ولا إيه؟؟

ردت (سارة) بسرعة:

- لا يا روحي فرحانة طبعًا بس..كان نفسي يعني تفضل معانا في الجرنال.

- وانا كمان والله يا (سارة)، بس انتي عارفة بقى اللي حصل، ومين عارف مش يمكن كده أحسن ليًا وليكي؟

- يمكن.

قالتها بتنهيدة ولهجة غير المقتنع فقال هو بسرعة منهيًا الموضوع، كأنه لا يريدها أن تتطرق إلى تفاصيله:

- يلا بقى روحي كمّلي شغلك، وأنا كمان هشوف هعمل إيه عشان البواب كده شكله طلّع الحاجة، وهبقى ابعتلك العنوان في رسالة.

- أوكي، باي باي.

- باي باي يا حبيبتي.

أغلق هاتفه المحمول ونظر للأعلى مبتسمًا وهو يقول:

-بموت في محن أمها.

لم يكن البواب قد حضر فعلًا كما قال (عماد) ولكنه تحجج به كي يتمكن من إنهاء الموضوع وإغلاق الخط مع (سارة)، فهو يعرف جيدًا أنها ستدخل في تفاصيله التي يكرهها، ويعرف أيضًا أنها تفعل ذلك بدافع الحب ليس إلا، لذا لم يجد أمامه سبيلًا إلا التهرب.

نهض من على المقعد وهو يدور ببصره في الغرفة قبل أن يخرج منها ليتفقد بقية الشقة القديمة المتربة، إن أمامه من العمل الكثير فعلًا، وهو عازم على أن يشغل نفسه به وبحياته الجديدة، ويحاول نسيان ما مضى.

***

وقف (عماد) أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به والذي انتهى حالًا من وضعه وتركيبه على منضدة جانبية صغيرة في الصالة، اختار بضعة مقاطع من الموسيقى الكلاسيكية التي يحبها وقام بتشغيلها لتصدح في أنحاء الشقة التي كان قد انتهى من تنظيف جميع غرفها فيما عدا غرفة الاستوديو التي قرر تركها للنهاية حتى يستكشفها بهدوء.

ويضبطها بـ "مزاج".. هكذا قال لنفسه وهو يحمل حقائبه ويتجه بها نحو غرفة النوم الرئيسية ليضعها على الفراش الكبير ويفتحها، أخرج أحد قمصانه المحشورة داخل كوم الملابس بالحقيبة، تدحرجت بعض الملابس لتسقط بعضها على الفراش وإحداها سقطت على الأرض، مال بجزعه كي يلتقط ما سقط أرضًا فخُيِّلَ إليه أنه رأى شيئًا ما تحت الفراش.

جثا على ركبتيه يدقق النظر ليفاجأ بالثعبان المحنط. انتفض وهو يتراجع زحفًا للوراء ويشهق. سكت ثوان وهو ينظر له ثم اقترب ببطء يتأمله وهو يلتف حول نفسه بثبات.

-يا ولاد الوسخة يا مجانين .. حد يشتري تعبان متحنط

لمسه بيده وابتسم وهو يسحبه ويرفعه ليضعه على الكومود ويتأمله وهو يتمتم

-ولاد مجنونة بصحيح

التفت نحو الدولاب الضخم وفتح إحدى ضلفه اليمنى ليبدأ برص ملابسه بالداخل.

***

انتهى (عماد) من رص جميع ملابسه بسرعة ودون الحاجة إلى ضلف الدولاب اليسرى.

اتجه إلى غرفة التصوير ووقف ينظر إلى كميات الغبار الهائلة التي تغطي كل شيء فابتسم ساخرًا وهو يقول لنفسه:

- استعنا على الشقا بالله.

وقعت عينيه على مجموعة كبيرة من الصناديق في أحد الأركان فتوجه نحوها وراح يزيح الغبار عنها ويتفحصها مُزيحًا الفارغ منها جانبًا. ووسط كل تلك الصناديق المغبَّرة وجد (عماد) علبة صغيرة من الكارتون تعب حتى أزال التراب المتراكم فوقها ليقرأ ما كتب عليها بصعوبة.

- يا نهار ابيض، فيلم (كوداك) من الأربعينات. إيه المتحف اللي انا دخلته ده؟؟

وضع (عماد) العلبة جانبًا ليكمل عمله في الغرفة وهو يُحَدِّث نفسه قائلًا:

- ماشي يا بواب الكلب، بتقولي شقة كانت ستوديو قبل كدة، ونسيت تقولي إنها كانت ستوديو من القرن اللي فات، ده انا محتاج معجزة علشان انقلها للقرن ده.

تعثرت يده في صندوق نحاسي مزخرف مغلق، حاول فتحه فلم يفلح فألقاه جانبًا.

***

- فيه تصوير أفراح هنا؟

- طبعًا يا فندم، فرح مين ؟

- فرح (سارة) و(عماد).

- تقصدي فرح (عماد) و(سارة).

- لا احنا كده نلغي الفرح.

قالتها (سارة) واستدارت متظاهرة بالرحيل فأمسك (عماد) بذراعها وهو يضحك قائلًا:

- خلاص خلاص، هنمشّيها (سارة) و(عماد)، بس يتجوزوا.

ضحكت (سارة) أيضًا و(عماد) يجذبها معه داخل الشقة ويغلق الباب خلفهما وهو يقول:

- اتفضلي يا فندم في ستوديو (كلاسيك).

دخلت تنظر لصالة الشقة فوقعت عيناها على المحنطات .

- أعوذ بالله، إيه ده .

- أه انتي تقصدي الأصنام دي، سيبك منها دا تلاقي صاحب الشقة كان مجنون ولا حاجة.

ضحكت (سارة) وهي تقول:

- مش هيكون أجن منك.

وقعت عيناها على "الجرامافون" فأشارت له متسائلة فردَّ عليها:

- لا.. الجرامافون ده علشان ترقصلنا عليه .

انفجر الاثنان في الضحك لعدة ثوان قبل أن تربت على ذراعه وتقول:

- ألف مبروك يا حبيبي.

أمسك يدها وهو يقرّبها من فمه ويطبع عليها قُبلة فابتسمت، اقترب منها وهو يضمها إليه ويقبّل شفتيها بعنف بينما أغمضت عينيها وهي تبادله التقبيل بعنفٍ أكثر استمر لثوانٍ قبل أن تبعد رأسها وزفرة شوق تخرج من شفتيها .

- طب مش هتوريني الشقة الأول.

تأمل وجهها وهو يقول:

- هو لازم دلوقتي.

- نشوف الشقة وانا مِلكك بعد كدة.

قالتها بدلال وهي تفلت من بين يديه بخفة فتركها مبتسمًا وهو يسير بجانبها ناحية إحدى الغرف.

- بصي، أوضة التصوير هناك أهيه.

- هَخُشّ اشوفها دلوقتي لكن عايزة أكلمك في موضوع الاستوديو ده مرة أخيرة.

قالتها بجدية فتغيَّر وجهه واتجه نحو أحد مقاعد الصالة ليجلس عليه مشيرًا لها كي تجلس بجواره وهو يقول بملل:

- تاني هتقوليلي اشوف جرنال تاني غير اللي اترفدت منه.

جلست على المقعد وهي تقول بطريقة لينة محاولة إقناعه:

- إنت ملكش ذنب في رفدك، رئيس التحرير الجديد كان مستقصدك من يوم ما صممت تنشر الصور اللي لقطتها في حادثة عربية ابن رئيس الوزراء اللي خبطت طالب الهندسة.

- على العموم أديني ارتحت وهشتغل لوحدي من دلوقتي.

- بس انت كنت بتحب التصوير في قسم الحوادث.

- اعتبريني أخدت أجازة من تصوير الجثث وهصور الصاحيين.

قالها بابتسامة شبه ساخرة فتنهدت وهي تقول:

- يعني مفيش أمل إنك تقدم في أي جرنال ؟؟

- محدش عارف إيه اللي هايحصل بكرة.

أومأت برأسها وهي تنظر أمامها بشرود قائلة:

- آه.. فعلًا.

- شكلك مش مقتنعة بكلامي.

أدارت عينها نحوه لتجده ينظر إليها نظرة فاحصة تكاد تفضح عدم اقتناعها، أسرعت لتقول:

- لا يا حبيبي، طالما القرار ده هيريّحك يبقى انا معاك فيه.

نظر لها قليلًا بغير تصديق فارتبكت راسمة ابتسامة واسعة على شفتيها وهي تقول:

- هتبدأ الشغل من إمتى بقى؟

- من دلوقتي، أنا ظبطت الأوضة وبعد بكرة إن شاء الله هروح أقدّم ورقي علشان أخد الترخيص واعمل سجل تجاري وضريبي، ولما ييجوا يعاينوا علشان يدوني الرخصة هبقى احط يافطة برا.

- وانا هبعتلك أي حد اعرفه عايز يتصور، وهاقول لكل زمايلنا في الجرنال على عنوان الاستوديو.

نظر لها بابتسامة ممتنة ثم اقترب منها قليلًا بوجهه وهو يقول:

- بقولك.

رفعت عينيها إليه بتساؤل فتابع:

- ما تيجي أفرجك على أوضة النوم.

ردت بدلال:

-اشمعنى؟

-هفرجك على التعبان اللي جوه.

ضحكت وهي تزيح وجهها عنه مبتسمة فرد هو:

-متخليش مخك يروح لبعيد، فيه تعبان جوه بجد.

-نعم؟

-بس متحنط ما تخافيش

تبع عبارته بنهوضه وهو يمسك يدها ويجذبها ناحية الغرفة ووجنتاها تزداد احمرارًا لا إراديًا وهي تبتسم بخجلٍ، بينما هو يقول:

-كنتي فاكراه صاحي وبيلعب مش كده

***

في ظلام الغرفة الذي لا يبدده جزئيًا إلا بعض الضوء القادم من الصالة، (عماد) يَغُطُّ في النوم على الفراش الكبير، المكان هادئ ولا يكاد

يسمع سوى صوت أنفاس (عماد) المنتظمة الهادئة، وفجأة، رنَّ جرس الهاتف في الصالة.

تَقَلَّبَ في رقدته وأفاق جزء بسيط من عقله وهو يفتح عينًا واحدة مندهشة ليتبين ما هناك، أغلق عينيه بقوة لثوانٍ ثم عاد ليفتحهما معًا ويرفع نصف جسده فقط من الفراش و.. مهلًا، هناك كتلة ظل سوداء موجودة معه في الغرفة.

كتلة لها حدود الجسد البشري، بل هو فعلًا سيلويت لرجل يقف قُرب الفراش الذي يرقد عليه، وفي الضوء الخافت تبينت عين (عماد) المذهولة معالم ذلك الرجل النحيل ذي الشارب الرفيع في فزع، الرجل يرتدي بنطلونًا من القماش معلَّق بحمالتين على قميص أبيض تلوث عند الياقة بدماءٍ تنزف من جرحٍ عرضي بالعنق.

نعم فقد امتلأ وجه الرجل بالجروح إضافة لجرح عنقه، مذبوحًا ويقف على قدميه أمام (عماد) مشيرًا إليه بإصبعه.

رنين التليفون ما زال مستمرًا لكنه تحول من كونه أمرًا غريبًا أو مثيرًا للدهشة إلى نوع من ضجيج الخلفية بالنسبة لـ (عماد) مقارنة بذلك الرجل المذبوح الذي يقف على بُعد خطوات منه.

لم يُلْغِ عقل (عماد) صوت الرنين وإن تجاهله قليلًا وهو يرمش بعينيه عدة مرات قبل أن يفتحهما عن آخرهما حين تأكد أنه يرى ما يراه فعلًا، ورغم رعبه، والتنميل الذي شعر به في لسانه، إلا أنه وجد نفسه يهتف بصوتٍ خافتٍ مختنق:

- إنت مين؟؟

لم يفعل الرجل سوى أن أدار يده ليشير بها نحو الدولاب أمام عيني (عماد) المتسعتين. كان جسده يرتجف بشدة وقلبه يدق بقوة، والرجل ما يزال واقفًا والجرس يرن في الخلفية، وفجأة.. شعر (عماد) بانتفاضة فتح معها عينيه وصحا من نومه.

أول ما فعله هو أن دار بعينيه في الغرفة بسرعة بحثًا عن ذلك الرجل أو عن أي شيءٍ غريبٍ، تحركت شفتاه بعبارة "الحمد لله" حين وجد الغرفة خالية تمامًا.

الأمر الذي أكَّد له أنه كان فعلًا يحلم، أما جرس الهاتف فما زال يكمل رنينه كما في الحلم، فرغم تعجب (عماد) من اتصال أحدهم به في تلك الساعة وهو نفسه لا يعرف رقم هاتف الشقة ولا إن كان به حرارة أم لا، إلا أنه نهض من فراشه وخرج إلى الصالة ليرد.

بحث عن مصدر الرنين بأذنه التي قادته إلى الركن الذي تقع فيه الطاولة التي وُضِعَ عليها التليفون الأسود القديم. ركع على إحدى ركبتيه بجوار الطاولة ورفع السماعة ليضعها على أذنه وهو ما يزال على دهشته حين سمع صوتًا عميقًا يقول:

- (سارة) بتحبك أوي يا (عماد)، وعلشان كده دايمًا بتجاملك، إنت ما انطردتش من الجرنال علشان رئيس التحرير بيكرهك، انت انطردت علشان شغلك بقى أقل من إنه يتعرض قدام الناس، انت اخترت تصور الجثث لأن عمرها ما هتعترض على تصويرك، الحقيقة إنك فاشل في التصوير، وكنت بتهرب لقسم الحوادث لأنه أسهل عليك.

صرخ (عماد):

- مين اللي بيتكلم!!

- واحد من اللي صورتهم بس مكانش قادر يقولك رأيه في الصورة.

- ومكنتش قادر تقول رأيك ليه؟؟

- مش قلتلك الجثث عمرها ما هتعترض.

***

ظَلَّ (عماد) صامتًا للحظات بعد الصدمة التي سمعها والتي جعلته يصرخ بخوفٍ وبأعلى صوته:

- إنت مين؟؟؟؟؟

لم يجد جوابًا على سؤاله سوى الصمت التام مما جعله ينظر إلى الهاتف ليتفحصه بعينين متسعتين، فعندما جذب السلك لم يجده متصلًا بقابس ولا بأي شيء، بل وجده ملفوفًا على نفسه بإحكام كأي سلك لم يستخدم منذ مدة طويلة.

ظلَّ ثابتًا لعدة ثوانٍ وقد تجمَّدت كل من يديه؛ اليمنى الممسكة بالسماعة واليسرى الممسكة بالسلك، قبل أن يترك الهاتف وينهض من مكانه بشرودٍ.

كان شاردًا إلى درجة أنه ظلَّ واقفًا في الصالة أمام الغرفة كأنه لا يدري أين يذهب أو يتجه. وقبل أن تخطو قدمه خطوة واحدة نحو

الغرفة التقطت عينه من داخلها مشهدًا لضلفة الدولاب اليسرى وهي تنفتح من تلقاء نفسها بهدوء.

***

لم يفق (عماد) بعد، رغم القهوة السادة التي شربها والمياه الباردة التي استحمَّ بها، فقد كانت الأحداث، أو الأحلام كما أقنع نفسه، التي وقعت الليلة الماضية ما تزال تؤثر على عقله منذ أن استيقظ، أو بمعنى أدق منذ أن غادر الفراش؛ فهو لا يعرف فعلًا متى ولا كيف نام.

لا يعرف حتى إن كان قد نام أصلًا، المهم أنه حاول أن يكون عمليًا وأن يرمي بكل هذا وراء ظهره وهو يقف خارج الشقة ليثبت بالقرب من بابها لافتة متوسطة الحجم قد أحضرها معه كُتب عليها عبارة "استوديو كلاسيك للتصوير" بخط أنيق، أسفلها سهم يشير إلى الباب الذي تركه مفتوحًا كان حلًا مؤقتًا حتى يمكنه من تعليق لافتة تطل على الشارع .

***

- استوديو كلاسيك؟

التفت (عماد) بدهشة وهو يجلس أمام الكمبيوتر في الصالة، إلى الفتاة الشابة التي تقف على باب الشقة وهي تقول عبارتها بابتسامة جاوبها بابتسامة مماثلة وهو يقول في نفسه بأنه من المستحيل أن يعرف أحد الزبائن موضع الاستوديو الآن، نهض من مكانه مشيرًا لها بالدخول قائلًا:

- أه يا فندم اتفضلي.

دخلت الفتاة الشقة وهي تقول:

- محتاجة اتصور صور شخصية وكارت من فضلك.

- تحت أمرك، بس الاستوديو هنا هيقدم لحضرتك 3 كروت مختلفين هدية على الصور الشخصية.

- يبقى فعلًا (سارة) كان عندها حق لما عرَفتني المكان هنا.

ازدادت ابتسامته أكثر وقد فهم أن خطيبته تجامله ببعض أصدقائها كزبائن له، بالتأكيد أجبرتهم على المجيء.

أشار لها بأدبٍ إلى غرفة التصوير كي تتقدمه إليها وتدخل إلى الغرفة التي تغيرت تمامًا الآن: فقد نقلها (عماد) فعلًا إلى هذا القرن، وحوَّلها إلى غرفة تصوير حديثة بعد أن كانت غرفة كراكيب متربة بعد أن نقل كل ما بها لغرفة النوم الصغيرة.

كانت تحوي مقعدًا صغيرًا وُضِع أمام خلفيات متحركة وأمامه كشّاف إضاءة (ستاند) وكاميرا ديجيتال ذات عدسة موضوعة على حامل ثلاثي الأرجل.

دعا (عماد) الفتاة للجلوس على المقعد وأشعل كشاف الإضاءة ليوجهه نحوها ثم وقف خلف الكاميرا وقال:

- ارفعي راسك شوية.. نزليها سنة، يمينك، كمان شوية، أيوة، ابتسمي كدة.. تمام.

ضغط زر الكاميرا فظهر المشهد الملتقط أمامه على شاشتها الصغيرة: مشهد الخلفية والمقعد والفتاة المبتسمة التي تجلس عليه. كان المشهد في الواقع هو نفسه المشهد على الشاشة الصغيرة ولم يكن بينهما سوى فرق واحد فحسب، أن الفتاة الظاهرة على الشاشة ليست هي التي تجلس فعليًا على المقعد أمامه.

***

بيدين مرتبكتين وعينين حائرتين، راح (عماد) يقلّب في الكاميرا متفحصًا إياها بعد أن رفعها من على حاملها، ورغم عدم فهمه لما حدث إلا أنه حاول الابتسام وهو يقول للفتاة:

- آآ.. أعتقد أننا هناخد صور الكروت الأول ونرجع للصور الشخصية في الآخر، اقفي وربّعي إيدك بعد إذنك وخلّي جسمك باصص لليمين ووشك باصص لي.

نهضت الفتاة ببساطة وفعلت ما طلبه (عماد) الذي ضغط الزر مرة أخرى ليتكرر نفس ما حدث في المرة السابقة: اللقطة واحدة والزاوية واحدة لكن الفتاة ليست هي، الفتاة المبتسمة الظاهرة على الشاشة هي نفس الفتاة الغريبة التي ظهرت في الصورة السابقة، لكنها الآن واقفة بنفس الوضعية التي تقف بها الفتاة الحقيقية.

شعر بالارتباك والدهشة ورفع الخجل درجة حرارة جسده قليلًا وهو يمسك بالكاميرا ويقترب من الفتاة ليلتقط لها صورة ثانية وثالثة، طلب من الفتاة أن تغيّر وضعية جسدها مرة واثنين لكن النتيجة ظلت واحدة،

في كل مرة تظهر تلك الفتاة التي لا يعرف من أين أتت لتظهر على الشاشة مبتسمة ومتخذة نفس وضعية الفتاة الواقفة أمامه.

نبتت حبات صغيرة من العرق على وجه (عماد) الذي بدت الدهشة واضحة عليه رغم إخفائه لها في صوته وهو يقول:

- آسف يا آنسة، بس الكاميرا فيها عطل، لو ينفع تشرفيني بكرة علشان تتصوري وهتكون الصور الشخصية والكروت مجانية اعتذارًا من الاستوديو على وقتك اللي ضاع.

تعجبت الفتاة قليلًا إلا أنها هزت رأسها بتفهم وهي تقول:

- مفيش مشاكل، هاجي بكرة تاني، بس هدفع تمن الصور الشخصية.

- يا فندم حضرتك تنورينا في أي وقت، ومش هنختلف على أي حاجة.

خرجت الفتاة من الغرفة وهي تتبادل الابتسامات الدبلوماسية مع (عماد) الذي انتظر حتى سمع صوت قدميها تغادران الشقة ليقول محدثًا نفسه وهو ينظر إلى الكاميرا بشكٍ:

- هي الكاميرا باظت ولا إيه؟؟ بتعرض صور متخزنة عليها مثلًا؟؟

استعرض صور الفتاة وتأمل ملامحها الجميلة وملابسها القديمة التي لم يكن قد انتبه إليها في البداية وهو يقول:

- ومين دي وإيه اللي جابها في الكادر؟؟؟ إيه ده ؟؟

عاد يستعرض الصور مرة أخرى مركزًا في تفاصيلها، كانت الفتاة تملك جسدًا ضئيلًا وملامح دقيقة منمنة، أما عيناها الخضراوان فقد كانتا تشعان وسط وجهها الملائكي الذي يحيط به شعر أسود قصير و.. فجأة انتبه إلى تفصيلة أخرى غاية في الأهمية لم يكن قد انتبه إليها أيضًا، تفصيلة غريبة جعلته يهتف بدهشة قائلًا:

- ده الخلفية في الصورة دي غير الخلفية اللي انا حاطتها دلوقت "!!!!!

***

أخذ (عماد) الكاميرا معه وخرج من الغرفة إلى الصالة ليقف أمام طاولة السفرة الضخمة ويجرب أخذ لقطة عشوائية لها و..

- إيه ده!!!

قالها (عماد) وهو ينتفض للخلف حين أظهرت شاشة الكاميرا صورة ثابتة لسيدة جالسه على السفرة تأكل.

***

..كانت (عزيزة) تدرك جيدًا ما فعلته، لو يستعرض المرء نتاج فعلته قبل الإقدام عليها لما وُجِدَت كلمة الندم في قواميسنا...

***

- أنا مش فاهم"

قالها (عماد) وهو ينظر إلى طاولة السفرة الخالية أمامه، ورغم فزعه مما رآه إلا أنه رفع الكاميرا مرة أخرى ووجَّهها في اتجاه عشوائي آخر، وجهها نحو أريكة الصالة ليظهر على الشاشة أمامه صورة ثابتة لرجل يقرأ الجريدة وبجواره فتاة تنظر نحوه وترفع يدها كأنها تحدثه وهو غير منتبه لها.

***

خيَّم الصمت عليهما لدقيقة أو اثنتين لم يُسمع فيهما سوى صوت تقليب أوراق الجريدة في يدِ (سامح) الذي ظلت عيناه مركزتين على الجريدة فلم يلحظ التردد البادي على وجه (دعاء)، والتي راحت عيناها تتحركان بتوتر كأنها تفكر كيف تبدأ كلامها.

***

تأرجحت مشاعر (عماد) بين الخوف والفضول وهو ينظر حوله في أنحاء الشقة متراجعًا بخطواته، لا يدري إلى أين، فمن الواضح أن كل ركن هنا يظهر كادرًا غريبًا إذا تم لقطه على شاشة الكاميرا.

رفع يده مرة أخرى ليلتقط صورة للطرقة المؤدية إلى الحمَّام والمطبخ، أظهرت الصورة شابًا يمسك سكينًا ملوثًا بالدماء ويقف على باب المطبخ كأنه يهم بالدخول إليه.

تعالت أنفاس (عماد) واتسعت عيناه من شدة الخوف لكن فضوله غلبه ليجري نحو المطبخ ويلتقط صورة أخرى لداخله ليرى على الشاشة منظرًا بشعًا لشابين قتيلين ملقيين على الأرض غارقين الدماء وقد انغرس

سكينٌ في ظهر أحدهما، شهق وتراجع حتى اصطدم بالحائط المقابل وهو يشعر بغثيان ودوّار يكاد يُسقِط الكاميرا من يده.

***

سالت دموع (سيد) بغزارة على وجهه وهو يرى صديقه الثاني يسقط قرب الأول والسكين التي قتلهما بها منغرسة في ظهره.

***

السكين.. اللقطة الأولى كانت تظهر شابًا يمسك سكينًا ويقف على باب المطبخ، نفس السكين كان موجودًا في اللقطة التالية ولكنه كان منغرسًا في ظهر واحدٍ من القتيلين، الأمر يشبه القصة المسلسلة إذًا، هذه الكادرات تظهر أحداثًا وليست مجرد مشاهد عشوائية.. هكذا فكر (عماد) وهو يعود بلهفة إلى الصالة وعيناه تدوران حوله في حركة سريعة متوترة، رفع الكاميرا ليلتقط "كادرًا" آخر، ظهر فيه رجل وفتاة يتعانقان و.. تلك الفتاة، إنها نفس الفتاة التي كانت تظهر في غرفة التصوير بدلًا من الزبونة!

فجأة طرأت فكرة في عقل (عماد) إثر تذكُّره لموضوع الزبونة، فكرة جعلته يسرع إلى غرفة التصوير ويلتقط حقيبة جلدية صغيرة على مقاس الكاميرا ليضعها بداخلها ويعلّقها على كتفه ثم يخرج منها ويسرع مرة أخرى نحو باب الشقة ليفتحه ويغلقه خلفه بسرعة وعنفٍ وهو يخرج راكضًا.

***

- (عماد)!

قالتها (سارة) بابتسامة واسعة وقليل من الدهشة وهي تنظر إلى (عماد) الذي وقف على باب مكتبها في الجريدة بوجهٍ شاردٍ زائغِ العينين وأنفاس لاهثة.

كان المكتب عبارة عن غرفة متوسطة تحوي ثلاثة مكاتب من ضمنها مكتب (سارة) بالإضافة إلى مكتبين إضافيين لزميلين آخرين بدت على وجههما الدهشة أيضًا وهما ينهضان مبتسمين لتحية (عماد) الذي صافحهما بشرودٍ وهو يهز رأسه لهما في صمتٍ بابتسامة سريعة قبل أن يتجه بلهفة إلى مكتب (سارة) التي راحت تمرر يدها بسرعة على شعرها لتضبطه وهي تقول:

- إيه المفاجأة الحلوة دي، ليه ما قلتليش إنك جاي؟

- أصلك آآ.. وحشتيني فقلت آجي.. أشوفك.

نظرت بحيرة وقلق إلى وجهه الشاحب وعينيه الزائغتين وصدره الذي ما يزال يعلو ويهبط بقوة وإن خَفَّ لهاثه قليلًا، ثم أشارت إليه ليجلس وهي تقول:

- طب اقعد ارتاح يا حبيبي وانا هجيبلك شاي دلوقـ...

- لأ لأ مش عايز.

قاطعها بسرعة بعبارته فتعجبت أكثر من طريقته في الرد وقالت ببطء وهي تتأمله بحيرة ودهشة:

- طب اقعد طيب.

- لأ مش وقته.. بعدين بعدين.

بقلقٍ وتساؤل نظرت له وهي تقول:

- مالك يا (عماد)؟ إات كويس؟؟

- ما تيجي نتصور.

قالها فجأة كأنه لم يسمع سؤالها.. اتسعت عيناها وكادت الدهشة تقفز من وجهها وهي تقول باستغراب:

- نتصورا دلوقتي!!

بابتسامة باهتة مصطنعة أنزل حقيبة الكاميرا من على كتفه وأخرجها منها وهو يقول:

- آه، أنا وانتِ، أنا معايا الكامير أهو.

أتبع عبارته بأن اتجه نحوها ووقف بجوارها وهي ما تزال مندهشة مطلقة ضحكة قصيرة:

- إشمعنى يعني؟

لم يجبها، ولكنه اقترب منها بجسده وهو يرفع الكاميرا لتواجههما أمام أعين زميلي (سارة) اللذين تبادلا النظر باندهاش خفيف وإن أخفياه متظاهرين بعدم النظر إليهما مباشرة. لم يعرهما (عماد) أي انتباه وهو يضغط زر الكاميرا ليلتقط الصورة قبل أن يبتعد عنها قليلًا مقربًا الكاميرا من عينيه بلهفة وهو يعود ليضغط أزرارها كي تعرض آخر صورة تم التقاطها.

- خير؟

قالتها بفضول وتساؤل وهي تنظر له باستغرابٍ شديدٍ فلم يجبها، كان عقله وعيناه معلقين بالصورة المعروضة أمامه، الصورة التي يظهر فيها هو و(سارة) بطريقة طبيعية تمامًا، بنفس الخلفية ونفس الزاوية التي تم التقاط الصورة بها. رفع عينيه أمامه في شرود قبل أن يتجه نحو باب المكتب قائلًا:

- سلام دلوقت.

- سلام! استنى يا (عماد).

قالتها بدهشة وهي تسرع لتقف أمامه وتقطع طريقه قبل أن تعود لتقول:

- فيه إيه؟؟

لم يتمكن زميلا (سارة) من إبعاد أعينهما عن المشهد في انتظار إجابة (عماد) الذي قال باقتضابٍ:

- مفيش.

- مفيش ازاي! إنت شكلك غريب أصلًا من أول ما دخلت، وبعدين.. إنت بجد جيت هنا بس عشان نتصور الصورة دي وتمشي؟؟"

- آه.. عادي يا (سارة)، عن إذنك دلوقتي وهكلمك بالليل.

قالها (عماد) بسرعة وهو يدور حول (سارة) ويتجه نحو باب المكتب ليخرج أمام عينيها المتسعتين اللتين راحتا تتابعانه وهو يحدّث نفسه بصوتٍ غير مسموع ويهرول في الرواق حتى ينحني عند المنعطف المؤدي إلى السلم ويختفي.

***

- المشكلة مش في الكاميرا.

هبط (عماد) من سيارة أجرة على بعد أمتار قليلة من العمارة التي يسكن بها ومضى يسير بشرود نحوها حين قال تلك العبارة محدثًا نفسه. وصل (عماد) بعد حوالي نصف دقيقة من السير الحثيث ودلف إلى المدخل وهو ينظر يمينًا ويسارًا باحثًا بعينيه عن غرفة البواب حتى وجدها فطرق على بابها المغلق بلهفة.

- خير يا بيه؟؟ تحت أمرك.

قالها الحارس وهو يفتح الباب بشيء من الملل فسأله (عماد) بلهفة:

- قل لي الشقة اللي انا قاعد فيها مين كان ساكنها قبلي.

تعجب البواب قليلًا من السؤال لكنه أجاب قائلًا:

- واحد مصور زي حضرتك كدة. كان قاعد فيها زمان أوي هو واخوه الصغير.

- محدش سكن قريب؟

صمت الحارس قليلًا وهو يُجِيل النظر في (عماد) قبل أن يقول بتساؤل:

- بتسأل ليه يا بيه؟ هي الشقة مضايقاك في حاجة؟"

أخرج (عماد) من جيبه مبلغًا من المال وهو يقول:

- طب افتكر بس مين كان ساكن قريب في الشقة. لأني ممكن أدور على أسماءهم لوحدي.

لم يأخذ البواب النقود ولم يتكلم حتى وضع (عماد) المبلغ في يده فظلّ صامتًا مترددًا لعدة ثوانٍ أخرى قبل أن يقول:

- من كام سنة كان فيه تلات شباب سكنوا فيها، وبعد كام يوم من سكنهم واحد منهم قتل الاتنين التانيين.

اتسعت عيناه قليلًا وهو يتذكر إحدى الصور التي التقطها داخل الشقة

- ومين تاني؟"

- من سنتين كان راجل ومراته، والراجل قتل مراته بعد ما شك انها بتخونه.

هذه المرة تمكن (عماد) من مداراة اتساع عينيه ولم يظهر من وجهه سوى الجمود. بلا حديث ترك البواب المندهش واتجه نحو السلم ليصعد خطواته مفكرًا بصمت حتى وصل إلى الطابق الثالث حيث تقع الشقة.

اتجه نحو الباب وفتحه ليدخل ويغلقه خلفه بهدوء ثم اتجه نحو أحد مقاعد الأنتريه في الصالة وجلس عليه وعقله يئن من شدة التفكير. خفض رأسه وهو يراجع الأحداث السابقة في ذهنه مشهدًا مشهدًا ولكن بصورة عكسية. الصور تتلاحق في عقله والعبارات والجمل تعيد نفسها في أذنيه ومشهد الرجل الذي وقف أمامه في الحلم يعود مرة لخياله. وكأنه يراه أمامه مرة ثانية .. شهق وهو يدقق فيما يراه..

نفس الرجل يقف الآن مرة ثانية أمام (عماد) الذي انفتح فمه تلقائيًا لا ليصرخ وإنما لعجزه عن السيطرة على عضلات فكه الذي ارتجف بالتزامن مع إحساس البرودة في أنامله. كأنه يقبض على مكعبات من الثلج. ظلّ ينظر في عين (عماد) دون أن يتحرك أو يتكلم. الغريب أن هناك لمحة من الحزن تشع من عينيه. لمحة التقطها (عماد) لكنها بدت له وقتها غير ذات قيمة على الإطلاق. ارتجفت شفتا (عماد) بقوة أكبر وهو

يتطلع إلى السواد الغائر أسفل عيني الرجل. إلى الدماء الجافة على قميصه وتلك التي لا تزال تسيل من جرح عنقه.

فجأة، تحرك الرجل من مكانه ليسير بخطوات بطيئة نحو غرفة النوم الرئيسية ويختفي بداخلها. ظلَّ (عماد) جالسًا في مكانه لا يدري ماذا يفعل. ظلَّ صامتًا ثابتًا حتى سمع صوت صرير يبدو كما لو كان صادرًا عن فتح باب أو ضلفة.

بصدرٍ راح يعلو ويهبط بعنفٍ فيما يشبه اللهاث، نهض من مجلسه على ساقين مرتجفتين وأذناه تطنان بشكلٍ غريبٍ، سار بخطوات مترددة نحو غرفة النوم الرئيسية حتى وصل عند بابها لِيُجِيْلَ بصره بداخلها بسرعة وخوفٍ دون أن يدخل. كانت الغرفة خالية تمامًا. لكن ضلفة الدولاب اليسرى مفتوحة عن آخرها كأنها تدعوه كي ينظر بداخلها. وفجأة، تذكر (عماد)..

***

لم يفعل الرجل سوى أن أدار يده ليشير بها نحو الدولاب أمام عيني (عماد) المتسعتين.

***

قبل أن تخطو قدمه خطوة واحدة نحو الغرفة، التقطت عينه من داخلها مشهدًا لضلفة الدولاب اليسرى وهي تنفتح من تلقاء نفسها بهدوء.

***

إنها المرة الثانية، المرة الثانية التي يرى فيها ذلك الرجل، والمرة الثانية أيضًا التي تنفتح فيها هذه الضلفة وحدها، لو كان يحلم في المرة الأولى فهو بالتأكيد ليس نائمًا الآن، نعم، لقد فهم، ربما لم يفهم كل شيء ولكنه فهم هذا الجزء على الأقل، ذلك الرجل يريده أن ينظر داخل تلك الضلفة لأن هناك شيئًا ما يتعلق به حتمًا.

دخلَ (عماد) الغرفة يتنازعه الخوف والفضول وهو ينظر حوله بقلقٍ ويتجه نحو ضلفة الدولاب ليتفحص أرففها حتى عثر على مجموعة من الصور والأوراق والجرائد المقصوصة فأخذها وجلس على الفراش ثم قام بفردها جميعًا أمامه، بدأ كعادته بتنظيم كل شيء فقسّم ما أمامه إلى ثلاث مجموعات: صور، أوراق، أقصوصات جرائد. التقط إحدى صور الفتيات القديمة وتأملها قليلًا ثم قلبها ليقرأ الإسم المطبوع على الظهر وأسفله عنوان الشقة قبل أن يرفع عينيه قليلًا ليقول مُحَدِّثًا نفسه بشرود:

- استوديو (منصور).. أكيد انت المصور اللي كان ساكن هنا زمان.. بس يا ترى انت الراجل المدبوح اللي بيظهر لي كل شوية؟

قَلَّبَ (عماد) في الصور قليلًا فوجدها جميعًا تمثل لقطات مختلفة لفتيات جميلات، أثناء تقليبه لفت نظره مقالًا في إحدى الجرائد المقصوصة على خبرٍ معيَّن أُلحِقَت به صورة فتاة، كانت صورة الفتاة في الجريدة هي نفس الصورة الفوتوغرافية التي يمسكها بين يديه، أمسك (عماد) بأقصوصة الجريدة بيسراه وقرَّبها من وجهها ليقارنها بالصورة الأصلية في يمناه، نعم، إنها نفس الفتاة بلا شك.

الخبر المكتوب غريب:

(البوليس المصري يتوصل لشخصية جثة فتاة روض الفرج .. أهل هدى التي اختفت منذ أيام تعرفوا على جثتها التي وجدها البوليس بلا رأس)

اتسعت عيناه وهو يجري بهما على تفاصيل الخبر، عن جثة الفتاة التي وجدوها منذ يومين بشاطيء النيل بالقرب من روض الفرج مقطوعة الرأس بلا ملابس، ولم تتحلل كبقية الجثث التي وجدوها بأماكن متفرقة في القاهرة لفتيات بلا رؤوس، هذه هي الجثة الأولى التي اهتدوا لها وتعرف عليها أهلها من خلال حرق قديم في ظهر المجني عليها.

هنا بدأ (عماد) بفرد الصور جميعًا الواحدة بجانب الأخرى على الفراش ثم فعل المثل مع أقصوصات الجرائد، وراحت عيناه تنتقل بين المجموعتين بتمعن.

معظم الأخبار تتحدث عن عثور البوليس المصري على جثث فتيات بلا رأس وقد أصابها التعفن الرمي، فحتى ملامح الجسد اختفت معظمها، لكن إحدى الأخبار أكدت أنهم تعرفوا على جثة جديدة لفتاه تدعى (ليلى) وصورتها قد نشرت في نفس الخبر..

بحث في الصور الفوتوغرافية حتى وجد صورتها، نفس الصورة المنشورة بالجريدة! في النهاية رفع عينيه قليلًا وهو يفكر قبل أن يحادث نفسه قائلًا:

- الداخلية لما بتنشر صورة شخصية لمفقود أو قتيل في الغالب بتطلب آخر صورة حديثه ليه، والبنتين دول آخر صورة اتصوروها هي نفس الصور دي

قَلَب الصور الفوتوغرافية ليجد عبارة (استوديو منصور) مطبوعة عليهما .. فكر في نفسه ماذا لو أن كل القتيلات كانت آخر صورة لهن في هذا الاستوديو، هل هذا يعني أنه ...

فجأة قطع حبل أفكاره صوت انتفض له مفزوعًا في البداية قبل أن يدرك أنه مجرد طرقات على باب الشقة، أخذ نفسًا عميقًا ليسيطر على أعصابه قبل أن يعيد كل ما أخرجه من الدولاب لموضعه ثانية بدون تنظيم، ويخرج من الغرفة ليتجه نحو باب الشقة ويفتحه ليجد (سارة) تقف خلفه وتبتسم له بحنانٍ، أفسح لها الطريق في صمت فدخلت وأغلق الباب خلفها في حين التفتت هي له وتقول بقلق:

- مالك يا (عماد)؟ جيت لي فجأة الجرنال ومشيت فجأة برضو بعد ما اتصورنا، ودلوقت شكلك مخضوض.

بصمتٍ اتجه نحو الأريكة ليجلس عليها فذهبت (سارة) وجلست بجواره ثم ربتت على كتفه برفق وهي تقول:

- مش عايز تحكيلي يا حبيبي؟؟

نظر إليها طويلًا مُتَفَرِّسًا في ملامحها بصمتٍ، لا، لن تفهم لو حكى لها، بل ولن تصدق أصلًا، لا هي ولا أي شخص آخر.

- مش هتصدقيني لو اتكلمت.

- طب جرب واحكي، قل لي.. متضايق من شغلك الجديد ؟؟

عاد إلى صمته لبرهة قصيرة وقد بدا التردد واضحًا على وجهه قبل أن يقول:

- لو حكيتلك إني كل ما آخد لقطة في الشقة دي ألاقي فيها صورة واحد ميت هتصدقيني !!!

جاوبته بصمتٍ ووجه جامد من وقع الصدمة قبل أن تنظر في وجهه بتمعُنٍ وهي تقول ببطء:

- مش فاهمة.

لم يَلُمْهَا على ردة فعلها فهو نفسه لم يكن ليصدق ما يقوله لولا أن الكلمات تخرج من فمه هو، أخذ نفسًا قصيرًا حاول تهدئة نفسه به قبل أن يقول شارحًا:

- النهارده أول يوم أصوَّر حد فيه، ولما جيت أصوَّر الزبونة لقيت في الكاميرا صورة واحدة تانية مكانها، جربت وصورت صور كتير في الشقة وكل صورة أصورها تطلع لحد ميت، أو جثث ناس كانوا عايشين في الشقة واتقتلوا.

طالت فترة صمتها هذه المرة وهي تتطلع في وجهه بذهول، ما هذا الذي يقوله! كانت الفكرة تتكون في رأسها ببطءٍ، لابد وأن (عماد) قد أصابته عقدة أو مرضٌ نفسيٌّ، ما نتيجة لما حدث في الجريدة وما ترتب عليه من طرده، نعم، أكيد.

أو ربما نتيجة لكثرة تعامله مع الجثث وتواجده في أماكن الحوادث، دارت تلك الأفكار بخُلدِها لكن لم تُظْهِر منها شيئًا كي لا تجرحه، ورغم أنه

بدا مجنونًا في نظرها إلا أنها حاولت أن تضع في صوتها وحركاتها أكبر قدر ممكن من الرفق والهدوء وهي تقول:

- (عماد).. مش ممكن تكون متضايق شوية إنك سيبت شغلك في الجرنال علشان كده نفسك ترجع تصور في الحوادث تاني"

أغمض عينيه وزفر بضيق وملل وهو يقول:

- عارف إنك مش هتصدقيني.

- طب إيه رأيك لو تسيبك من التصوير في الاستوديو وانا ما أروحش الجرنال يومين ونخرج فيهم مع بعض علشان تغير جو.

قالتها بابتسامة واسعة لكنها فوجئت بنبرته الغاضبة وهو يقول:

- بقولك ناس ماتوا وباصورهم وتقوليلي نخرج مع بعض!

أجفلت وذابت ابتسامتها حرجًا قبل أن تقول بخفوت:

- طب اهدى يا حبيبي. اللي انت عايزه نعمله.

بنفاذ صبر قال:

- بعد إذنك يا (سارة) عايز أقعد لوحدي دلوقتي وبالليل هكلمك أو اقابلك.

- بس انا مش عايزة أمشي واسيبك، إحكيلي وانا هصدقك.

- أنا قلت مش هتصدقيني وفعلًا ما صدقتينيش.

قالها وهو ينهض ويقتادها حتى الباب ثم يضيف:

- عارف إنك هتقولي عليًا مجنون، بس صدقيني النهاردة بالليل هثبتلك هوريكي الدليل.

ربتت (سارة) على كفه بتعاطف وهي تقول:

- أنا معاك ما تخافش.. هستنى تكلمني بالليل.

أومأ (عماد) لها رأسه بآلية وهو يفتح الباب فخرجت ثم استدارت لتنظر له بحنانٍ قبل أن تتجه إلى السلم في حين أغلق هو الباب خلفها بهدوء.

***

- إيه ده؟؟

كانت الصور والأقصوصات التي رتبها (عماد) على السرير قد انزاحت ووُضِعَ مكانها ورقتان مُصْفَرَّتَان كُتب عليهما بحبرٍ بهت لونه قليلًا، مما دفعه إلى إطلاق تلك الصيحة الاستنكارية وهو يدور بعينيه في الغرفة بقلق، ورغم خوفه إلا أنه التقط إحدى الورقتين بحذرٍ ورفعها أمام عينيه ثم جلس على الفراش يقرأ:

(لماذا يا (سعيد)، كل ما أفعله أنني ألتقط صورًا للناس، رجالًا ونساءً، ولكني أهتم بالنساء أكثر. أرى الخيانة في أعينهن كما رأيتها في عين أمي، لذلك أحتفظ بصور الخائنات..)

***

رفع (عماد) عينيه عن الورقة وقد بدت عليه معالم الفهم وهو يقول:

- (منصور) أمه كانت خاينة علشان كده كان بيقتل البنات اللي بيصورهم لأنهم خاينين.. بس القصة فيها حاجات ناقصة، أنا محتاج أعرف حاجات كتير.

***

في نفس اللحظة فتحت (سارة) باب سيارتها الزرقاء الصغيرة، دخلت لتجلس بداخلها ثم أغلقت الباب بصمتٍ دون أن تنطلق بها أو تدير المحرك حتى.

ظلت على تلك الحالة لعدة دقائق، يداها على المقود، عيناها تنظران إلى لا شيء، وعقلها منشغل بـ (عماد)، هو في مصيبة حتى وإن كانت لا تعرف ما هي، وحتى وإن كانت لا تجد لها حلًا، ولكنها ستحاول على كل حال.

فتحت حقيبتها وأخرجت هاتفها المحمول ثم طلبت رقمًا معينًا وراحت تنصت إلى الرنين في انتظار الإجابة لتقول:

- ألو.. ازيك يا (نورا)، عاملة إيه؟

جاءها صوت صديقتها على التليفون وهي تقول:

- أنا كويسة الحمد لله. ازيك انتي يا بت؟؟ بقالك شهرين مختفية وما بتسأليش، ده انا كنت عايزة أوريكي الـ.

قاطعتها (سارة) بجدية قائلة:

- معلش يا (نورا) محتاجاكي في موضوع مهم أوي.

التقطت (نورا) نبرة القلق في صوت صديقتها فأسرعت تقول:

- خير؟؟

- مش (عصام) جوزك دكتور نفسي برضه؟؟

- آه.. بتسألي ليه؟

- هو جنبك دلوقتي؟؟ أصلي محتاجاه في استشارة نفسية بسرعة لواحد زميلي.

- طب ثواني أندهلك عليه.

مرت فترة قصيرة من الصمت سمعت بعدها (سارة) صوت (عصام) زوج (نورا) وهو يقول باهتمام:

- ألو، ازيك يا (سارة)، خير يا ماما دي (نورا) قلقتني.

ظهر القليل من الارتباك في صوت (سارة) التي حاولت إخفاؤه وهي تقول:

- لأ ما تقلقش ولا حاجة يا (عصام)، ده بس فيه زميل ليا في الجرنال ليه حكاية عايزة احكيلك عليها وتقولي رأيك وهل هيحتاج لعلاج نفسي ولا لأ؟

- أنا سامعك.

- زميلي ده كان شغال مصور في الجرنال معايا، بس مشكلته إنه عمره ما كان واثق من نفسه في التصوير، لدرجة إنه طلب يدخل قسم الحوادث علشان محدش يهتم أو يعلق على صوره، ولظروف خاصة

اترفد من الجرنال، لكنه كان حاسس إنه اترفد علشان ما بيعرفش يصور. قرر من يومين إنه يفتح استوديو تصوير خاص ويهرب من شغل الجرايد، لكنه بدأ يقول كلام غريب.

***

رغم الخوف الذي يتملكه من الداخل إلا أن الموضوع تحول مع (عماد) إلى نوع من العناد جعله يُصِرُّ على معرفة ما حدث في الشقة لذا اندفع إلى غرفة التصوير وبحث بين حاجياته حتى يعثر على كاميرا ديجيتال صغيرة شَغَّلَهَا على وضع تصوير الفيديو المستمر ثم قال:

- أنا هعرف اللي كان بيحصل هنا زمان. هحل أم اللغز ده.

وبروح المصور الصحفي التي تلبَّسته وجعلته ينسى خوفه قليلًا، أمسك بالكاميرا ورفعها ليوجهها نحو مقعد التصوير ليرى من خلال الشاشة الصغيرة تلك الفتاة ذات العينين الخضراوين تجلس على المقعد وتبتسم. يدخل الكادر معها رجل وسيم طويل القامة ويقف أمامها. يضع يده عند ذقنها ويرفع رأسها لأعلى قليلًا فترفع هي عينيها إليه بخجلٍ. دار (عماد) بالكاميرا في أنحاء الغرفة الخالية فظهرت على الشاشة بتفاصيلها القديمة. فجأة أجفل (عماد) حين رأى شابًا آخر له ملامح طيبة مريحة يقف على باب الغرفة وينظر إلى مشهد الفتاة والرجل الوسيم أمامها. أين رأى هذا الشاب!! يشعر بأنه يعرفه بشكل أو بآخر.

ورغم أن تلك المشاهد تُعرض على شاشة الكاميرا فقط. ورغم خلو الغرفة فعليًا أمامه. إلا أن (عماد) تمتم لنفسه بدهشة كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- المصور هو (منصور) اللي بيقتل البنات الخاينة في نظره، يا ترى انت مين بقى؟؟ (سعيد) أخوه؟؟

***

قالت (سارة):

- بدأ يقول إنه بيصور الناس بكاميرته، ولما يبص على الصورة بيلاقيهم ميتين أو جثث، وأظن إنه بيقول إنه صوَّر جثث أو حاجة زي كدة، وواثق في كلامه ومعندوش أي نية إنه يصدق العكس.

***

خرج (عماد) من غرفة التصوير إلى الصالة والكاميرا لا تزال في يده، رأى على الشاشة (سيد) وهو يحمل السكين ويدخل المطبخ فتبعه ليراه وهو يطعن (أمجد) في ظهره ليسقط (أمجد) قتيلًا بجوار جثة (صادق)، ورغم رؤيته لتلك الجريمة على هيئة صور ثابتة من قبل إلا أن رؤيتها تتكرر فعليًا أمامه جعلت أمعاءه تتقلص وعينيه تتسعان وتخرجان عن مجال الشاشة كل آنٍ وآخر، كأنه يريد أن يثبت لنفسه أن كل هذا غير حقيقي.

تراجع (عماد) خارج المطبخ فرأى المشهد في زاوية أوسع، رأى رجلًا يقف موليًا ظهره إليه ينظر إلى مشهد القتل بهدوء، يرتدي قميصًا وسروالًا وحمالة للسروال كأنه من عصرٍ آخر، فجأة التفت الرجل لعماد، أجفل (عماد) وتراجع للخلف فاختفى الرجل من كادر التصوير وبقى مشهد الشباب داخل المطبخ.

***

بعد أن انتهت (سارة) من سرد القصة لـ (عصام) بدأ هو في إخبارها بتحليله قائلًا:

- الأول يا (سارة) لازم اشوفه واتكلم معاه، علشان أقدر احدد تشخيصي ليه أكتر، لكن الموضوع باختصار إن المصور ده فقد الثقة في نفسه من زمان، وعند مرحلة طرده أصبح عقله الباطن مهمته كلها إنه يثبت له فشله في التصوير أو في أي بداية جديدة في حياته.

***

دار (عماد) بالكاميرا ليواجه غرفة النوم الرئيسية فرأى على الشاشة الشاب ذا الوجه الطيب الذي كان يقف بعيدًا عن المصور في غرفة التصوير، واقفًا على بابها وهو يصيح بلا صوت في المصور الذي استنتج أنه (منصور) الواقف أمامه، يصيح (منصور) بلا صوت أيضًا في الشاب ثم يمسكه من ملابسه ويدفعه بقوة حتى اصطدم ظهره بالحائط، اتسعت عينا (عماد) أكثر وهو يقول:

- هو.. هو (منصور) قتل ده كمان؟؟

***

أضاف (عصام):

- وواضح إن عقله نجح في إثبات الفشل ده، وأصيب زميلك ببدايات فصام، الفصام ممكن يخليه يسمع أو يشوف حاجات مش موجودة، وهو بدأ يشوف في الصور أموات، كأنه دليل على إنه مهما حاول يصوّر

الأحياء هيفشل وهيتحولوا لأموات، وللأسف ممكن بسبب الفصام يصاب باكتئاب في مرحلة متقدمة.

***

تابع (عماد) الشجار الدائر على الشاشة أمامه بين (منصور) والشاب بقلق وتركيز كأنه يرى مشهدًا حقيقيًا و.. فجأة، يدخل الكادر أمامه، وعلى بعد متر واحد فقط، شخص آخر، لكن هذا الشخص لا يُحَادِثُ أحدًا ولا يتشاجر مع أحد كالباقين، هذا الشخص ينظر إلى (عماد)، إلى عينيه مباشرة، هذا الشخص هو نفسه ذلك الرجل النحيل المذبوح الذي ظهر له من قبل.

نظر (عماد) إلى الشاشة منتظرًا أن يختفي هذا الرجل وهو يحدث نفسه:

- (منصور).. (منصور) قتلك أنت كمان؟ بس ليه؟؟

نظر لخارج شاشة الكاميرا فوجد الرجل يقف فعليًا أمامه ثم يخطو بهدوء ناحيته وهو يشير بيده اليسرى نحو الطُرقَة المؤدية للحمام، انتفض (عماد) بعنفٍ وهو يتراجع بفزع حتى اصطدم بحافة النافذة المفتوحة بظهرة بقوة وسرعة وانقلب منها.

***

- وممكن ينتحر.

لم تدرِ (سارة) في البداية مصدر تلك الصرخة التي جاءت متزامنة تمامًا مع عبارة (عصام) الأخيرة، لكن تلك الصرخة لم تَطُل كثيرًا إذ سرعان ما تبعها صوت ارتطام عنيف بسقف السيارة جعلها ترتج بقوة.

- (سارة).. (سارة) أنا سامع عندك أصوات عالية وناس بتصرخ، هو فيه إيه؟

لم تجد (سارة) وقتًا لإجابة (عصام) وهي تسرع بالخروج من سيارتها لترى ذلك الذي ارتطم بالسقف وسط تجمهر كبير من المارة، ظلت تنظر له طويلًا بلا حراك أو كلام، عيناها معلقتين بالقميص الذي أهدته له في عيد ميلاده منذ شهرين، القميص الذي كان يرتديه عندما جاءها إلى الجريدة اليوم، وعندما قابلها في الشقة منذ قليل، القميص الذي راح ينصبغ تدريجيًا بلون دمائه. تعالت بعض صرخات النساء وبعض الشهقات من المارة ولكنها لم تتحرك، حتى صوت (عصام) في الهاتف بدا بعيدًا غريبًا صعب الفهم، كل شيء تحول إلى لا شيء وهي تترك الهاتف من يدها وتسقط وقد تحول المشهد أمامها إلى سواد تام.

- ألو.. ألووو.. (سارة) إيه اللي حصل؟؟ (سارة).. ساااااارة.

***

الحكاية الأولى

عام 1951- القاهرة

تغيّرت صالة الشقة قليلًا، صار هناك مكتب خشبي صغير خلفه مقعد وأمامه اثنان، وفوقه توجد مزهرية ممتلئة بالزهور وبضعة أظرف صفراء وأوراق منمقة وقلم.

انفتح باب الشقة على الصالة الخالية ليدخل إليها (سعيد) مرتديًا بدلة كاملة وطربوش ويحمل بيده حقيبة سفر صغيرة فقد صار في الحادية والعشرين من عمره الآن.

خطا لداخل الصالة ونظر إلى المكتب بدهشة في البداية سرعان ما تحولت إلى نصف ابتسامة حين خرج عليه (منصور) من الحمام مرتديًا قميصًا وبنطالًا فوقهما مريلة بيضاء وقفاز من البلاستيك في يديه تلوث بالدماء، كبر هو الآخر وصار على مشارف الرابعة والعشرين، ما إن رآه (سعيد) حتى قال وهو يشير إليه:

- إنت بتحنط من ورايا يا (منصور)

- حمد لله على السلامة، تعالى بسرعة أنا لسه في البداية بعمل حاجة هتعجبك أوي، طريقة جديدة

جرى (سعيد) لغرفة النوم وخلع بدلته بسرعة وهو يرتدي ملابس المنزل ثم فتح الدولاب ليحضر مريلته الخاصة وقفازاته وارتداهما بسرعة وهو يجري ناحية الحمام.

-البس الكمامة اللي عندك علشان الريحة

وضع (سعيد) يده داخل جيب المريلة الأمامي وسحب الكمامة البيضاء ليضعها على فمه وهو يقول:

-إيه الريحة التقيلة دي انت مستحملها ازاي ؟

تقدم لداخل الحمام و(منصور) يجلس على مقعد بجانب حوض الاستحمام يمسك بيده رأس ثعلب فتح مؤخرتها وأخذ يسحب بملعقة شيئًا ما من الجمجمة بتركيز وهو يقول:

-اتعودت على الريحة، أنا بقالي 3 أيام مركز مع الراس دي

-اوعى تكون عَفِنِت

قالها (سعيد) وهو يقرب رأسه من رأس الثعلب ويتأملها باستغراب، فنظر له (منصور) بوجهه المتجهم وهو يقول بنبرة حملت الكثير من الفخر:

-إيه رأيك ؟

-مين اللي جابلك الراس دي ؟

-(ابراهيم التوني) وهو بيزور قرايبه في المنيا طلع عليهم التعلب ده فضربوه بالنار، أخد هو الراس وجابهالي يومها بليل، البكتيريا ما لحقتش تعفنها الحمد لله .. طلب فيها 60 قرش

-وانت طبعًا دفعتله على طول

وضع (منصور) رأس الثعلب بيد (سعيد) وهو يقول:

-تستاهل .. شوف بنفسك

تفحص (سعيد) الرأس بتركيز لثوانٍ .. قبل أن تتسع عينيه وينظر لمنصور وهو يقول:

-انت سايب العنين في مكانهم إزاي ؟

كانت قرنية الثعلب ذابلة تميل للون الرمادي ولسانه نفس لون العينيين وقد تحول لشريحة رقيقة

-وكمان اللسان .. انت اتجننت، كده هيعفن

قالها (سعيد) وهو ينظر لمؤخرة عنق الثعلب بينما (منصور) ينهض من موضعه وهو يقول:

-بس الراس بقالها 3 أيام وما عفنتش .. ومش هتعفن

-ازاي !!

-فاكر خالك الله يرحمه علمنا ازاي نحنط الراس بالذات

-أه طبعًا، نسلخ الراس بالمشرط وننضف الجمجمة من جوه من اللحمة والمخ واللسان والعنين وأي دهون نشوفها، وبعد ما نغسل الراس كويس نحط القرنفل والملح جوه الجمجمة وبينها وبين الجلد، ونعوض بعد كده بالخيش والقطن مكان اللحمة، ونحشي الراس بعينين إزاز ونثبتها بالسلك والخشب

-الله ينور عليك

جلس (سعيد) على المقعد الخالي وهو مازال يحمل الرأس بينما جلس (منصور) على طرف الحوض وهو يضع قدمًا فوق الأخرى ويقول:

-من ساعة ما سافرت انت تبع شغلك في البنك وأنا بقلب موضوع التحنيط ده في دماغي .. زهقت من الطريقة القديمة في التحنيط، دايمًا حاسس إنها بتشيل كل حاجة من جثة الحيوان وتسيب الجلد بس واحنا بنعوض العضم ونحشي مكان اللحم على الفاضي .. كأننا في مدبغة .. كل شغلنا على الجلد والشكل من برا، مفيش فرق بينا وبين اللي بيعملوا الجزم والشنط من جلد التعابين والتماسيح

-أمال انت عايز تحنط ازاي ؟

قالها (سعيد) وهو يضع الرأس بحذر في قعر حوض الاستحمام.

- أنا عايز احافظ على كيان الحاجة اللي بحنطها .. عنيها .. لسانها .. لحمها .. حتى لو شيلت منها المخ والأمعاء والكبد وشوية حاجات، أسيب القلب مكانه هو والعضم

- انت عايز تحنط زي الفراعنة ولا إيه

شرد (منصور) وهو ينظر للرأس في الحوض فترة ثم قال ببطء

-مش لازم زي الفراعنة، المهم أحافظ على روح اللي بحنطه.

- انت اتعاملت مع الراس دي ازاي ؟

- بسيطة .. فتحت فتحة صغيرة من ورا وسحبت منها المخ علشان كده كدة هيعفن، بعدها حشيت الجمجمة بالملح وغطيتها كلها بيه .. سيبتها لحد ما صَفِّت كل المية اللي فيها و..

قاطعه (سعيد) وهو يقول:

-نفس طريقة الفراعنة بالظبط. بيسحبوا المخ من فتحة المناخير ويحشوا الراس بالملح. بس انت سيبت اللسان والعنينين ليه. ممكن البكتريا تتفاعل فيهم

- مش هتتفاعل .. طالما اتصفوا من المية يبقى تمام. مش مشكلة يبقى شكلهم دبلان كدة. المهم يفضلوا في مكانهم زي ما كانوا قبل كدة

نهض (منصور) ليخرج من الحمام بينما (سعيد) يقول:

-رايح فين ؟

لم يُجبْهُ وهو يدخل المطبخ ويرفع حلة وضعت على الباجور ثم يحضرها للحمام ويضعها على الأرض بجانب (سعيد)

-إيه ده ؟

- خل ودقيق وسكر ومية و...

قاطعه (سعيد):

-انت هتطبخ ؟

- لا ده صمغ فيه صفات الغرا .. يعني صمغ شفاف ولا مؤاخذة

- انت هتلزق بيه إيه ؟ انت مش قلت مش هتعوض جوا الراس زي التحنيط العادي

قالها (سعيد) وهو يتناول الرأس مرة أخرى فرد (منصور):

-هدَخَّل الصمغ جوه الجمجمة ولحمها. علشان ما يبقاش فيه مجال إنها تتعفن. وادهن بيه اللسان والعينين. و..

قاطعه (سعيد) :

-إيه ده انت لازق بق التعلب على وضع مُعَيَّن

-ما هو ده اللي كنت هقولهولك، أنا بَشَكِّل عضلات الوش على الحاجة اللي أنا عايزها واحقنها بالصمغ قبل ما ينشف، فتتصلب العضلات على الشكل اللي انا عايزه

- انت حقنت عضلات الفك على وضع غريب

- أيوا علشان أظهر الأنياب

تأمل (سعيد) أسنان الثعلب وأنيابه الظاهرة وقال بدهشة:

-لا يا (منصور).. انت شَكِّلت العضلات وخليت التعلب كأنه بيبتسم

نظر لمنصور مندهشًا وهو يكمل كلماته مبتسمًا:

-لا دا فعلًا مبتسم .. خليت التعلب اللي عمره ما ابتسم يبتسم بعد ما يموت

- أعتقد أإنك ما تقدرش تجبر حد على الابتسام إلا وهو ميت

قالها (منصور) وهو يتناول الرأس من يد (سعيد) الذي اختفت ابتسامته من على وجهه وهو يتطلع لوجه (منصور) الذي انهمك في العمل

***

جلس الشقيقان على منضدة السفرة التي نقلوها لغرفة النوم يتناولان الغداء الذي أعده (منصور) بعدما أكمل عمله على رأس الثعلب.

-فكّرني بعد الغدا يا (منصور) أديك شهادات الاستثمار والأسهم اللي عملتهالك في بنك مصر .. أنا جبتهم معايا

قالها (سعيد) وهو يتناول صدر الدجاجة الموضوعة في طبقه باستمتاع، قطب (منصور) حاجبيه وهو يتوقف عن الأكل قائلًا:

-شهادات إيه اللي عملتهالي ؟

أكمل (سعيد) طعامه وقال بلا أن ينظر لشقيقه:

-فلوس ميراث أبونا اللي استلمناها من شهرين وحق بيع الوكالة والبيت بتاع الجيزة

-مالهم .. ما كل واحد فينا خد نصيبه وعملنا حسابين في البنك بتاعك واحد باسمك وواحد بإسمي

-ما أنا حولت كل فلوس حسابي لشهادات استثمار واشتريت بشوية منهم أسهم في كام شركة تبع البنك، وخليتهم بإسمك

علت نبرة صوت (منصور) بشكل لا شعوري وهو يقول:

-انت اتجننت .. عملت كده ليه؟

توقف (سعيد) عن المضغ وبلع ما تبقى في فمه ثم نظر لشقيقه قائلًا:

-مرتبي من البنك مكفيني وزايد ومش محتاج الفلوس اللي في حسابي في حاجة فقولت أحولهم لشهادات اسـ...

قاطعه (منصور) وهو ينهض:

-وما عملتهومش بإسمك ليه

-اعتبرني بحوشهم معاك يا أخي

-انت بتعمل كده ليه ؟

نهض (سعيد) هو الآخر ناظرًا لعين شقيقه وقال بنبرة خافتة:

-بحاول أشكرك بأي شكل على اللي عملته معايا

- عملت إيه ؟

- مش الرسول بيقول "أنت ومالك لأبيك" .. انت بقى أبونا اللي رباني بعد موت أمنا، حتى أبونا الحقيقي كان خايف يعيش معانا ليكون مصيره زي مصير أمنا

نظر (منصور) لحظتها للأرض وقد هدأ قليلًا و(سعيد) يكمل:

-انت الوحيد اللي كنت جنبي وما سيبتنيش، حتى من قبل ما تموت أمنا. عمري ما وثقت إلا فيك، وعمري ما هقدر أوفي دينك عليا

جلس (منصور) على مقعده وهو يشيح بصره بعيدًا قائلًا:

-برضه لازم فلوسك ترجعلك

- خليهم معاك يمكن تحتاجهم في استوديو التصوير اللي لسه فاتحه

- لأ

- (منصور) .. لو فعلًا عايزني أرتاح خلي الشهادات بإسمك زي ما هي، ولو احتاجتهم هقولك .. وهما يعني هيروحوا فين

رفع (منصور) عينيه ببطء لشقيقه وارتسم شبح ابتسامة على وجهه نادرًا ما يظهر وقال ساخرًا:

-تقصد إنك كده كده هتورثني لأني مش هعرف اتجوز واخلف

***

بعد خمسة أيام.

وقف (سعيد) داخل غرفة النوم يُعَدِّل من هندامه وهو يرتدي أفخم بدلة يمتلكها لأنه سيقابل زملاءه في البنك الليلة في (اكسلسيور) وعلى الأغلب ستتواجد بضعة فتيات فربما استطاع أن يظفر بإحداهن.

أمسك طربوشه وَفَكَّرَ هل يرتديه أم يخرج عاري الرأس كالموضة المنتشرة ؟ .. ألقى الطربوش على الفراش وقد قرر، هنا سمع صوت جرس الباب، بعدها بثوانٍ صوت (منصور) يرحب بشخص ما ويدعوه للدخول.

فتح باب الغرفة وخرج للصالة ليجد فتاة شابة جميلة الوجه أجلسها (منصور) على المقعد المقابل للمكتب وهو يمسك ورقة وقلم. لم تكن الفتاة قد لاحظت (سعيد) حتى الآن. لكن هذا الأخير قال لها مبتسمًا

-سعيدة

-سعيدة مبارك

ردت عليه مبتسمة برقة بينما (منصور) يقول

-ممكن اتشرف باسمك يا مودموازيل

-(ليلى عثمان) .. من فضلك عندك تصوير مية علشان محتاجة الصور بسرعة

- يبقى حضرتك مش عايزانا نتشرف ونشوفك تاني بقى

ربما قالها (منصور) بلا ابتسامة لكن عينيه تركزت بعينيها بشكل جذاب جعلها تسرح لثانية بوجهه حتى انتبهت لنفسها وهي تبتسم وتقول:

-مفيش مشكلة ممكن استلمها أي وقت

نهض وهو يشير لغرفة التصوير ويقول:

-اتفضلي علشان ناخد الصور

سبقته لغرفة التصوير وجلست على المقعد المواجهه للكاميرا. دخل ورائها ووقف أمامها وهو يُعِيدُ خُصلةً من شعرها للوراء بحركة سريعة ويعدل من وضع وجهها .. برغم أنه لمس طرف وجهها بشكل عادي وسريع إلا أن (ليلى) شعرت براحة من لمسات أصابعه وحاولت أن تجعل وجهها أكثر صرامة وهو يحركه يمينًا ويسارًا.

عاد ووقف أمام الكاميرا وهو يحضر مصباح الفلاش ويثبته أعلى الكاميرا. نظر داخل العدسة وهو يقول:

-انتي زعلانة مني في حاجة

-لأ أبدًا

-طب جربي كده تبتسمي

ابتسمت بصدق فانكسر المصباح وهو يغمر الغرفة بضوء الفلاش. اعتدل (منصور) وهو ينظر للكاميرا ويقول:

-أجمل وش لقطته الكاميرا دي

نظر لها فزادت ابتسامتها التي تحولت لخجل فأكمل هو قائلًا:

-ممكن ألقط صورة كمان .. أنا مش ضامن هتيجي تاني ولا لأ، وبصراحة ما أقدرش أفوت الفرصة كده

فلتت منها ضحكة وحمرة الخجل تغزوا خديها أكثر.

-ها موافقة ؟

هزت رأسها بحماس علامة الموافقة

***

1953

إدارة عموم الأمن العام

جلس (سالم البغدادي) وكيل قلم المباحث الجنائية أمام مدير إدارة عموم الأمن العام بمكتبه بالقاهرة، كان (سالم) على معرفة شخصية بالمدير منذ زمن طويل لذلك تباسط معه وهو يقول:

-حلمك عليَّ سيادتك .. الملف اللي قدام معاليك أنا سايبه لسعادتك من يومين، فيه معظم التحقيقات اللي جمعناها من سنة 1951 لحد دلوقت، وسيادتك أكيد بصيت فيه ولقيت إن كلها طرق مسدودة

هرش المدير في رأسه وهو ينظر للملف ويقول:

-شكلك مش عايز تفهمني يا (سالم) .. أنا مصدقك وعارف إن الطرق مسدودة، الملف ده راحت نسخة منه لمندوب مجلس قيادة الثورة زي ما طلب وهو اللي صمم على إن القلم المخصوص يتدخل في التحقيقات

لَوَّحَ (سالم) بيديه بحركة عصبية وصوته يعلو تدريجيًا

-معاليك إيه اللي جاب البوليس السياسي لتحقيقات جنائية، دي جثث بنات بترمي في الشوارع مش اغتيالات سياسية

رد المدير بنبرة حملت بعض الحدة قائلًا:

-افهم بقى يا أخي، ظباط مجلس قيادة الثورة اعتبروا إن عدم حل البوليس المصري لجرائم القتل إحراج سياسي ليهم، بيقولوا إنها مؤامرة علشان تثبت عجزهم عن إدارة البلاد

-ازاي واحنا بنلاقي جثث المجني عليهم من سنتين، هما اتجننوا ولا إيه

-ما تتعبش نافوخي يا (سالم)، اعتبر إن الظابط اللي هيبعتوه من القلم المخصوص علشان يباشر التحقيقات ظابط شرف، لا يحل ولا يربط، بس الأهم إنك تعامله باحترام علشان ما تلاقيش نفسك طالع معاش زي اللي طلعوا الكام شهر اللي فاتوا علشان نافوخهم ناشف زيك

- تلاقي اللي هيبعتوه ده قريب واحد من ظباط الجيش

- لأ بالعكس ده يبقى (موسى عبد العليم المحمدي) ابن معالي اللواء (المحمدي) اللي أسس مكتب المخابرات العام للمخدرات الله يرحمه.. ما انت خدمت معاه في بدايتك

هَشَّ وجه (سالم) وابتسم بصدق وهو يقول:

-بجد .. دا (موسى) دا أنا أعرفه من وهو عيل بكافولة، ألف رحمة على والده، كان مثال مشرف للبوليس المصري

ضحك المدير وهو يقول:

-طب طالما طلعتوا حبايب كده مش كنت تسلم عليه وانت جاي على مكتبي

-ازاي ؟

- ما هو قاعد برا في الاستقبال مستني يخش

نهض (سالم) وهو يقول:

-أرجوك دخله معاليك، عايزه أشوفه وأسلم عليه

ضغط المدير على الجرس بجانبه فأتى عسكري الحراسة، طلب منه أن يبلغ السكرتير بأن يدخل من ينتظره في الخارج .. خرج الحارس وثوان ودخل شاب طويل رفيع الجسد، يزين وجهه الوسيم شارب ضخم أكسبه صرامة وغِلظَة لكنها لم تُغيِّر من وسامته شيئًا.

أدَّى الشاب التحية لهما بأدب فسار (سالم) ناحيته حتى وصل له واحتضنه وهو يقول:

-كبرت ياد يا (موسى) إوعى تكون مش فاكرني

ربت (موسى) على ظهر (سالم) وهو يقول بود:

-شوفت معاليك برا بس خوفت ما تعرفنيش

سحبه (سالم) من يده حتى أجلسه على المقعد المواجه لمكتب المدير وهو يجلس على المقعد الآخر ويقول:

-انت اتخبلت ولا ايه، أنسى اللي أبوه كان أكتر من أخ .. والله يا ابني لما والدك اتوفى كنت في مأمورية مستعجلة في المنيا وما عرفتش أجي العزا لكن بعتت تلغراف

-وصلنا معاليك وزادنا شرف

-أنا شايف إنكم مش محتاجين مني توصية علشان تتعاونوا في القضية

قالها المدير مبتسمًا فتنحنح (موسى) وقال:

-فيه موضوع عايز أقوله وأرجوا إن صدركم يسمح إني أتكلم براحتي

-اتفضل

قالها المدير بلهجة متشككة فتنحنح (موسى) ثانية وقال:

-أنا عارف ملابسات اللي حصل، زي ما مندوب قيادة الثورة ضايقكم، فهو برضه عمل مشكلة كبيرة في القلم المخصوص، مدير القلم ما كانش راضي نتدخل في القضايا الجنائية لكنه صمم وهدد وطبعًا كلنا عارفين إن البلد بقت في حالة حرجة والبوليس المصري مش لازم يعاند مجلس الثورة في الوقت الحالي.

نظر (سالم) للمدير وقد تبادلا نظرات الدهشة بينما (موسى) يكمل:

-إدارة القلم المخصوص بتتمنى إن ما يحصلش أي مشاكل بينها وبين القلم الجنائي، أنا هكون موجود في التحقيقات كمتابع وأسجل ملاحظاتي وأعمل ملف جديد خاص بيا هاقدمه رسميًا لمندوب المجلس لكن طبعًا هتكون نسخة منه تحت أمركم وديًا قبل ما أسلمها ونقدر نتناقش فيها براحتنا.

ابتسم (سالم) وهو يقول بفخر:

-هذا الشبل من ذاك الأسد .. ابن حلال بصحيح وفيك حكمة وأخلاق المرحوم والدك.

هز المدير رأسه برضا وهو يقول:

-كده أنا اتطمنت .. وبقول كده كدة تكتب تقاريرك وملفك من دلوقت بعد ما تطلع على ملف القضية وتسلمه بسرعة علشان نخلص من المشاكل دي

-أنا قريت الملف فعلًا وعندي بعض الملاحظات اللي عايز أعرضها قدام معاليكم

-وماله يا ابني قول

قالها المدير وهز (سالم) رأسه مشجعًا فنهض (موسى) متجهًا إلى الخريطة المعلقة بعرض الحائط عند نهاية المكتب للقاهرة الكبرى، وقف بجانبها وهو يخرج من جيب بدلته الداخلي مفكرة صغيرة وقلم حبر .. فتحها ونظر داخلها وهو يقول:

- مجموع الجثث اللي تم العثور عليها 9 جثث لحد دلوقت، كلهم لبنات ما بين الـ 19 والـ 28 سنة .. الجثث كلها من غير راس ومكان القطع عند الرقبة مكوي بالنار علشان العروق توقف ضخ الدم، تواريخ العثور على الجثث لا تمثل أي رابط، برضه التوقيت والأماكن .. كل الجثث من غير ملابس والتحقيقات رجحت إن الراس بتنقطع علشان يصعب مع اختفاء الملابس التعرف على الضحية .. حطيت نفسي مكان القاتل وسألت نفسي أنا بختار البنات دي بالذات ليه ؟ هل بدافع الاغتصاب مثلًا ؟ طبعًا فيه جثث كانت صاحبتها لسه عذراء وده بينفي الاحتمال ده، طب الكره؟ أو الشرف؟ كلها احتمالات بتصب في نقطة واحدة

أنزل المفكرة عن عينيه وقال:

-لو كان القتل بسبب طبيعي ما كانش هيفصل الراس بالشكل الاحترافي ده ويحتفظ بيها وخصوصًا إن مفيش أيّ بلاغات بالعثور على أي رأس منفردة عن جثة .. إيه اللي هيحصل لو تخلينا عن حذرنا وفكرنا بعقليته، عقلية مريضة نفسيًا بتستمتع بالقتل لمجرد القتل، بتحتفظ براس الضحية لسبب لسه مش فاهمينه.

-تقصد زي سفاح كرموز ؟

قالها المدير فرد (موسى) سريعًا:

-حاجة قريبة منه، لكن السفاح بتاعنا دقيق في عمله وبيفصل الراس عن الجثة باحتراف وبنفس مقاس القطع كل مرة كأنه خبير في التشريح، علشان كده فكرت في البداية إنه دكتور

-دكتور !

-لكن بعد برهة لقيت إن كوي جرح القطع بالنار عمل عنيف ودقيق، يعني محتاج لإيد عندها خبرة في القطع لكنها مش إيد دكتور .

-اعذرني يا (موسى) بس انت كده بتقول مجرد تكهنات

قالها (سالم) فلم يُعِرهُ (موسى) انتباهه وهو يعطيهم ظهره وبالقلم يرسم نقاطًا على خريطة القاهرة وهو ينقلها من مفكرته ويقول:

-لما حطيت نفسي مكان القاتل وفكرت أتخلص من الجثث قولت لو أنا اتخلصت منهم بليل فده احتمال يثير الشك سواء عند حد ممكن يلاحظني أو عند عساكر الدورية في أحياء القاهرة .. الوقت الوحيد اللي ممكن يبعد الشبهات هو بعد الفجر .. عند الشروق .. في البداية استغربت من الأماكن اللي لقينا الجثث فيها، وحسيت إنها عشوائية .. لكن ..

انتهى (موسى) من تحديد 9 نقط على الخريطة ثم نظر لهم وهو يقول:

-مفيش عشوائية في الأماكن

نهض المدير من مقعده واتجه ناحية الخرائط و(سالم) يتبعه، حتى وقفا بالقرب منها، أما (موسى) فرسم خطًا يصل بين التسع نقاط ونظر لهم يقول:

-النقط دي عبارة عن خط سير بتتبعه الأتوبيسات والأوتومبيلات الملاكي .. خط سير رايح في اتجاه واحد بس. القاتل كل مرة بيتبع خط السير ده ويرمي الجثة عند نقطة فيه.

تأمل المدير و(سالم) الخريطة بتركيز قبل أن يقول هذا الأخير:

-عفارم عليك .. كده انت بدأت فعلًا تمسك خيط تبع القضية

-كل اللي بطلبه إني أعيد فتح التحقيق بطريقتي وبمساعدة ظباط المباحث بشكل سري علشان نبعد احتمالية إن القاتل ياخد حذره .. وأول ما أوصل لحاجة قوية واتأكد إن عندي براهين وأدلة حقيقية هاجي لمعاليكم على طول علشان نناقشها

-طلباتك كلها هتكون من اختصاصي

قالها (سالم) فرد (موسى):

-أول حاجة محتاج استجوب تاني كل المدنيين اللي عثروا على الجثث في المواقع دي، حقيقي عدى وقت طويل لكن عندي أمل إني ألاقي خيوط جديدة

عاد المدير لمكتبه وجلس عليه ثم نظر لموسى قائلًا:

-(سالم) هيديك حرية الحركة اللي انت محتاجها، لو أثبتت إن وجودك في القضية دي مفيد مش بس قيادة الثورة هترضى عنك، البوليس المصري كمان مش هينسالك لأنك هترجع هيبته تاني زي زمان.

-أوعد معاليك إن في أقل من شهر القضية هتتقفل

***

رن جرس الباب فذهب (منصور) ليفتحه كما تعود عَلَّهُ يكون زبونًا.

-مش هنا ستوديو (منصور) برضه

تأمل وجه قائلة العبارة .. هل يعرفه ؟ يشبه وجه (أميمة) الطفولي قبل أن ترحل مع والديها منذ أكثر من عشر سنوات بعدما نقل والدها لإحدى

المحافظات وانقطعت أخبارهم.. حتى صوتها يشبهها. لم يجبها فأكملت الفتاة:

-وحشتني يا (منصور)

انفتح فمه دهشة وتراجع خطوة للوراء وهو يبتسم بلا إرادة منه.

***

الحكاية الخامسة

مستشفى Nightingale بلندن

سار هذا الرجل الوقور الذي تعدى الخمسين داخل أروقة المستشفى ببدلته السوداء الثمينة التي جذبت انتباه المرضين في أروقة القسم النفسي بالمستشفى والطبيب المشرف على صحة والده يسير بجانبه مشيرًا لآخر التطورات في حالة والده.

شعره الرجل الأسود وملامحه ربما أعطت انطباعًا للبعض بأنه من دول البحر المتوسط، لكن عينيه الملونة ولون بشرته سرعان ما يرجعوا أصله البريطاني، حتى اسمه الأول (آدم) لا يعطي الكثير عن أصله.

وصل الطبيب و(آدم) إلى منطقة الأجنحة الخاصة لنزلاء القسم النفسي وتوقفا أمام إحدى الغرف والطبيب يطرق الباب بأدب قبل أن يأتيه صوت عجوز يدعوه للدخول.

نظر الطبيب لآدم نظرة ذات معنى وهو يهز رأسه و(آدم) يشكره، فتح هذا الأخير الباب ودخل للجناح الفخم الذي يشبه أجنحة الفنادق العالمية وصوت تلفزيون يأتي من إحدى أركانه، كان يعرض فيلم (الناظر صلاح الدين)، وأمامه جلس رجل عجوز ممتلىء الجسم بعض الشيء يرتدي نظارة طبية وقد أطلق لحيته البيضاء المُنَمَّقَة للتناسق مع شعر رأسه الأبيض الخفيف صانعةً وقارًا وهيبة بالإضافة لوسامة قديمة مسحها الزمن بتجاعيده فلم يُبْقِ إلا آثارًا تدل على ما كان.

يبتسم العجوز عند كل كلمة يُطْلِقُهَا (علاء ولي الدين) بينما تقدم (آدم) ليقف بجانبه باحترام وهو يقول بلغة عربية ولهجة مصرية متكسرة:

-أخبارك إيه يا بابا ؟

نظر له العجوز بلهفة فرحًا بينما (آدم) ينحني عليه ليحتضنه بحب

-أنا كويس يا ابني المهم انت وأولادك

-الحمد لله

قالها (آدم) وجلس على مقعد قريب منه وهو يبتلع ريقه وتتسارع أنفاسه كأنه يريد أن يقول شيئًا لكنه ينتظر الإذن من والده.

-قول يا (آدم) إيه المشكلة .. الشركة حصلها حاجة ؟

-الشركة كويسة جدًا لكن المشكلة في مصر مش في هنا

انثنت تجاعيد وجه العجوز واتسعت عيناه وهو يعتدل بصعوبة في كرسيه

-فاكر يا بابا الشقة القديمة اللي ورثتها في القاهرة من زمان ؟

هز العجوز رأسه بالإيجاب بهدوء فأكمل (أدم):

-بعد ما دخلت المصحة هنا من خمس سنين ظهر قانون في مصر بينص على إن الشقق اللي متأجرتش لـ 40 سنة هايتسحب منها الكهربا، فأنا خليت الـsecurity guard يأجرها بعد ما عملتله توكيل في السفارة، ومن ساعتها حصلت حادثتين قتل وحادثة انتحار من أيام، أنا خبيت عليك في الأول علشان متزعلش، لكن حاسس اني اتصرفت غلط أكتر من مرة من غير ما أرجعلك.

نظر العجوز للتلفزيون مرة أخرى و(علاء ولي الدين) يتحدث مع (أحمد حلمي) عن مشاكل المدرسة .. ضحك العجوز بصوت عال ثم نظر لادم وقال:

-خلص اجراءات خروجي من المستشفى واحجز لي على رحلة نازلة مضر في أقرب وقت

***

اسبوع مر على (سارة) منذ إيداعها في المستشفى النفسي التي يعمل بها (عصام) زوج (نورا) صديقتها. كان (عصام) هو آخر من حدَّثها في الهاتف قبيل موت (عماد) خطيبها وقبل أن تدخل في حالة الاكتئاب التي لم تخرج منها منذ ذلك اليوم المشؤوم.

لم تبكي أو تصرخ، لم تفعل أي شيء في الواقع، فقد صمتت منذ عجزت عن الرد على (عصام) وقت وقوع الحادث. لم تكن هي نفسها تعرف إن كانت ترفض الكلام أو تعجز عنه، لكنها ظلت صامتة على أي حال.

أما (عصام) فشعر نحوها بالمسؤلية، كونها صديقة زوجته، وكونه آخر من استطاع التحدث معها. لذلك فقد أصرَّ على إيداعها في المستشفى التي يعمل به، وأصر على الإشراف على حالتها بنفسه. لكن حالة (سارة) لم تتقدم ولم تتأخر بالرغم المداوامه على أدوية الاكتئاب التي يحرص على أن تتناولها. ظلت على صمتها الذي لم يتمكن أحد من إخراجها منه.

- صباح الخير.

قالها (عصام) وهو يفتح باب غرفة (سارة) بعد طرقه قبل أن يدخل مبتسمًا ثم يغلقه وراءه قائلًا:

- عاملة إيه النهاردة؟

لم تجبه كعادتها، لم ترفع عينيها أو تحركها حتى كي تنظر نحوه، وإنما نظرت بشرود من خلال النافذة التي تجلس أمامها، سحب هو مقعدًا ليجلس قبالتها صامتًا لعدة ثوان قبل أن يقول:

- أنا نفسي تتكلمي.

تعبيرات الوجه كما هي، لم تتحرك عضلة واحدة فيه، لم تتكلم أو تبكي منذ جاءت إلى هنا، وهو يعرف جيدًا أن حالتها ستزداد سوءًا لو استمرت على هذا المنوال.

- طب اكتبي، إرسمي حتى، عبري عن نفسك بأي شكل، أنا عايز اساعدك.

- ....

- صدقيني يا (سارة) أنا عارف انتي حاسَة بإيه، مابقولش اني حاسس بيه بس عارفه، وصدقيني برضه لو اتكلمتي الموضوع هيختلف، هتبقي أحسن، جربي مش هتخسري حاجة.

- ....

- لو خايفة إني مصدقش كلامك فمتخافيش، أنا مصدق أي حاجة هتقوليها.

تنهد (عصام) وهو يفكر هل يخبرها بما سيفعله أم يصمت .. لم يفكر كثيرًا وهو يقول:

-تاني يوم حادثة (عماد) الجرايد كتبت عنها بالتفصيل .. جرنال منهم كتب مقالة عن الشقة نفسها وإن حصلت فيها حوادث تانية قبل (عماد) الله يرحمه، طالب قتل اتنين زمايله ووزوج قتل مراته فيها، والحوادث دي بتحصل بعد ما يسكنوا الشقة بكام يوم، محدش طول فيها عن اسبوع .. أنا دورت ورا الحكاية لحد ما وصلت لدكتور صاحبي كان هو اللي بيقيم الحالة العقلية للراجل اللي قتل مراته قبل ما يتحاكم، وجمعت منه تفاصيل كتيرة عنه .. خلتني أقرر أني اروح الشقة وأعيش فيها بنفسي

ولأول مرة منذ جاءت (سارة) إلى هنا تحركت عيناها حركة خفيفة إثر كلامه وبدا على وجهها تعبير طفيف يوحي بالاهتمام، لم يحتج (عصام) إلى رسم التعاطف والحماس على وجهه لأنه كان يجيش بالشعورين بالفعل وهو يضيف:

- بس لازم قبل ما اروح تكلميني وتفهميني إيه اللي (عماد) قالهولك بالظبط قبل ما.. قبل ما ينتحر.

- (عماد) ماانتحرش.

ملأت الدهشة نفس (عصام) وهو يستمع إلى صوتها الخافت المبحوح وهو يخرج من حنجرتها الضعيفة التي لم تستخدمها منذ اسبوع، كاد يقفز فرحًا لأنه استفزها لتتكلم بغض النظر عما تقول، أخفى مشاعره وهو يقول باهتمام وهدوء:

- ليه بتقولي كده؟

وجهت عينيها نحوه وهي تقول:

- لأنه بيجيلي ولسه باشوفه.

بحذر قال:

- بيجيلك فين وبتشوفيه إزاي؟

- هنا في الأوضة، باشوفه زي مانا شايفاك دلوقتي، مبيقولش غير كلمة واحدة.. أنا ما انتحرتش.

- طب بتقوليله ايه؟

- مبقدرش أرد عليه.

- ليه؟

ترقرقت عيناها بالدموع وهي تقول بحزن بالغ:

- عشان انا ماصدقتوش.

- ماصدقتيهوش في إيه بالظبط؟؟

- لما قال لي على الميتين اللي بيصوّرهم في الشقة.

فصام، لقد أصيبت (سارة) هي الأخرى بالفصام، تمامًا كخطيبها الراحل، هكذا فكّر (عصام) وهو ينظر لها مليًا، أصيب (عماد) بالفصام وتخيَّل رؤية وسماع أشياء غير موجودة في الشقة أدت به في النهاية إلى الانتحار.

وها هي ذي (سارة) أيضًا قد أصيبت بنفس المرض لترى بدورها أشياء غير موجودة، وكل هذا بسبب تلك الشقة. ولكن.. أتراه ممكنًا؟ أن يكون ما يقولانه صحيحًا أو به شيء من الصحة؟ أيلقي كل ما تعلمه عن الطب النفسي في أقرب سلة مهملات ويصدِّق نظرية الأموات الذين يسكنون الشقة؟ كلا بالطبع.

هو سيمكث في الشقة لأنه يشعر بمسؤليته عن (سارة) فحسب وليس لأنه مقتنع حقًا بما تقول.

- (عماد) بيقول لك بلاش.

قالتها (سارة) بصوتٍ أجش وقد ثبتت عيناها في عيني (عصام) بطريقة بدت له مخيفة بعض الشيء وهو يقول بتساؤل:

- بلاش إيه؟

- بلاش تروح الشقة.

- ليه؟؟

- عشان.. عشان (منصور).

- (منصور) مين؟؟

- ماعرفش. (عماد) هو اللي بيقول.

قالتها بنبرة حائرة وعيناها تتحركان بسرعة فقال (عصام) برفق محاولًا تهدئتها:

- طب وهو قال لك كده إمتى؟

- دلوقتي.

- هو (عماد) معانا دلوقتي في الأوضة؟

أومأت (سارة) برأسها إيجابًا في صمت، ورغم ثقة (عصام) في أن ما تقوله مجرد هلاوس بصرية إلا أنه توتر في جلسته قليلًا، صحيح أن هذه ليست المرة الأولى التي يخبره فيها أحد مرضاه أنه يرى شخصًا آخر معهما في الغرفة ولكنه يشعر بشعور غريب هذه المرة، قد يبدو هذا مضحكًا، ولكنه يشعر فعلًا أن هناك شخصًا ثالثًا في الغرفة.

***

مهتديًا بالعنوان الذي يعرفه بسبب نشر تفاصيل الانتحار بالجرائد والمعلومات التي أخذها من زميله، شقَّ (عصام) طريقه في شوارع وسط البلد حتى وصل إلى العمارة ووقف أمامها متأملًا إياها ليتأكد من كونها هي العمارة المنشودة. دخل من البوابة ليجد البواب جالسًا أمام غرفته فحياه بابتسامة قائلًا:

- سلام عليكم"

- وعليكم السلام ورحمة الله.. أي خدمة يا بيه؟

- كنت بادور على شقة، مش فيه هنا شقق فاضية للإيجار برضه؟

ارتبك البواب قليلًا وهو يقول:

- لا يا بيه معلش مفيش.

- متأكد يا.. اسم الكريم إيه؟

- (ربيع) يا بيه.

- مفيش بقى شقق فاضية هنا يا (ربيع)؟

- لا والله.

من الواضح أن الرجل يكذب لسبب ما لم يدركه، ولكنه لم يكن على استعداد للتنازل عن تلك الشقة. لذا أخرج علبة سجائره وجذب منها واحدة ليقدمها للبواب وهو يقول بلهجة بسيطة وبابتسامة واسعة ودودة:

- بس ولاد الحلال قالوا لي إن فيه هنا شقة لقطة وسعرها كويس في الدور الثالث، وانت شكلك جدع وبتحب تخدم.

تردد الرجل قليلًا ولم يجب أو يأخذ السيجارة فعاد (عصام) يقول وهو يضع السيجارة في يده:

- هاديلك 500 زيادة فوق إيجارها. قلت إيه؟

وضع الحارس السيجارة خلف أذنه ثم نظر يمينًا ويسارًا كأنه يخشى أن يسمعه أحد قبل أن يقول:

- مش فكرة فلوس يا بيه، المشكلة في صاحب الشقة. مش عايز يأجرها لحد تاني بعد.. بعد كل اللي حصل فيها يعني.

- وهو إيه اللي حصل؟

بدا القليل من الخوف على وجه البواب وهو يقول:

- سلامٌ قولًا من رب رحيم.. محدش بيخرج منها سليم.

قرَّب (عصام) وجهه من البواب وباهتمام قال:

- إزاي؟

بدأ يروي قصص من مروا على الشقة بعد أن نجح (عصام) في كسر الحاجز بينهما وحَلّ عقدة لسانه. راح يحكي مستمتعًا بكونه يخبر البيه بأشياء لا يعرفها وتثير دهشته، وقد لعب (عصام) على هذه النقطة جيدًا وهو يستمع لما يقوله حتى أنهى كلامه قائلًا:

- عشان كده صاحبها بقى مش عايز يأجرها لحد تاني. هو أصله مرتاح ومش فارق معاه القرشين اللي بتجيبهم. فزي ما تقول كده إيه.. مش عايز مشاكل تجيله من تحت راسها. قال لك بناقص يعني.

- طب وانت؟

- أنا إيه لا مؤاخذة؟

- إنت أكيد فارق معاك القرشين اللي بتجيبهم الشقة.

- يا بيه والله لو عليا أديهالك من غير فلوس خالص. بس نعمل إيه. بص أنا ممكن أكلملك حد يجيب لك شقة قريبة من هنا بس هتبقى حراقة شوية.

- بكام يعني؟

- يعني ألف، ألف ونص كده.

أخرج (عصام) ورقتين فئة الـ100 جنية ووضعهما في يد البواب وهو يقول:

- ولو قلت لك إني مستعد أدفع في الشقة دي 2000 زائد الـ500 جنية اللي قلتلك عليهم. يبقى 2500 .. حلال عليك. أنا هأجرها شهر واحد بس وممكن أسيب معاك صورة من بطاقتي علشان تبقى مأمن نفسك. وأهو الشقة يبقى فيها رجل بدل ما صاحبها رامها كده .. ها قلت إيه؟

نظر البواب إلى النقود التي أعطاها له (عصام) وأسرع يضعها في جيبه وهو يقول مُدَاهِنًا:

- يا باشا انت تؤمر. بس الحاجات دي ما تتاخدش قفش كده لازم أخد وأدي مع نفسي علشان ...

قاطعه (عصام)

-يا جدع حد يقول كده برضه. أنا دكتور محترم في مستشفى كبيرة وجايلك دوغري علشان ما أوجعش قلبك. لو موافق يبقى نتوكل على الله.

-موافق يا باشا

-على البركة .. يبقى نتفق على التفاصيل

***

- خلاص من بكرة هتلاقيني عندك زي ما اتفقنا

أنهى (عصام) مكالمته مع البواب واستعد داخليًا للمعركة الثانية التي أعد نفسه لها منذ اتخذ قراره بتأجير الشقة. كان يجلس في غرفة المكتب بمنزله وقد هَمَّ بالخروج منها حين استوقفته زوجته (نورا) عند الباب قائلة بشك:

- كنت بتكلم مين؟؟

أخذ نفسًا عميقًا ليهدئ نفسه استعدادًا للمعركة الكلامية التي بدأت مبكرًا قبل أن يقول:

- ده بواب العمارة اللي كان عايش فيها (عماد)، خطيب (سارة).

باستغراب سألت:

- وأنت بتكلمه ليه؟

- عشان ناوي أأجر نفس الشقة اللي كان عايش فيها قبل ما يموت.

صمتت (نورا) للحظات وقد بدا عدم الفهم على وجهها فعاد (عصام) يقول شارحًا:

- إنتي عارفة طبعًا إن (سارة) في حالة اكتئاب وما بتتكلمش نهائي، وده بعد (عماد) - الله يرحمه – ما وقع من الشباك على عربيتها.

رفعت (نورا) أحد حاجبيها باستنكار قائلة:

- الله يرحمه؟؟ ده إنسان فاشل فضل رابط البت جنبه وآخرتها سابها وانتحر، أنا من زمان بقولها (عماد) ده مش هيجي من وراه خير أبدًا، وآديها أهيه قاعدة تتعالج في مستشفى بسببه وتقول لي الله يرحمه. ده منتحر يا (عصام) يعني ما تجوزش عليه الرحمة.

بدا الضيق على وجه (عصام) من كلامها وهو يقول:

- صح، إنتي طلعتي صح يا (نورا)، وربنا أكيد بيعاقبها دلوقتي عشان ما سمعتش كلامك من الأول وسابت الراجل اللي بتحبه.

- إنت بتتريق، ثم تحب إيه وتنيل إيه، ده واحد مات كافر.

- بغض النظر عن كونك نَصَّبْتِي نفسك إله وقررتي إنه كافر، هو دلوقت عند ربنا وما نقدرش نعمل له حاجة. اللي نقدر نِعْمِلّهَا فعلًا هي خطيبته، وانا عايز أساعدها.

- ومرواحك الشقة بقى هيساعدها ازاي؟؟

- أنا حاسس إن فيه حاجة مش طبيعية ورا موت (عماد)، كان عندي إحساس بكده من فترة لكن كوني دكتور نفسي، يعني راجل علمي من الآخر، خلاني ابعد عن الطريقة دي في التفكير، والحقيقة إن الطريقة العلمية في التفكير ما نجحتش في علاج (سارة)، أما بقى الطريقة التانية فخلّتها تتكلم أخيرًا بعد أسبوع سكوت.

بدت السعادة والدهشة على وجه (نورا) وقد نسيت الموضوع الأصلي لثوانٍ وهي تقول:

- بجد؟؟ (سارة) اتكلمت؟

- آه، وانا وعدتها إني هروح الشقة عشان اعرف إيه اللي حصل لـ (عماد) بنفسي، عشان كده كنت بكلم البواب.

باستنكارٍ بالغٍ عادت (نورا) لتقول:

- وهو إيه اللي هيكون في الشقة يعني، عفاريت؟؟

- ليه لأ

- (عصام)، أنا صحيح فرحانة إن صاحبتي رجعت تتكلم بس ده مش معناه إنك تخرَف وتقولي الشقة فيها عفاريت، وكمان عايز تسيبني أنا وابنك وتروح تقعد في شقة مفروشة لوحدك عشان تحل لها مشكلتها.

ابتسم (عصام) ابتسامة باهتة وحمل صوته لمحة من السخرية وهو يقول:

- تخرف؟ ده انتي حتى ما عرضتيش عليَّ إنك تيجي معايا عشان ما أروحش وحدي.

- آجي معاك فين انت بتهزر!!

- آه، بهزر يا (نورا)، بهزر، وعن إذنك عشان أروح أوضب شنطة صغيرة أخدها معايا.

قالها (عصام) وقد بدت لمحة من الألم على وجهه قبل أن يسير مبتعدًا لتعود (نورا) وتقف أمامه لتقطع طريقه وهي تقول بغضب وانزعاج:

- (عصام)، إنت بجد هتروح تقعد في شقة مفروشة لوحدك؟؟ الناس تقول إيه؟ وكل ده ليه أصلًا؟؟ عشان خاطر (سارة) هانم ترجع تتكلم وتنسى خطيبها اللي مات كافر!!

أمسك (عصام) بـ (نورا) من كتفيها وأبعدها عن طريقه وهو يقول:

- أنا عارف إنك شايفاها بتتدلع، عشان كل المرضى النفسيين في رأيك ناس فاضية وما عندهاش مشاكل وبيحبوا يكتئبوا من باب

التسلية. لكن أحب أقولك إن ده شغلي حتى لو إنتي مش مقتنعة بيه، أه أنا هروح أقعد في شقة مفروشة لوحدي. وطظ في كلام الناس عشان أنا بانقذ حياة واحدة ممكن تفضل مرمية بقية عمرها في المستشفى بسبب ناس زيك شايفين إنها بتدلع.

أولاها (عصام) ظهره بعد إتمام عبارته وهمَّ بإكمال طريقه نحو غرفة النوم لكنه توقف فجأة وأدار وجهه فقط ناحيتها ثم قال:

- آه. ولما يجيلك خبري ما تنسيش تبقي تسألي أنا مُتّ ازاي. وابقي احكمي عليا أخش النار ولا الجنة. بس بلاش النار اليومين دول علشان الدنيا حر. عن إذنك.

***

لم يدر (عصام) سبب ذلك الإحساس الذي راوده وهو يدخل الشقة بعد أن أخذ المفتاح من (ربيع) الذي لم يعرض عليه الصعود معه أو مساعدته فيما يحمل بعد أن مضى العقود الصورية التي ستحميه إن انكشف الأمر. فهو يخاف الشقة بلا شك.

صحيح أنها تبدو من الخارج مجرد شقة قديمة عادية مُتْرَبَة إلا أنها تحمل تأثيرًا نفسيًا ما. ورغم قلق (عصام) وتوجسه إلا أنه شعر أن كل هذا بسبب ما سمعه عن الشقة فحسب وليس أي شيء آخر.

فهو رغم كل شيء، ورغم ميله للابتعاد عن النظريات الواقعية الصماء، إلا أنه ما يزال يريد أن يرى ويسمع ويشم شيئًا حقيقيًا ملموسًا.

حتى لو كان مجرد دليل على نظريته، وحتى لو كان ضعيفًا باهتًا إلى أقصى حد.

يسراه تحمل حقيبة ملابسه الصغيرة ويمناه تحمل عدة أكياس بلاستيكية.

وضع كل ما يحمل على مائدة الطعام وبدأ بِفَضِّ الأكياس البلاستيكية التي حوت بعض الطعام وشيئًا آخر بدت على (عصام) لهفة شديدة وهو يخرجه بحرص.

ذلك الشيء عبارة عن (شيشة) كبيرة ذات جسدٍ معدني مزخرف ومعها كل مستلزماتها من المبسم والحجر إلى كيس الفحم وعلبة "المعسل القص" اللذين اشتراهما من نفس المحل.

كانت الشيشة تحمل مكانة خاصة في نفس (عصام)؛ فهي ليست بالنسبة له شيئًا يدخنه وحسب، هي له أعمق من أنفاسها الطويلة ورائحتها الزكية. ليست كالسجائر التي يشعر أنها شيئًا خفيفًا تجاريًا أجبرته الظروف على تدخينه أمام الناس لأن الشيشة شيء سوقي و"بلدي" كما ترى (نورا).

لذا فهو يتحرج من تدخينها أمامها مكتفيًا بتدخينها في مقاه بعيدة عن منزله. حتى السجائر لم ترحمه (نورا) من نقدها إياها لأن التدخين حرام طبعًا من وجهة نظرها، ويكفي أنها تتحمل سجائره التي لا تطيق رائحتها بل وتجبره ألا يدخنها سوى في الشرفة.

لذلك اتجه إلى الحسين قبل ذهابه إلى الشقة ليحقق حلمه بامتلاك شيشة خاصة به. سار بين الشوارع حتى وقعت عيناه على أحد المحال التي تبيع مستلزمات الشيشة واختار أفخم ما استطاعت أن تراه عيناه واشتراها بكل مستلزماتها مع الكثير من أوراق معسل القص وبعض علب الفحم، حتى أنه وجد موقدًا كهربيًا صغيرًا لتسخين الفحم اشتراه ليسهل له إعداد الشيشة كي تصبح الحياة أكثر روعة.

وكأنه يعامل طفلًا صغيرًا راح يفرد أجزاء الشيشة على المنضدة، ثم أخرج الموقد الكهربي وأوصله بأقرب مصدر كهرباء وهو يرص عليه قطعتين من الفحم وينتظر اشتعالهما.

نظر حوله للشقة وابتسم.. فهو يعرف أنه قرر إعداد الشيشة بمجرد دخوله للشقة كي يكسر أي خوف أو اغتراب يتكون داخل عقله من الشقة. أراد لنفسه أن يشعر بأن الشقة غير مخيفة بالعكس فهو سيدخن الشيشة الآن وكأنه تعوَّد على دخول الشقة منذ سنوات، الآن يمكنه أن يسير بها ليتأملها.

أخرج من حقيبة سفره مفكرة ضخمة مرفق بها قلم، فتحها وكتب في أول صفحة (تجربة نفسية رقم 1). شعر أن العنوان ركيك وخاصة أنه لم يقم بأي تجارب نفسية حقيقية على أرض الواقع، لكنه يعرف من كان يهتم بعلم النفس التجريبي.. (سلوى)، الفتاة التي أحبَّها قديمًا، مجرد أن يتذكرها يفرح بلا سبب معلوم.

برغم أنه لا يراها الآن إلا كل عامٍ أو عامين مصادفة. هذا غير أن استمرارهما في الحب أصبح مستحيلًا عندما أعلنت له اتجاهها للإلحاد

بعد عامٍ واحد من تخرجهما من الكلية، وقبل أن يفكر في طلب يدها رسميًا.

بعد مناقشات ساخنة بينهما استمرت لأسابيع وجد نفسه يبتعد عنها ببطء، حتى هي لم تعترض أو تحاول الاقتراب، بالعكس كلما ابتعد هو قدرًا ابتعدت هي الأخرى بنفس القدر، كأنما تشجعه على الانفصال في صمت، حتى قرر ألا يتصل بها نهائيًا.

دهش في البداية من رد فعلها الهادئ فلم تتصل به من حينها، وكأن ميثاقًا رسميًا غير مكتوب قد تراضى عليه الطرفان بأن يختفي كل منهما عن الآخر وكأنهما زميلان بالجامعة أخذتهما مشاغل الحياة بعد التخرج.

منذ تسع سنوات لم يتقابلا إلا مصادفة، حفل زواج صديق مشترك بينهما، أو عيد ميلاد أحدهم أو حتى في المستشفى التي يعمل بها جاءت مرة لزيارة صديقة تعمل معه.

وفي كل تلك المصادفات حافظا على الميثاق وكأنهما زملاء، يحيي كل منهما الآخر ويتجاذبان أطراف الحديث بكثير من بسمات المجاملة مع هزِّ الرأس، ثم يمثل كل منهما الانشغال عن الآخر بأي شيء حتى يمر الموقف، منذ عام فقط تقابلا مصادفة في عيد ميلاد ابن أحد أصدقائهم المشتركين، ولكنه صُدِمَ من مظهرها الذي تبدل فجأة.

أصبحت أكثر جمالًا بشكل لم يحلم به، وجد نفسه يتأملها رغمًا عنه كما لم يتأملها من قبل، حتى وجد دبلة ذهبية بيدها اليسرى، صُدِمَ قليلًا وفكر هل تزوجت من قريب !! أم أنه لم يلاحظ الدبلة إلا بعد أن تأمل

جسدها جيدًا ؟ أما هي فقد لاحظت نظراته لها وابتسمت له كما لم تبتسم منذ سنين.. ابتسامة نسي تفاصيلها.. ابتسامة خجل.

تجاذبا أطراف الحديث هذه المرة بشكلٍ أكثر تفصيلًا. برغم أنه لم يسألها عن زواجها متمنيًا أن تفتح هي الموضوع وسط حديثها، ولكنها لم تتطرق له، حكت عن كتابها الذي تكتبه منذ عام عن الظواهر النفسية التي يطلق عليها البعض الخوارق، ومحاولة تفنيدها علميًا لبيان مشاكل الهلوسة الجماعية والفردية والاضطرابات الكهربية التي تصدر عن المخ عند مواجهة تلك الظواهر.

فجأة طلب رقم هاتفها المحمول، فأملته (سلوى) إياه ببساطة. ندم على الطلب المُحرِج وهو يسجِّل رقمها، لام نفسه لأيام بسبب ما فعله، رسم عشرات السيناريوهات للأفكار التي دارت في رأسها عندما همَّ بطلب الرقم، الأدهى أنها قبل أن تمليه الرقم قالت مبتسمة بأنها تمليه الرقم كل مقابلة بينهما ولم يتغير بعد، كأنها تصفعه بأدبٍ وحرفية.

لم يتصل بها.. لم تواتِه الجرأة حتى ليتمكن من سماع صوتها على الهاتف بلا سبب حقيقي يقدمه.

طرح عنه أفكاره ثم نظر إلى المفكرة وكتب (موضع الدراسة: الشقة: وصف تفصيلي) نهض يتأمل صالة الشقة بعينيه ويكتب تفاصيلها الهامة، كانت الأتربة قد علقت ببعض الأثاث، خمن في رأسه أن البواب خاف من تنظيفها.

تأمل الطيور المحنطة المعلقة على الحائط وهو يحاول أن يتخيل طريقة تحنيطه، جالت عيناه حتى وصل إلى "الجرامافون" الموضوع على

"كومود" خشبي بدرجين فذهب إليه جريًا، كان جده يمتلك "جرامافون" في منزله بإحدى قرى الشرقية ورأى جده يديره الكثير من المرات وهو يتباهى به أمام ضيوفه.

أخرج منديل ورقي من جيبه وحاول أن يزيل الأتربة ولكنه فشل، مرر المنديل على المنطقة التي كانت توضع بها الإسطوانة قديمًا فأزاح بعض التراب الذي تكون من فترة قليلة، انحنى وَقَرَّبَ عينيه من إبرة الجرامافون فوجدها متآكلة من طرفها.. يبدو أنه لم يستخدمه أحد منذ زمن.

نظر للأدراج في الكومود وتمنى أن يجد ما يبحث عنه، أول درج وجد به بعض الأسطوانات محفوظة داخل أغلفة ورقية حملت شعارات مختلفة.

أغلق الدرج وفتح الثاني فوجد فرشاة صغيرة وبضع علب معدنية في حجم علب السجائر، ابتسم وهو يمسك إحدى العلب ويرفعها ويقرأ ما عليها: "مشط إبر فاخر فائق الإستخدام يتحمل حتى 6 اسطوانات.. شركة صوت سيدة "

أطلق ضحكة عالية وهو يفتح العلبة ويتناول إحدى الإبر، لقد تمنى أن يجد بقية ما يحتاجه "الجرامافون" في نفس الكومود الذي وُضِعَ عليه، كما كان يفعل جده ويحتفظ بكل ما يخص "الجرامافون" بجانبه أو في درج قريب منه، وكان يغيِّر إبرة الجرامافون كل بضع مرات يديره.

أزال الإبرة القديمة وركّب الجديدة كما كان يرى جده يفعل، تناول من الدرج الأول أول اسطوانة صادفتها يده حتى لم يقرأ غلافها وأخرجها ووضعها على "الجرامافون" بعدما أدار الذراع الزنبركي بضع مرات.

حرك ذراع الإبرة بحرص ووضع الإبرة على الأسطوانة.. ابتعد قليلًا وهو يتمنى أن يعمل كي يتذكر جده، فجأة سمع صوت احتكاك من بوق "الجرامافون" ثم صوت رجل يقول بسرعة وبصوت عال (بيضافون.. عبد اللطيف افندي البنا.. كروان مصر) ثم جاءت موسيقى ابتسم لها (عصام) وهو يمسك مفكرته مرة أخرى ويستمع واقفًا بتركيز. جاء صوت المغني يقول:

(ماتخافشي عليا أنا واحدة سجوريا في العشق يا إنت واخدة البكالوريا
أقعد سهتانة قلبي مشغول بك.. ولما تشعلل لهاليب نار حبك
أرخي الناموسية وأنام لي شوية.. وأحبكها وأشبكها بميتين دبوس
وأحضن وأبوس وأنزل على صورتك.. حتتك بتتك.. ما تخافشي عليا)

ضحك بصوت أعلى هذه المرة وهو يدقق في الكلمات

(ليلة ما تجيني فوت جنب البيت وانده تلاقيني في أوضة التواليت
مستنية م العصرية.. على شباكها.. حط الفاكهة)

فجأة صدرت حشرجة منه وصوت احتكاك من داخل البوق يخالطه صوت المغني غير واضح، ذهب للجرامافون ورفع الإبرة، أخرج بقية الاسطوانات من الدرج وهو يتأمل أسماءها بسرعة حتى توقف عند أسطوانة شعر فجأة بالحنين لسماعها.. (أنا هويته – سيد درويش)، كان

يعرف الأغنية من قبل وسمعها مرة مصادفة، ولكن الحنين لها بهذا الشكل أقلقه، رفع حاجبيه وكأنه ينفض عن عقله هذا الخاطر ثم وضعها على "الجرامافون" وقام بتشغيلها، ليأتي صوت المقدِّم يقول (اسطوانات كولومبيا – اسطوانات من غير خشخشة – سيد درويش أنا هويته)

(أنا هويته وانتهيت.. وليه بقى لوم العزول

يحب إني أقول.. ياريت الحب ده عني يزول

مادمت أنا ...

فجأة اهتزت إضاءة مصباح الصالة وصوت طرقعة أتى من خلف (عصام) فنظر بسرعة ليجد ماسًا كهربيًا يخرج من قابس الكهرباء الذي أوصل فيه فيشة السخَّان الكهربي، نظر للجرامافون ولا يدري لم جرى ناحيته وهو يرفع الإبرة عن الإسطوانة لينقطع الصوت وفجأة، عاد كل شيء لطبيعته وتوقف الماس الذي يخرج من القابس وعاد الضوء.

نظر حوله بهدوء هو نفسه دهش منه، ثم تحركت عيناه لتعود للجرامافون.

***

جلس على مقعد في الصالة ورائحة الفحم المشتعل تداعب أنفه مع صوت طقطقته التي تدل على وصوله لدرجة عالية من التوهج تمر على أذن (عصام) الذي لم ينتبه لأي شيء سوى ما حدث.

بدأ يتسلل الخوف تدريجيًا لنفسه فعلم أن اتزانه منذ ثوانٍ كان نتيجة الصدمة لكن بعودته لحالته الطبيعية وإدراكه لما حدث سيقع فريسة للرعب الذي يجب أن يصيب كل من شاهد ما شاهده.

نهض جريًا وأمسك بمفكرته وكتب عبارة سريعة (بمجرد تشغيل الجرامافون بدأت أحداث غريبة كأنه أثار شيئًا ما)، رفع عينيه ناظرًا للجرامافون ثم أعادها للمفكرة وهو يكتب (الجرامافون ليس المشكلة، بدأت الأحداث الغريبة مع تشغيل اسطوانة سيد درويش فقط).

عاد بمفكرته وهو يقبض عليها وجلس على المقعد مفكرًا، ما معنى أن يستثير هو ظاهرة غريبة!، لقد توقع أن تحدث الظواهر من تلقاء نفسها كما يروي الناس، وكيف تبدأ ظاهرة من تشغيل أغنية.

لِمَ لا يشرب بضعة أنفاس من حجر المعسل ستساعده على الاسترخاء، وخاصة أنه يجب عليه أن يتفقد بقية غرف الشقة ولو تمكن الخوف منه الآن فلن يمضي أكثر من ساعة في الشقة.

ترك المفكرة وأعدَّ بسرعة حجر المعسل وأخرج زجاجة مياة معدنية من الحقائب التي أتى بها وأفرغ بعضها داخل بنورة الشيشة.. أكمل إعدادها ورصَّ بعض الفحم بعد تكسيره وجذب منها بضعة أنفاس.

لم تعجبه في البداية لكنها ساعدته على الاسترخاء فعلًا، جر الشيشة بجانب المقعد وجلس وهو يجذب الأنفاس الساخنة وينفثها كأنه ينفث معها توتره وخوفه، والغريب أنه نسى خوفه فعلًا، والأغرب أن (سلوى) عادت تُلِحُّ على رأسه.

أبعد المبسم عن فمه لثوانٍ حتى تبتعد أبخرة المعسل ثم اشتم الهواء وهو يحاول تذكر رائحة عطرها، نجح بسهولة فابتسم لذلك. ما الذي كان يمنعه قديمًا من التفكير بها بهذه الحرية ؟ زادت ابتسامته أكثر وهو يتذكر من كان يشاركه هواية تدخين الشيشة منذ الصبا.. (سلوى) مرة أخرى.

تجلس معه على ذلك المقهى بالقرب من الجامعة تدخن الشيشة بخبرة من وُلِدَ في مصنع للمعسل. العجيب هو كرهه للمرأة المدخنة.. كأن من تدخن تسحب جزءًا من رجولته وسيطرته عليها، إلا (سلوى)، شعر بأنها يجب أن تشاركه بهذه الميزة، حتى عينها الناظرة له وهي تدخن تمتلئُ بالامتنان لسماحه لها بذلك أمامه.

كأنه مَنَّ عليها بنعمة الدخان. شعور لذيذ بالخضوع أعطته له كأن متعتها ملك له يعطيها لها وقتما يحب ويحجبها وقتما شاء.

سحب نفسًا طويلًا خرج ببعض السعال وهو مازال يشحن قلبه بذكريات قديمة فصلته عن خوفه من الشقة. حاول أن يبحث عن سبب عودة تلك الذكريات له الآن، هل هي الشقة ؟ أم ... لأنه ابتعد عن زوجته وطفله؟ يبدو هذا سببًا جيدًا. في الواقع هذه هي الحقيقة. ولكن ينقصها أن يعترف لنفسه أنه يحتاج لسلوى الآن. بما أنه يعيش في شقة وحيدًا. ما الذي سيحدث لو أمكنه أن يقنعها بزيارته، على الأقل ليأخذ رأيها العلمي فيما يحدث.. ابتسم مرة ثانية لمحاولته أن يقنع نفسه بهذا.

ترك المبسم ونهض بعدما أخذ المفكرة. تنفس بعمق ثم بدأ يدوِّن في مفكرته كل ما يراه أمامه في الشقة

(الصالة: على الحائط بعض الطيور المحنطة بيدٍ خبيرة، منضدة سفرة قديمة وهاتف قديم عليها، جرامافون على كومودينو، أريكة وبضعة مقاعد، ثلاثة أبواب لثلاثة غرف)

تحرك لأول غرفة وفتحها ببطء ويده الحرة تسبقه تتحسس الحائط حتى وجد زر الإضاءة فأشعله، تأمل الغرفة

(الغرفة الأولى: في الغالب تستخدم للتصوير وتخص (عماد)، مرآة صغيرة، مقعد، ستاند كاميرا، خلفيات متحركة على الحائط، ستاند إضاءة)

خرج من الغرفة وتوجه للثانية.

(الغرفة الثانية: تبدو أنها غرفة نوم لشقيقين، سريرين بحجم متوسط، دولاب، ومكتبين، وبضعة صناديق في طرف الغرفة)

توجه للغرفة الثالثة.

(الغرفة الثالثة: سرير كبير بأعمدة من النحاس، دولاب كبير مزخرف، اثنين كومودينو على أحدهما ثعبان محنط)

توجه للحمام وأضاءه .. مرت ثوان وهو يحدق في الحوض، رجل يرتدي مريلة ملطخة بالدماء وقفازين وكمامة فم يقف بجانب حوض الاستحمام وهو يحمل أمعاء بشرية ويضعها بجردل بجانبه .. أغمض (عصام) جفنيه وفتحهما، نفس المشهد لم يتغير.

سقطت المفكرة من يده وتراجع جريًا حتى تعثر وسقط أرضًا. هل يشعر بألم بذراعه الأيسر؟ زحف على الأرض عائدًا للصالة ثم وقف.

أطلق صرخة ألم وهو يمسك بذراعه الأيسر. فكر هل سيصاب بنوبة قلبية ؟ لكنه لم يعاني من أي أمراض في القلب. تحامل على نفسه وجرى باتجاه باب الشقة .. الألم يزداد حدة. مد يده ليفتح الباب لكنه توقف عن الحركة وهو يمسك مقبض الباب. هل يجب عليه مغادرة الشقة ؟ أم يتوقف .. تنفس بعمق وفجأة تنبه لاختفاء الألم.

اعتدل بوقفته مفكرًا. كيف أصيب بنوبة قلبية مفاجئة ظهرت واختفت بشكل غريب .. الألم لا يذهب بتلك الطريقة كأنه لم يكن !!. نظر للطُرقَة المؤدية للحمام وهو يفكر بالاقتراب مرة أخرى.

ذهب ناحية الحمام يُقَدِّمُ قدمًا ويؤخر الأخرى وهو يفكر فيما سيرى.. ها هو الحمام خالي. اقترب منه أكثر ودخله. تسارعت أنفاسه قليلًا وهو يتذكر المشهد الذي شاهده في الحمام.

تناول المفكرة والقلم من على الأرض وذهب للصالة. بحث بين حقيبة ملابسه حتى أخرج جهاز قياس الأكسجين في الدم وجهاز قياس ضغط الدم. دفع مبلغًا طائلًا فيهما بعد أن أوصى إحدى شركات الأجهزة الطبية باستيرادهما. فهو يحملهما معه في أسفاره.

لف جهاز قياس الضغط حول معصمه. الضغط طبيعي وسليم !!!! مستحيل .. وضع طرف جهاز قياس الأكسجين في اصبعه. القلب سليم ونبضاته طبيعيه وجسده في أحسن حال.

جلس على أقرب مقعد ينظر حوله وهو يخرج هاتفه المحمول من جيبه ويبحث عن رقم، اتصل وانتظر حتى سمع صوتها فقال:

-ازيك يا (سلوى) .. أنا (عصام) اللي كنت زميلك في الكلية .. عارفة صوتي .. طب بصي، أنا هاحكيلك على حكاية طويلة شوية بس فعلًا محتاج مساعدتك أوي .. بصي يا ستي ..

***

أذان الفجر من مسجدٍ ما بوسط البلد يأتي من بعيد يتبعه بضعه أصوات لأكثر من مؤذن، حالة من السلام تنزل على شوارع وسط البلد الهادئة بعد أن شبعت صخبًا طوال النهار.

القليلين الذين يسيرون بها الآن تراهم كالسكارى بلا خمر يحركهم الهواء يمينًا ويسارًا بلا هدى، حتى ذلك المقهى الشعبي بشارع (عماد الدين) الذي خلا من الرواد مازال يتحرك العاملون به من فترة لأخرى بالتصوير البطيء كأنهم يثبتون أنهم على قيد الحياة.

-أغيرلك الحجر يا برنس

قالها القهوجي لعصام الذي راح في سُبَاتٍ قصير لدقائق عاد منه على صوت القهوجي المتململ

-أه غيرلي وهاتلي قهوة زيادة مغلية

انصرف القهوجي مع الحجر بينما يفرك (عصام) وجهه بيديه عَلَّهُ يتنبه .. نظر حوله وهو يفكر في موعد قدوم (سلوى) .. بعدما روى كل

شيء لها من البداية حتى وصوله وما حدث وقد أثار فضولها فراحت تمطره بالأسئلة عن طبيعة الشقة وما حدث له. أخبرها بأن تحضر لتساعده في التجربة فوافقت قبل أن تمر حتى ثانية واحدة.

حتى أنه شعر بأن في الأمر خدعة، أعطاها العنوان وأخبرها بأنه سيظل في الشارع حتى تأتي في اليوم التالي، فقالت أنها ستحضر فجرًا.

ها هو آذان الفجر ينتهي والقهوة تأتي بجانب حجر المعسل، طقطق رقبته وهرش برأسه عَلَّ الوقت يمر، رن هاتفه المحمول فجأة .. رقم (سلوى) .. هل أخذت الموضوع بجدية أم تعتذر ؟

رد على الهاتف فقالت له بأنها داخل الشارع، غمرته الفرحة وهو يخبرها بموقع المقهى، حاسب القهوجي وانتظر على الرصيف بسعادة محاولًا أن يعدل من وضع قميصه الذي كان مكويًا بعناية في بداية اليوم وبنطاله الذي سقط عن وسطه منذ فترة ولم ينتبه.

سيارة جيب شيروكي حديثة توقفت أمامه .. هل أصبحت (سلوى) غنية فجأة !! أم أنه زوجها إن كانت متزوجة ؟

انفتح زجاج السيارة ليطالع (سلوى) وهي تشير له بالدخول، ركب معها وأرشدها بدقة لتركن سيارتها بالقرب من العمارة، خرجت وهي تفتح الحقيبة الخلفية للسيارة وتُخرج عدة حقائب ضخمة وبضعة أكياس بلاستيكية.

-شيل معايا

قالتها وهي تناوله بعض الحقائب.

-إيه كل ده

-شيل بس وهتفهم كل حاجة

حملا الحقائب واتجها إلى العمارة، لم يفت على (عصام) أن يتأكد بأن البواب نائم كي لا يبادله نظرات من قبيل "أيوه يا عم"، صعدا على السلم حتى وصلا للشقة. فتح هو الباب والقلق يعود له مرة ثانية .. هل حدث شيء غريب في غيابه ؟؟

الشقة هي كما تركها وكما ترك أدواته على المنضدة لم يتغير بها شيء

-انت جايب فحم وشيشة !

قالتها (سلوى) وهي تمنع نفسها من الابتسام، أغلق هو الباب بينما أكملت هي:

-كنت هتحارب العفاريت بالشيشة ولا إيه ؟

ضحك هو متحرجًا.

-أصلي كنت عامل حسابي إني مش هلاقي حاجة .. ألا انتي متجوزة ؟

اندهش من العبارة التي قالها، كيف كان بهذه الحماقة ؟ أما هي فلم تقدر على استيعاب السؤال في البداية فنظرت له تحرك رأسها بعدم فهم.

-والله ما تفهميني غلط أنا مش عارف سألت كده ليه فجأة

نظرت للدبلة الذهبية في يدها اليسرى ثم نظرت له وابتسمت بسخرية قائلة:

-اتجوزت أقل من سنة وما حصلش نصيب .. ولو مستغرب من الدبلة فأنا حطاها علشان محدش يستظرف معايا

-ورحمة أمي ما بستظرف .. ومش عارف أنا خدت الكلام على نفسي ليه بس والله وما أقصد

زادت ابتسامتها فزاد جمال وجهها أكثر

-عارفة إنك مش قاصد، المهم قولي جبت معاك أي أجهزة

-جهاز الضغط والقلب

-وده إيه علاقته باللي انت جاي علشانه

جلس هو على مقعد من مقاعد منضدة الطعام قائلًا:

-أنا فاكرِك بتسألي بشكل عام

جلست أمامه وهي تضع حقيبة يدها جانبًا

-طب لية ما رضيتش تبات في الشقة لحد ما أجي تاني يوم الصبح؟

-بصراحة خُفت

اتسعت عينيه من إجابته الصريحة وقال:

-هي الشقة دي قالبة معايا بصراحة كده ليه ؟

ضحكت فضحك لضحكها

-فعلًا انت شكلك محتاج تنام، روح نام دلوقت وأنا هاعمل شوية حاجات عقبال ما تصحى

-أنام إيه عيب

-لو فيه عيب فهو إني معاك في نفس الشقة لوحدنا، أكيد لو نمت شوية مش هتبقى عيب أوي

-طب أنا هَرَيَّح على الترابيزة هنا خمس دقايق

قالها وسقطت رأسه على المنضدة وصوت نفسه يعلو منتظمًا دلالة على النوم.

-فوق يا (عصام) .. (عصام) .. طب فين أوضة النوم اللي هنا؟

لم تتلق ردًا، نهضت وهي تدخل إحدى الغرف فوجدتها ذات فراش كبير، عادت له وهي تمسك يده برفق لكنه فزع وهو ينظر لها.

-تعالى ما تخافش هوصَّلَك للسرير

أحاطت خصره بيدها اليمنى كي ترفعه من على المقعد، انتفض مرة أخرى ليملس يدها

-أنا فوقت خلاص

قالها وهو ينهض فضحكت هي تقول:

-ما تخفش مش هَعَضَّك، اتسند عليا بس

ترك نفسه لها وجزء منه مستمتع بملامسة جسدها وعطرها الذي يداعب أنفه، أمسكت يده لتضعها على كتفها وهي تسير به إلى الغرفة، وهو مازال يفكر في عطرها .. ليس نفس النوع الذي اعتادت وضعه قديمًا، لكنه بشكل أو آخر نفس رائحتها التي تثيره، كأن لها بصمة تضيف لمسة لكل عطر يلامس جسدها لتجعله مميزًا.

وجد نفسه على الفراش ولا يدري كيف، ولكنه استمتع بليونة الفراش المفاجأة .. لم يفكر لأنه نام من فوره.

***

أغرب شيء في النوم أن تحلم وأنت تعلم بذلك، تتحرك شخصيتك داخل الحلم بلا إرادة حقيقية منك، وإن حاولت تحريك شخصيتك ينتهي الحلم في الحال كأنه يعترض على تدخلك في عرضه الخاص.

هذا ما فكر فيه (عصام) وهو يرى (سلوى) تمرر يدها على شعره فيرتعش جسده وهو يعتدل ليلمس بأصابعه وجهها الرقيق ثم يغيب معها في قبلة قوية انتفض لها جسده وهو يبعد ملابسها عنها بالقوة فتستجيب له.

في تلك اللحظة بالذات جاءه خاطر غريب .. هل يحلم فعلًا ؟، لكنه أبعد الخاطر وهو يندمج معها أكثر ويخلع ملابسه.

***

فتح عينيه فجأة ليجد وجه (سلوى) النائم لا يفصله عن وجهه سوى بضعة سنتيمترات .. يديها تحيطه وبديه تطوقها وهما عاريان، الحلم لم يكن حلمًا .. بل كابوسًا.

ما الذي فعله ولماذا طاوعته !. كاد أن يوقظها ويصب غضبه عليها لكنه توقف لثوان مفكرًا .. هو الذي دعاها للحضور، وفي الحقيقة لو بحث وراء أفكاره لوجد أنه هو المحرك لهذه الأحداث وهو السبب فيها.

عليه بأن يتقبل ما أراده، لذلك قَرَّبَ رأسه منها وقبلها على جبهتها ففتحت عينيها بتثاقل وابتسمت له.

ابتعدت عنه وهي تداري جسدها بخجل وتلتقط ملابسها المتناثرة على الفراش والأرض، بينما فعل هو المثل.

نهض وخرج للصالة وهو ينظر لساعة يده، الثانية عشر ظهرًا، خرجت وراءه فقال:

-فيه أكل أنا كنت جايبه امبارح لو مش بايظ تعالي ناكله.

سبقته وهي تتجه للحمام

-مش الحمام هنا برضه

-أه

-دَوَّر في الأكياس البلاستيك هتلاقيني جايبة أكل عملته بنفسي

قالتها وهي تجري ناحية الحمام وتغلق الباب خلفها.

اتجه ناحية الأكياس البلاستيكية يفتح بعضها، ما هذه الأوراق؟ أخرج رزمة من الأوراق وقَلَّبَ فيها، قياسات عصبية لذبذبات المخ وتعليقات بالإنجليزية تحتها، صور بعض الأشعة الغير واضحة لأكثر من مخ مريض، كأنه يمسك أوراق متفرقة لأبحاث علمية مختلفة المصدر.

أعادها وفتح كيسًا آخر فوجد الطعام، رَصَّهُ على المنضدة بسرعة في نفس وقت خروجها من الحمام، لَمَّت شعرها بطريقة ذيل الحصان وغسلت وجهها فأشرق أكثر بعد غياب مساحيق التجميل.

-تصدق السيفون قديم من اللي بيتشد بسلك ده

-ما لحقتش أشوفه

جلس على المنضدة فأخذت مقعدًا وجلست بجواره تمامًا حتى لامسته، كان الاثنان يتعاملان كأن شيئًا لم يكن، تناولا الطعام بصمت في البداية وكل منهما يخاف أن يفتح الآخر موضوع ما حدث منذ ساعات.

-لكن انت جيت من غير أي أجهزة أو خطة .. كنت ناوي على إيه؟

قالتها (سلوى) وهي تمضغ طعامها فقال هو بدون النظر إليها:

-أنا كل اللي توقعته إني مش هلاقي حاجة بجد، كنت عايز أطبق المبدأ العلمي اللي بيقول كل ما هو غير مكرر ليس علمًا .. افتكرت إن مفيش حاجة هتحصل في الشقة .. وشكلي كده كنت باخد أجازة وأنا مش حاسس

-بس المبدأ ده مش صح، ممكن الحاجة تكون مكررة لكن انت لسه ما تملكش أدوات القياس اللي تخليك تعرف وقت تكررها

-تقصدي إن فيه أشباح بجد هنا ؟

-انت مش شوفت بنفسك

قالتها وهي تنظر له وتبتسم بطريقة ساخرة، فرد بعصبية:

-ممكن تكون حاجة نفسية

-انت بتسميها حاجة نفسية وغيرك بيسميها أشباح وناس تقول مسكونة بالجن، كلها مسميات لظاهرة بتحصل بجد بس المسميات مختلفة

-يعني إيه ؟

-يعني يللا بينا نشتغل

قالتها ونهضت تبحث بحقيبتها عن منظف اليد السائل ثم تتجه للحمام لتغسل يدها، تبعها هو حتى انتهيا وعادا للصالة.

أخذت إحدى الحقائب الجلدية فقال هو:

-إيه معاكي الأجهزة اللي بتصور الأشباح

-لو كملت تريقة همشي

-خلاص أنا عارف إن دمي تقيل

-على العموم مفيش حاجة بتصور الأشباح، دا لو الشقة نفسها كان فيها حاجة من الأساس

قالتها وهي تفتح الحقيبة وتسحب علبة عريضة منها فتحتها وأخرجت منها جهاز يشبه الهاتف المحمول بشاشة صغيرة يخرج منه بروز طويل. مدت يدها وأخرجت بضعة قطع أخرى في حجم الليمون كتب على كل قطعة رقم بالإنجليزية.

-إيه الحاجات دي وجبتيها منين ؟

رفعت الجهاز الذي يشبه الهاتف المحمول وقالت:

-ده جهاز (sound level meter) بيقيس درجة الأصوات سواء الأصوات اللي أعلى من قدرة سمعنا أو اللي أقل منها، بعرف منه لو فيه مصدر للصوت، ودول ميكروفونات دقيقة

-صوت أشباح يعني ؟

-يا (عصام) قلتلك بلاش هزار، دي تجارب علمية، أي نوع من الصوت، ممكن يطلع صوت من برا الشقة أو أي حاجة تانية.

-طب جبتي البتاع ده منين؟

فتحت الجهاز وأخذت تضبط إعداداته وهي تقول:

-مركز بحثي في ألمانيا بعتلي الحاجات دي كدعم طالما ببعتله تقارير عن أي تجربة بعملها وهو بيشرف عليها

تراصت أرقام على الجهاز فسارت به وهي تحمل ميكروفون بيدها الأخرى، سار ورائها وهي تراقب عداد الأرقام الذي أخذ يعلو ويهبط ببطء، فتحت غرفة التصوير القديمة فلم تجد شيئًا.

عادت ودخلت الغرفة الثانية ذات الفراشين فارتفعت الأرقام في العداد بشكل سريع وعادت تنخفض، وَجَّهَت البروز الذي يخرج من الجهاز في كل أركان الغرفة، عند أحد الفراشين ارتفع عداد الأرقام بجنون، وضعت على الفراش الميكروفون وضغطت زرًا بارزا به.

عادت وحملت ميكروفونًا آخر ووضعته عند غرفة النوم الرئيسية بجانب الفراش وواحد آخر عند الدولاب اعتمادًا على قراءة العداد.

في الصالة وضعت ثلاثة ميكروفونات بأماكن متفرقة، اتجهت للحمام لكن الجهاز توقف وانطفأ.

-إيه البطارية خلصت ؟

قالها (عصام) بصوت خافت

-موطي صوتك ليه ؟ قبل ما الحجارة تخلص بيديني تنبيه

نظر هو للحمام وقال:

-واا علشان بنقرب من الحمام ؟؟؟

نظرت هي الأخرى للحمام تقدمت خطوات وهي تفتح الجهاز لكنه يغلق مرة ثانية عند ضبط التردد، دخلت الحمام وأعادت ضبط الجهاز فعاد العداد لكن أرقامه ارتفعت بسرعة شديدة فوضعت ميكروفون بجانب الحوض.

المطبخ أيضًا ارتفع عداد الأرقام لكن بشكل بسيط فوضعت ميكروفونًا هناك.

عادوا للصالة فأخرجت من حقيبة أخرى عدة كاميرات صغيرة مرقمة ثبتتها في معظم الشقة ثم أمسكت ورقة وكتبت رقم كل ميكروفون وموضعه في الشقة ورقم كل كاميرا وموضعها بالتحديد.

-كده أنا لو عايز أروح الحمام مش هعرف، هيتسجلي صوت وصورة.

قالها (عصام) فنظرت له (سلوى) بملامح جامدة لفترة من الوقت ثم أشارت بيدها ليتبعها .. دخلت غرفة النوم الرئيسية ووقفت عند ركن، وقف بجانبها وهي تقول:

-هنا نقطة عامية الكاميرات مش هاتلقطها

تبعتها بأن قبلته بقوة فاستجاب لها وهو يحملها ويلصق ظهرها بالحائط .. فجأة رن جرس هاتفه المحمول، توقف الاثنان كأن صفعة لاسعة أخرجتهما من عالم الخيال لتعيدهما للواقع.

أنزلها وهو يبتلع ريقه ويعود للصالة ليرد على هاتفه، زوجته تطمئن عليه في أول ثانية ثم دقائق من الصراخ عن عدم تحمله المسئولية وجنونه وغباءه إلخ إلخ .. كان يهز رأسه بملل ويكتفي كل فترة بقول كلمة ليس لها معنى أو تشكيل حروف.

أنهى الهاتف ونظر خلفه ليجد (سلوى) تقف عند باب غرفة النوم بلا أي تعبير على وجهها، نظر لها محرجًا في البداية لكنه سرعان ما نظر لنقطة ما خلفها بتركيز.

نظرت هي الأخرى خلفها لترى شاب يجلس على الأرض يسند ظهره إلى الدولاب، صرخت وهي تتراجع للخلف .. هنا جاء صوت دقات من الطرقة الموصلة للحمام.

نظرت للحمام بينما جرى (عصام) ناحيتها يحتضنها من الخلف، تعالى صوت الدقات بسرعة شديدة. أخذها (عصام) وتراجعا للخلف عند باب الشقة، نظرا لغرفة النوم فلم يجدا الشاب.

توقفت الدقات فنظرت له .. ملامحها تمتلئ بالرعب، لا يعرف لما لم يفزع هو الآخر مثلما فعل بالبارحة، ربما استمد شجاعته من خوفه عليها.

لم تستطع (سلوى) كتمان دموعها فانفجرت بالبكاء بصوت مكتوم، ضمها هو لصدره أكثر وهو يربت على ظهرها بحنان.

وسط دموعها قال:

-أنا أول مرة أشوف حاجة زي كده

-طب اهدي

قالها وراح يمسح على شعرها .

***

مر من الوقت ما لم يحسبه (عصام) وهما على نفس الوضع منذ سمعا الدقات ورأيا الشاب في الغرفة.

-الحمام فيه سر

قالتها (سلوى) وهي تدفن رأسها بين صدره، أبعدها عن حضنه برفق وهو يقول:

-لو تحبي نمشي يللا بينا

مسحت دموعها ونَظَّمَت تنفسها

-لا .. أنا عايزة نكمل

سحبها من يدها لتجلس على الأريكة بركن الصالة، نظرت له قائلة بجدية:

-لازم نكمل، أنا بقيت كويسة

-نكمل إيه ؟ ما أكيد اللي حصل اتسجل على الكاميرات، ممكن نشوفه دلوقت

-الجرامافون

قالتها (سلوى) وهي تشير إليه وتكمل عبارتها

-قلتلي امبارح في التليفون إنك لما شغلت عليه اسطوانة محددة حصلت حاجات في الشقة غريبة

-أه

نهضت وهي تذهب للجرامافون وتقول:

-انت هتشغله وأنا هَدَوِّن الملاحظات، بس روح شيل أي فيشة في أي كُبْس كهربا الأول

تركها (عصام) وبدأ يتحرك بين الغرف ليتأكد من خلو القوابس الكهربائية من الأسلاك، عند الغرفة الرئيسية التي احتوت على الصناديق توقف أمامها يتأملهم .. سحب أحد الصناديق فوجد بداخلها معدات تصوير قديمة، أخذ يقلب في الصناديق حتى وجد صندوق معدني مغلق بقفل صغير غزاه الصدأ، رَجَّهُ قليلًا فسمع صوت حركة بسيطة لأشياء تتخبط داخل الصندوق.

-إيه ده

قالتها (سلوى) وهي تقف عند باب الغرفة

-مش عارف، دي معدات تصوير قديمة أوي، مش ممكن تكون لعماد الله يرحمه، في الغالب هي لصاحب استوديو التصوير اللي كان عايش هنا زمان .. البواب قاللي إن اسمه (منصور)

انفتحت ضلفة الدولاب اليسرى ببطء .. نظر الاثنان لبعضهما ثم اقترب (عصام) يتأمل الأوراق والصور المبعثرة داخل أرفف الدولاب .. ترك الصندوق على الفراش وأخرج كل شيء من الدولاب ليضعه على الفراش بجانب الصندوق.

جلسا على الفراش وأخذ كُلًا منهما يقرأ ما استطاع ويعطي الآخر ما قرأه، بعد ربع ساعة انتهوا من كل شيء.

-(عصام) الحكاية واضحة .. (منصور) صاحب الاستوديو كان قاتل متسلسل بيقتل البنات .. بيتعرف عليهم ولما يقعوا في حبه يقتلهم، وانت شوفته واقف في الحمام امبارح بيعمل حاجة للجثة، كان بيفصل راس

الجثة هنا في الحمام ويحتفظ بيها، كان بيعمل فيها إيه وليه بيحتفظ بيها؟ (سعيد) أخوه بيحاول يمنعه بأي شكل، بس مصير (سعيد) مش معروف ولا مصير (منصور)، طالما محدش يعرف إن الشقة دي ساكنها قاتل يبقى (منصور) قدر يهرب، لكن (سعيد) إيه مصيره؟

شعر (عصام) بألم خفيف بيده اليسرى لكنه تنفس بعمق وقال:

-إيه مصير أي حد هيقف قدام سفاح ؟.. أكيد (منصور) قتل (سعيد)، لكن مصير (أميمة) إيه يا ترى ؟

قالها وأمسك كتفه وهو يتأوه

-مالك يا (عصام) ؟

قالتها بلهفة شديدة

-مفيش، بس حاسس بوجع في القلب كأن هتجيلي أزمة قلبية

-انت عندك القلب ؟ فين الأدوية بتاعتك ؟

-لأ ما عنديش

-أمال شايل أجهزة قياس القلب والضغط ليه معاك؟

تحامل على نفسه وهو يقول:

-احتياطي علشان لو جالي القلب أعرف بدري واتعالج

اختفى الألم فجأة فعاد وجهه طبيعيًا مرة أخرى وقد حمل الكثير من الدهشة، بينما هي نظرت له بشك وقالت:

-الألم راح ؟

-راح فجأة بشكل مش طبيعي .. أول مرة هاجمني الألم ده كان امبارح في الشقة وقِست الضغط والنبضات ولقيت نفسي طبيعي، ودلوقت رجع تاني !!

-طب تحب ترتاح؟

-لأ .. خلينا نكمل تفكير

اعتدل على الفراش وهو يقول:

-دلوقت احنا معانا تفاصيل كتير لكن مش مفيدة، يا ترى لو حاولنا نفتح الصندوق ده هنلاقي حاجة جديدة ؟

نظرا للصندوق فقال (عصام) ساخرًا:

-لو كنا في فيلم حد فينا كان هَيَطَفِش القفل ده بدبوس شعر

قالها وضحك لنفسه ثم تَقَلَّصَ وجهه ثانية والألم يعاوده، سحبته (سلوى) بسرعة لينام على الفراش وهي ترفع قدميه وتقول:

-أنا لازم أأزل أجيبلك أي دوا موسع للشرايين احتياطي

انتهى الألم مرة ثانية.

-لا أنا بقيت كويس خلاص، ممكن الموضوع يبقى نفسي

-نفسي ويجيلك كل شوية كدة، تقدر تستناني هنا

قالتها وهي تفك شعر رأسها وتعدل ملابسها

-هتنزلي برضه

-خلينا في المضمون، وكمان ممكن ألاقي محل فاتح أشتري منه حاجة نفتح بيها الصندوق .. فين مفتاح الشقة

بحث بجيب بنطاله فوجده، أعطاه لها فتأكدت من ملابسها وشعرها وجرت تحمل حقيبتها وهي تتجه لباب الشقة قائلة:

-مش هتأخر ما تخافش

سمع صوت الباب يفتح ويغلق فقال بصوت مسموع:

-أنا بقيت خيخة ولا إيه .. زمانها خدت عني فكرة وحشة

مرت عشر دقائق هادئة نظر بعدها للصندوق واعتدل وهو يمسك قفله بيده ويجذبه بعنف لربما يفتح.. فشل فنظر لإحدى الكاميرات الصغيرة بالغرفة وقال:

-وكمان خيبتي اتسجلت صوت وصورة

رَنَّ جرس الهاتف في الصالة فاتسعت عيناه فزعًا وهو يتذكر كلمات الزوج الذي عاش هنا من قبل عندما تكلم عن الهاتف. نهض ببطء وخرج إلى الصالة بحذر يتأمل الهاتف.

مازال يرن بصوت مزعج كأنه يصر على أن يرد عليه. اقترب منه وبتردد رفع السماعة الباردة ليضعها على أذنه

-قلبك ضعيف .. هتحاول تفسرها نفسيًا، لكن الحقيقة إن الأزمة القلبية الجاية هتموتك بأسرع مما تتخيل

وضع السماعة على الهاتف وهو ينظر للشقة من حوله، نظرته تغيرت من الترقب إلى التحدي، صرخ فجأة قائلًا:

-أنا معرفش ازاي الشقة دي بتعمل كده .. لكن عرفت بتعمل إيه

أخذ يسير في صالة الشقة بعصبية وهو يلوح بيده في الهواء وينظر لأركانها قائلًا:

-الخوف .. كل اللي عاشوا هنا وكانوا خايفين من حاجة زادت أكتر .. ماتوا من خوفهم .. وأنا مش هموت من شوية خيالات .. لأني مش خايف

أدار مقبض الجرامافون بغضب وأنزل الإبرة على الإسطوانة التي لم ينزعها منذ البارحة وصرخ لنفسه والإسطوانة تدور:

-أنا مش خايف

تعالى صوت (سيد درويش) متنغمًا (أنا وحبيبي في الغرام مفيش كده .. مفيش كده ولا في المنام .. أحبه حتى في الخصام .. أحبه حتى في الخصام ..)

ارتعشت إضاءة الشقة أكثر، جاء صوت الدقات من نفس موضعه السابق، جرى ناحية الحمام .. لكنه في طريقه خرج شخص فجأة من جدار الطرقة يجري ناحية الحمام .. جفل وتراجع (عصام) خطوة للوراء لكنه سرعان ما سار بخطوات واثقة ناحية الحمام.

دخله فلم يجد شيئًا، صوت الدقات مازال مستمرًا، عاد للصالة وهو ينظر حوله غاضبًا حتى ظهرت له فتاة تخرج من غرفة التصوير ترتدي

ملابس قديمة ورأسها مذبوحًا يميل على كتفها .. تراجع خطوة للخلف لكنه لم يفقد جذوة غضبة بعد، أشارت له الفتاة بيدها ناحية الحمام.

-فيه إيه في الحمام .. إيه السر .. (منصور) قتلكم جوا

تلاشت الفتاة في الهواء كالدخان وصوت (سيد درويش) يتحشرج ويتوقف .. توقف بعدها كل شيء.

***

فتحت (سلوى) باب الشقة بلهفة لتجد أخر ما تتوقع رؤياه الآن، (عصام) يجلس على مقعد منضدة السفرة يدخن الشيشة بهدوء والسخان الكهربي موصل بقابس والفحم يتوهج عليه.

أغلقت الباب ثم وضعت الحقيبة البلاستيكية على المنضدة أمامه وأخرجت منها علبة دواء (dinitra) وأعطته إياه.

-مش محتاجه خلاص

-مالك يا (عصام)؟

-جيبتي حاجة نفتح بيها أم الصندوق اللي جوه ده

فتحت الكيس البلاستيكي وأخرجت ما به .. شاكوش وأزميل حديدي.

-إنتي هَتْهِدّي حيطة

-ما أنا ما رضيتش أسأل بتاع الحدايد أفتح قفل ازاي، اخترت حاجتين عارفاهم

أمسك منها الشاكوش وترك الشيشة وهو يقول:

-كفاية لحد هنا .. أنا هخش أفتح الصندوق وانتي شيلي الكاميرات والميكروفونات وشوفي حاجة ظهرت فيهم ولا لأ.

-طب مش لما نجرب موضوع الجرامافون الأول

ذهب لغرفة النوم وهو يقول:

-أنا جربت .. شوفي انتي بس

دخل الغرفة وتوقف أمام الصندوق يتأمله قليلًا قبل أن يقول:

-تعالالي يا ابن الكلب

طرق على القفل بقوة فلم يتأثر.. طرق مرة ثانية فانثنى، عدة طرقات عنيفة حتى انكسر القفل وانفصل تمامًا عن قائميه. دخلت (سلوى) في نفس اللحظة وقالت وهي تنزع إحدى الكاميرات:

-ها انفتح

-أه .. كملي انتي وأنا هشوف فيه إيه واجيلك

فتح الصندوق بترقب ليجد به مفكرة صغيرة انثنت على نفسها بفعل الرطوبة ومادة واضح أنها سالت عليه فأصابت الورق، أخرجها فوجد تحتها ساعة قديمة تتدلى منها سلسلة فضية والصدأ غَطًى بعض جوانب الساعة.

أخر ما وجده بالصندوق كان محفظة جلدية فتحها فوجد أوراق نقدية قديمة لم يتعرف عليها وتحقيق شخصية لم ير مثله حتى في تحقيق الشخصية الورقي.. عريض مطوي على نفسه عُلِّقت عليه صورة

صغيرة بالأبيض والأسود لرجل بشارب كتب بجانبه اسمه وبياناته. قرأها بصعوبة بسبب اصفرار بعض مناطق الورقة .. ضابط بما يسمى (القسم المخصوص) بالبوليس المصري ؟؟ يدعى (موسى عبد العليم صبحي المحمدي).

جلس على طرف الفراش وهو يفكر في صاحب هذا الاسم وما أتى به لهنا.

***

انتهت (سلوى) من جمع الكاميرات والمكيروفونات .. أخرجت الكمبيوتر المحمول من إحدى الحقائب الجلدية وفتحته وهي تخرج وصلة تصل بها أحد الميكروفونات لتنقل ما سجل عليه إلى الكمبيوتر .. فعلت المثل مع الكاميرات ثم جلست لتستعد لمشاهدة ما حدث.

***

فتح (عصام) المفكرة ليجد أن بعض أوراقها في البداية قد تشربت مادة .. رَجَّحَ أنها الدماء. صفحات احتوت على أسماء وأرقام هواتف تتكون من خمس أرقام تحتها عناوين منازل بالقاهرة.

قلب الصفحات حتى وجد صفحات تمتلئ بأسماء وأمامها مواعيد مقابلة .. قلب أكثر حتى وجد عبارة (ملاحظات شخصية على حوادث مقتل الفتيات).

وجد رسمًا بسيطًا لشيء يشبه الخريطة وعليه نقاط محددة. في الصفحة التالية كتب:

(الجثث ألقيت بدءًا من منطقة وسط البلد في خط سير سيارة ملاكي حتى روض الفرج متجهة إلى الزيتون، لم يتغير الخط كل مرة ألقيت فيه جثة جديدة كأن القاتل مجبر على السير في هذا الخط بسيارته كل مرة، لو وضعت في الاعتبار أن الفترة المناسبة لرمي تلك الجثث وهي من الفجر حتى الشروق فالاحتمال الحالي أنه رجل يذهب لعمله بشكل يومي صباحًا، ويكون هذا الوقت هو الأنسب له للتخلص من الجثث)

***

بدأت (سلوى) بالتسجيلات الصوتية. شَغَّلَت أول تسجيل في غرفة التصوير، ووضعت سماعات على أذنها أوصلتها بالكمبيوتر حتى تستمع بدقة .. لا شيء مجرد أصوات تأتي من بعيد لها ولعصام يتحدثان، وضعت التسجيل على برنامج الأصوات التي تعلمت العمل عليه من المركز الألماني الذي زودها بكل شيء، حذفت أصوتهما كي تركز على أي شيء أخر.

لا شيء، زودت دقة وضوح الصوت 500 مرة .. هنا برقت عيناها وهي تستمع لصوت ذبذبة.

Binaural Beats-

قالتها وهي تجري لتلتقط أوراقًا من كيس بلاستيكي وتتفحصها بسرعة حتى وصلت إلى إحدى الصفحات، كانت تظهر تخطيطًا لرسم موجات المخ من جهاز التخطيط الكهربي للدماغ.

عادت لتستمع إلى الذبذبات وهي تحول التسجيل لرسم بياني يتصاعد ويهبط مع علو الذبذبة وهبوطها، نظرت إلى الورقة وإلى الرسم البياني وقالت:

-الميكروفون لقط نشاط كهربي زي اللي بيخرج من المخ في شكل نبضات كهربية

نظرت إلى الرسم البياني على شاشة الكمبيوتر تتابعه بدقة

-كأن مخ حد متوتر وبيزيد للخوف بالتدريج

نظرت أمامها والأفكار تخترق مخها بسرعة .. منذ الثلاثينيات في القرن الماضي استطاع علماء النازية الألمان التأثير على المخ من خلال إطلاق ذبذبات كهربية تحمل نفس التردد الذي تحمله مخططات أجهزة رسم نبضات المخ الكهربية.

يقلدون نفس تخطيط المخ الدال على الغضب ويعيدون إنتاجه في شكل نبضات كهربية يتأثر بها المخ فتصيبه بالغضب، وهكذا على أي شعور آخر .. إذن هذا هو السبب في تنامي إحساس الفوبيا لكل من سكن الشقة .. يتعرض لتلك النبضات التي يلتقطها المخ فتتغير حالته مع الوقت ليزيد خوفه.

وَجَّهَت نظرها لجهاز قياس الضغط والقلب الخاصين بعصام .. يبدو أنه يخاف من الإصابة بالقلب لذا بدأ بالشعور بألم القلب مع الوقت.

لكن ما مصدر تلك النبضات ؟ هل هم من قُتِلُوا في مواضع مختلفة بالشقة ؟

عادت للتركيز وهي تستمع لبقية التسجيلات لتجد أنها تحمل ذبذبات لحالات بين الغضب والخوف والتوتر والحزن.

توقفت عن الاستماع واتجهت لترى أول تسجيلات الكاميرا.

***

قلَّبَ (عصام) أكثر في الصفحات حتى عثر على صفحة كتب في بدايتها (الاستنتاج قبل النهائي)

(لم أجد فائدة من إعادة استجواب الشهود الذين عثروا على الجثث، لكن عند استجواب أهالي الفتاتين الذين تعرفوا على جثث بناتهم طلبت خط سير من أهل كل فتاة لشهر قبل الاختفاء، ووجدت ما لم أرَهُ غريبًا في البداية، ذهاب كل واحدة منهن إلى ستوديو تصوير فوتوغرافي بوسط البلد، رأيت آخر صورة لكل واحدة منهما فكان عليها شعار (ستوديو منصور) بشارع عماد الدين، بالقرب من هذا المكان عُثِرَ على أول جثة بلا رأس.

كَلَّفْتُ أحد زملائي في القلم المخصوص بجمع بعض التحريات عن هذا الاستوديو بحجة اشتباه في قضية سياسية، كنت حريصًا على ألا تقوم المباحث الجنائية بالتحريات كي لا ينكشف الأمر لصاحب الاستوديو. لن أترك أيَّ شيء للمصادفة)

قلَّبَ (عصام) الصفحة ليجد أنه لم يبق إلا صفحة واحدة مكتوبة.

(نتيجة التحقيقات حول المشتبه به)

(أمس أتى زميلي بملف كامل عن منصور صاحب الاستوديو هو منصور عبد الباقي وله شقيق أصغر منه اسمه سعيد، منصور لا شبهات سياسية عليه ويعمل بمهنة التصوير منذ 1951 أي عند بداية ظهور الجثث. لكن لم يجذبني ملف منصور بقدر ما جذبني شقيقه سعيد، الذي يعمل ببنك مصر فرع الزيتون ويمتلك سيارة ملاكي. نفس خط السير الذي رسمته من قبل. يجب أن أزور هذا الاستوديو بدون وجود الشقيقين كي أتاكد من نظريتي، ثم أبدأ الإجراءات الرسمية. غدًا سأجعل أحد أصدقائي بقسم الأزبكية يستدعيه صباحًا بحجة تشابه أسماء في قضية نفقة ويحتجزه يومًا أو اثنين ريثما أدخل وسعيد بعمله في بنك مصر. أحتاج لدليل مادي لتنتهي القضية)

رفع (عصام) وجهه لأعلى وهو يقول:

-(منصور) كان في القسم، و(موسى) أكيد اتقتل. اللي قتله (سعيد).. (سعيد) هو القاتل المتسلسل

هنا أتى صوت (سلوى) من الخارج

-(عصام) تعالى بسرعة

ترك المفكرة وجرى للصالة فوجدها تنظر لشاشة الكمبيوتر المحمول بخوف، وقف بجانبها فقالت

-الكاميرات فيها تسجيل صوت خاص بيها، كاميرا الصالة هي أول واحدة أشوفها

أعادت مقطع الفيديو للوراء وهي تقول:

-الميكروفونات لقطت ذبذبات كهربية بتخش على المخ وتدي تأثير الخوف أو الرعب. كأن مخ اللي اتقتل هنا خَرَّج ذبذبة كهربية فضلت موجودة في المكان بتأثر على أي حد يعيش هنا وتسببله هلاوس بالخوف

ابتلعت ريقها بصوت مسموع وهي تشير لشاشة الكمبيوتر وقالت:

-لما فتحت تسجيل الصالة ما لقيتش فيه أي حاجة غريبة حتى لما أنا وانت سمعنا صوت الخبط من الحمام، لكن لما أنا مشيت لقيتك بترفع سماعة التليفون وبعديها بتشغل الجرامافون، بص

شَغَّلَت المقطع ونزعت سماعات الأذن ليخرج الصوت من الكمبيوتر مباشرة .. ظهر (عصام) في المقطع وهو يصرخ بلا صوت ويشغل الجرامافون

-إتفرجت على الجزء ده وصوتك كان ظاهر لكن أنا حذفت تردد صوتك وصوت الجرامافون وعَلِّيت الصوت علشان أشوف اللي بيحصل

(عصام) داخل المقطع يصرخ وينظر لأركان الصالة بغضب، بجانب باب غرفة النوم ظهر شابان أحدهما يصرخ في الآخر:

-كفاية

***

دخل (منصور) الشقة بعدما عاد من القسم ليلًا. تشابه أسماء لم يفهم سببه جعله يقضي ثلاثة ليالي، خرج (سعيد) من غرفة نومهما جريًا وهو يحتضنه

-اختفيت فين كل ده، أنا خوفت أبلغ عن اختفاءك

ربت (منصور) على ظهره بحب قائلًا:

-ما تخافش، الظباط في قسم الأزبكية حجزوني تشابه أسماء ومنعوني حتى أتصل بالتليفون، لسه سايبيني دلوقتي

تراجع (سعيد) خطوة للوراء مفكرًا وهو يقول:

-علشان كده فيه ظابط كان هنا أول يوم اختفيت انت فيه

-إيه ؟

-دخلت الشقة لقيته فيها .. شاف المعرض بتاعي وعرف كل حاجة

اتسعت عين (منصور) وهو يقول بصوت متوتر

-عملت فيه إيه ؟

-ما كانش فيه حل تاني إلا موته .. وما ينفعش أرمي جثته

جرى (منصور) ناحية الحمام ليفاجأ بجثة عارية توسطت البانيو وعليها كمية كبيرة من الملح الأبيض

-بحنطه على طريقتك

قالها (سعيد) بفخر وهو يقف خارج الحمام، نظر له (منصور) وهو يقول بصوتٍ أجش

-إنت وعدتني إنك مش هتقتل تاني

-ما أنا ياما وعدتك وخلفت وأنت ياما حميتني

قالها (سعيد) وهو يسير بثقة باتجاه الصالة، لحقه (منصور) وصرخ فيه:

-كفاية

-كفاية إيه

رد عليه (منصور) صارخًا

-كفاية قتل .. من أول ما سميت أمنا بالزرنيخ وأبوك افتكر إني عملتها لحد كل واحدة حاولت أحبها

صرخ (سعيد):

-أنا ما قتلتش حد إلا برغبتك

توقف (منصور) مشدوهًا فأكمل (سعيد)

-كل حد انت كرهته واتمنيت تقتله قتلته أنا بدالك. من أول أمك الخاينة اللي أنا عمري ما كرهتها .. كنت بحبها بجد، وقتلتها علشانك، علشان تفرح وترجع طبيعي .. لحد كل واحدة فكرتك بيها.

تراجع (منصور) إلى الوراء ودموع (سعيد) تغادر مقلتيه وهو مازال يصرخ:

-لو أنا قتلت فإنت سكتت كل مرة وسمحتلي أكمل .. من جواك حسيت بالراحة .. بإن ابتسامتك بترجعلك تاني .. حتى لما عملت المعرض بتاعي هنا ما اتكلمتش

جلس (منصور) على الأرض وهو يسند ظهره للحائط بينما (سعيد) يكمل:

-جاي دلوقت تزعل ليه ؟ ولا علشان (أميمة) اللي ضحكت عليك ورجعتك راجل في السرير تاني

نظر له (منصور) بدهشة

-فاكرني معرفش انكم نمتم مع بعض على سرير أمي، معرفش إنك رجعت تبتسم تاني .. فاكرها هَتِخْلِصْلَك يا غبي .. طريقها زي طريق أمنا لازم ينتهي بالخيانة

نهض (منصور) غاضبًا وأمسك بملابس (سعيد) وهو يقول بلهجة حازمة:

-مالكش دعوة بأميمة

-إيه خايف أقتلها

-بقولك ابعد عنها

دفع (سعيد) (منصور) بعيدًا عنه وهو يبتسم ويقول:

-أنا بفكر حقيقي أقتلها، وجهزت كل حاجة خلاص .. يمكن لما تموت ترجع لعقلك تا...

***

اختفى الشابان من على شاشة الكمبيوتر فأشارت (سلوى) للشاشة و(عصام) يقف في الصالة وقالت:

-هنا لما رَجَّعت الصوت عرفت إن الجرامافون وقف واختفى (منصور) و(سعيد)

تنفس (عصام) بعمق ونظر للجرامافون قائلًا:

-يبقى الجرامافون كان مُحَفِّز.. ممكن تكون ذبذبته الصوتية هي اللي اللي عملت تحفيز للمشهد ده علشان يعيد نفسه

صمت لثانية ثم قال:

-أو ذبذبة أغنية (سيد درويش) هي اللي حَفَّزِت ظهور المشهد ده

-تفتكر كانت إيه نهاية اللي حصل بين (سعيد) و(منصور)؟

قالتها (سلوى) فصرخ (عصام) فجأة قائلًا:

-إيه المعرض اللي كان بيتكلم عليه (سعيد) وكان عامله هنا في الشقة؟

قالها وهو ينظر للشقة.. نظر لسلوى وقال:

-استنيني هنا

جرى ليفتح باب الشقة، صعد للطابق الأعلى في العمارة واختار الشقة التي تكافئ موضع شقة (منصور) في البناء وطرق بابها، لم يفتح أحد الباب فطرق بشكل أسرع وأعلى.

فتح الباب شاب في العشرينات فسأله (عصام) بعصبية:

-شقتكم كام أوضة

-نعم ؟

صرخ فيه (عصام) بعصبية:

-أنا جاركم في الشقة اللي تحتيكم، دي مسألة حياة أو موت

أخرج محفظته ومنها سحب تحقيق الشخصية ليريه للشاب

-أهو أنا دكتور ما تخافش مني .. جاوبني بسرعة

ظهر الخوف على الشاب وقال ببطء

-أربع أوض وصالة ومطبخ وحمام

رد (عصام) بسرعة:

-3 أوض في الصالة والرابعة فين ؟

-في الطرقة

نزل (عصام) جريًا على السلم حتى دخل الشقة مرة ثانية مُغْلِقًا بابها، التقط الأزميل وجرى لغرفة النوم يلتقط الشاكوش وهو يقول:

-صوت الدقات ما كانش جاي من الحمام .. دا جاي من الطرقة

وقف وسط الطرقة ووضع الأزميل عند موضع ودق عليه بالشاكوش بعنف فوقع الدهان وظهر دهان آخر من تحته

-شبح البنت اللي ظهرلي ما كانش بيشاور على الحمام .. دا بيشاور على الأوضة اللي في الطرقة

جرت (سلوى) تقف بجانبه بينما هو يدق بالشاكوش في موضع آخر لم يجد تحته دهان بل طبقة أسمنتية، أخذ يدق بالشاكوش على الأزميل في هذا الموضع وهو يقول:

-(سعيد) بيقتل وبيحتفظ براس الجثة، أكيد هنا .. وسَمَّاه المعرض ..

وقعت قطعة مربعة من الجدار للداخل فأتت رائحة عطنة زكمت أنف (عصام) بينما سَدَّت (سلوى) أنفها

-كده مصير (منصور) كان الموت هو و(أميمة) .. (سعيد) قتلهم وضمهم للمعرض وسد باب الأوضة ودهن الحيطة تاني علشان محدش يكتشف اللي حصل

قالها وهو يأخذ نفسًا عميقًا مُتَحَمِّلًا الرائحة السيئة الآتية من داخل الجدار ثم أخذ يضرب الجدار بمواضع مختلفة ليظهر الباب ثانية.

***

الحكاية الأخيرة

أمام العمارة توقف تاكسي هبط منه الرجل العجوز وهو يتكيء على عصا، دخل العمارة فقابله البواب سائلًا إياه عن وجهته.

-أنا صاحب الشقة اللي في الدور التالت، اللي ابني (آدم) خلاك تأجرها

ظهر الخوف جليًا على ملامح البواب وهو يقول:

-لامؤاخذة يا باشا .. نورت مصر .. بس الشقة فيها ناس فوق

لم يُعِرْهُ العجوز اهتمامًا وهو يصعد درجات السلم

-طب اتفضل يا باشا الأسانسير

كأن العبارة لم تصل للعجوز الذي أكمل صعوده.

***

ضربة أخرى بالشاكوش وتَهَدَّمَ أخر جزء يُدَارِي فتحة الباب، الرائحة أصبحت لا تطاق لكن أنف (عصام) اعتادت عليها، أخرج هاتفه المحمول وأضاء كشافه وبالمثل فعلت (سلوى).

دخلا الغرفة وهما يمرران الكشافات، تتكون الغرفة من بضعة مناضد صغيرة على كل منضدة رأس فتاة برز عظامه وتشقق جلده، لكن كل الرؤوس كانت مبتسمة تظهر أسنانها بوضوح.

عند طرف الغرفة تكومت جثة بإهمال التصق جلدها بها وظهرت العظام واسود الجلد ووقع الشعر بجانبها على الأرض.

-معرض (سعيد)

وَجَّهَت (سلوى) كَشَّافَهَا ناحية منتصف الغرفة فوجدت حوض زجاجي طولي مستطيل الشكل، داخله جثة تشبه التمثال لرجل يقف مرتديًا بدلة كاملة بربطة العنق.

-(عصام) بُصَ هنا

وَجَّهَ (عصام) كشاف الإضاءة ناحية الجثة التي احتفظت بملامحها كاملة كأنها لشخص حي .. حتى الشعر بقى كما هو

-مش (سعيد) اللي قتل (منصور) في النهاية يا (سلوى)

ارتعشت الإضاءة في الشقة في نفس اللحظة التي سمعا فيها باب الشقة وهو يُفتَح. ذهبا للصالة ليجدا الرجل العجوز يدخل من الباب يتأمل الشقة

-انت مين ؟

- أنا (منصور عبد الباقي) صاحب الشقة

زادت الإضاء ارتعاشًا وتصاعد صوت (سيد درويش) من الجرامافون مُتَنَغِمًا (أنا هويته وانتهيت .. وليه بقى لوم العزول).

نظر (منصور) للطُرْقَة ثم لعصام و(سلوى) وقال:

-يبقى عرفتوا كل حاجة .. انزلوا بلغوا البوليس وأنا هستنى هنا

علا صوت الجرامافون أكثر، بينما (منصور) يتكيء على عصاه متجهًا للطرقة، نظرت (سلوى) لعصام فأشار لها الأخير بأن يذهبا .. غادرا الشقة ليتجها لأقرب قسم.

(أنا هويته .. وانتهيت .. أأأآه .. أنا هويته وانتهيت)

وقف (منصور) أمام غرفة الطرقة وابتسم وهو يقول:

- يااااااااااااااااه يا (سعيد)، بعد كل السنين دي ولسه عايزني معاك

دخل الغرفة المُظْلِمَة وتحسس أحد جوانب الحائط حتى عثر على زر الإضاءة فرفعه، أضيئت الغرفة بضوء أصفر باهت.

- كل الحوادث اللي عملتها في الشقة دي علشان أرجعلك تاني

نظر يتأمل الرؤوس الموضوعة على المناضد وهو يقول:

- كنت عايز تحط راس (أميمة) على ترابيزة زي دول .. أسف يا أخويا ما كانش ينفع أسمحلك .. كان لازم أقتلك.

نظر للأرض وتهدج صوته وهو يقول:

-على فكرة أنا اتجوزتها وسافرنا لندن وعيشت هناك وخلفت لحد ما ماتت

رفع رأسه ينظر لجثة (سعيد) المُحَنَّطَة

-بس انت كنت معايا كل يوم في أحلامي .. عايزني أرجعلك تاني الشقة، صعب عليك نبعد عن بعض كل ده .. حتى لما دخلت مستشفى نفسي ما بطلتش تجيلي

نظر للرؤوس المُحَنَّطَة والجثة المُلْقَاة وقال:

-للأسف ما كنتش بتعرف تحنط يا (سعيد)، كل شغلك باظ، حتى الظابط فشلت فيه .. إنما شوفت أنا عملت فيك إيه .. أعظم عمل فني في حياتي .. وأخر درس أعلمهولك في التحنيط

لم يتمالك (منصور) نفسه وبكى بصوت مرتفع وهو يقول

-أنا عارف إنك كنت بترسم الإبتسامة على وش اللي قتلتهم علشاني .. كان نفسك تشوفني أنا اللي ببتسم .. أنا ابتسمت يا (سعيد) بعد موتك .. ابتسمت وعِشت حياتي

تساقطت دموعه لتُغرِق الأرض واهتز جسده وهو يقول من بين البكاء

-أنا رجعتلك يا (سعيد) علشان أبقى معاك

(أحبه حتى في الخصام .. وبُعْدُه عني يا ناس ما هوش حرام .. مادمت أنا بهجره ارتضيت .. مني على الدنيا السلام)

***

فتح (عصام) الشقة ليدخل وراءه ضابط بالملابس الرسمية وعسكري و(سلوى) تنتظرهم خارج الشقة، كان صوت الجرامافون مازال دائرًا بلا صوت سوى احتكاك إبرته بطرف الإسطوانة.

أشار لهم (عصام) كي يتجهوا للغرفة التي احتوت على الجثث فذهب الضابط ليدخلها وهو يسد أنفه، نظر إلى الأرض لجثة (منصور)، ركع بجوارها فوجد وجهه مبتسمًا وعينيه مفتوحة.

***

1950

جلس (منصور) على الأريكة في الصالة يمسك جريدة يقرأ فيها ويقول:

-الحق دا بنك مصر طالب موظفين جداد .. تعالى نروح بكرة نقدملك في الوظيفة دي يا (سعيد)

كان (سعيد) يقف بملابس المنزل أمام الجرامافون يضبطه

-(سعيد) .. سامعني

-لحظة علشان هَشَغَّل اسطوانة (أنا هويته) بتاعت الشيخ (سيد)

رمى (منصور) الجريدة بجانبه وقال:

-ليه بس كده، ما قلتلك ما بحبش اسمعها

نظر له (سعيد) وابتسم قائلًا:

-بس أنا بحب اسمعها .. بتفكرني باللي عملته أمي .. وبتفكرني إنك كنت معايا لحظتها، وهتفضل معايا لحد ما أموت

-ما تخافش هفضل معاك لحد ما اتأكد إنك مُتّ

قالها (منصور) ساخرًا، فضحك (سعيد) وهو يدير الإسطوانة ويعود ليجلس بجانب (منصور) على الأريكة وهو يغني مع (سيد درويش) مستمتعًا

(أنا هويته .. وانتهيت)

تمت

شكر إلى

- مهندس الاتصالات والباحث النفسي بجامعة القاهرة
  م/رامي إبراهيم .
- أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس
  د/ يسري إبراهيم إبراهيم .

شكر شخصي إلى

- المدير العام لدار (ن) للنشر والتوزيع: أ/حسام حسين .
- مدير النشر بدار (ن) للنشر والتوزيع:أ/هيثم حسن ..
  والذي كان سببًا رئيسًا في خروج هذا الكتاب إلى النور .

أعمال الكاتب

- مخطوطة ابن إسحاق (مدينة الموتى)
- مخطوطة ابن إسحاق (المرتد)
- مخطوطة ابن إسحاق (العائد)
- الجزار
- نصف ميت
- لقاء مع كاتب رعب
- حكايات فرغلى المستكاوي
- فى حضرة الجان

للتواص مع الكاتب

https://www.facebook.com/profile.php?id=100001343653770